حاتم أوس الأنصاريّ

سُلطة الخطاب الشعريّ

عند بني هذيل في الجاهليّة والإسلام والعصر الأمويّ

دراسة تداوليّة

الطبعة الأولى

2019م 1440هـ

كنوز المعرفة

The Power of The Poetic Discourse

of the Tribe of Bani Huthayl
In Jahiliyyah and Islam and The Umayyad Era

By:

Hatem Aws Al Ansari

CamScanner

شُكْرٌ

يُشَرِّفُ الْبَاحِثَ أَنْ يَتقَدَّمَ بِالشُّكْرِ الْوَافِرِ وَالثَّنَاءِ الْعَاطِرِ إِلَى الْعَالِمِ الْجَلِيلِ الَّذِي قَبِلَ الْإِشْرَافَ عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ، وَبَذَلَ فِي تَوْجِيهِهَا وَتَصْحِيحِ مَسِيرِهَا مِنْ نَفِيسِ وَقْتِهِ وَشَرِيفِ عِلْمِهِ، حَتَّى بَلَغَ بِهَا شَاطِئَ الْأَمَانِ بَعْدَ أَنْ اجْتَازَ بِهَا وَبَاحِثِهَا مَوَجَانَ الطُّوفَانِ.

هَذَا الْأَبُ الثَّانِي وَالْقَلْبُ الْحَانِي هُوَ الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ/ مُصْطَفَى عَبْد الشَّافِي الشُّورَى، حَيْثُ كَانَ عَطَاءً مُتَّصِلًا وَصَدْرًا رَحْبًا وَنِقَاشًا مُثْمِرًا يَعِزُّ مِثْلُهُ فِي رُبوعِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ.

وَكَذَلِكَ الشُّكْرُ الْجَزِيلُ وَالثَّنَاءُ الْجَمِيلُ عَلَى الدُّكْتُورَةِ سَلْوَى الْعَوَّا الَّتِي قَبِلَتْ الْإِشْرَافَ عَلَيْهَا، وَسَاعَدَتِ الْبَاحِثَ عَلَى فَهْمِ الْمَنْهَجِ التَّدَاوُلِيِّ فِي لُغَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ، لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِتْقَانِ لَهُ، وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ عَلَى أَسَاتِذَتِهِ، وَمِنْهُمْ الْأُسْتَاذَةُ/ دِيِيرْدِرْ وِلْسُنْ، كَمَا تَفَضَّلَتْ بِإِمْدَادِ الْبَاحِثِ بِمَرَاجِعِهِ وَمَا يَحْتَاجُهُ فِيهِ.

وَلَا يَفُوتُ الْبَاحِثَ أَنْ يَشْكُرَ أَبَوَيْهِ الْكَرِيمَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ حَيْثُ يَسَّرَا لَهُ طَرِيقَ التَّعَلُّمِ مِنْ صِبَاهُ، وَعَلَّمَاهُ كَيْفَ يَكُونُ الْجِدُّ فِي الطَّلَبِ، فَاللَّهُمَّ احْفَظْهُمَا وَارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، وَكَذَلِكَ أُمَّ وَلَدَيْهِ الْكَرِيمَةَ الْمَصُونَةَ الَّتِي لَمْ يَتَوَقَّفْ عَوْنُهَا عَلَى مَا لَيْسَ عِلْمِيًّا بَلْ تَعَدَّاهُ لِمَا هُوَ عِلْمِيٌّ مِنْ كُتُبٍ وَنِقَاشٍ وَفَهْمٍ؛ حَيْثُ كَانَتْ مُتَخَصِّصَةً فِي التَّدَاوُلِيَّةِ أَيْضًا.

وَكَذَلِكَ الشُّكْرُ الْمَوْفُورُ لِشَيْخِي الدُّكْتُور مُحَمَّد السَّيِّد الْحَنْبَلِي عَلَى مَا أَفَادَ بِهِ الرِّسَالَةَ مِنْ جَوَانِبَ عَدِيدَةٍ لَا سِيَّمَا الْمُتَّصِلَةُ بِأُصُولِ الْفِقْهِ وَالْمَنْطِقِ، وَالشُّكْرُ الْجَزِيلُ لِأَخِي أَحْمَد مُحْسِن حَيْثُ قَرَأَهَا قِرَاءَةً مُتَأَنِّيَةً دَقِيقَةً وَأَهْدَانِي كَثِيرًا مِنْ عُيُوبِهَا لِأُصَحِّحَهَا.

CamScanner

الْمُقَدِّمَةُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حَمْدًا للهِ، وَتَمْجِيدًا لَهُ، وَثَنَاءً عَلَيْهِ، وَصَلَاةً وَسَلَامًا عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ وَعَلَى أَبَوَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ أَشْعَارَ بَنِي هُذَيْلٍ مِنْ بَيْنِ عَدِيدٍ مِنْ أَشْعَارِ الْجَاهِلِيَّةِ وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ تَمَكَّنَتْ مِنَ الصُّمُودِ أَمَامَ امْتِحَانِ الزَّمَنِ، وَمَعَ أَنَّ سَائِرَ الشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ اشْتَرَكَ مَعَهُ فِي ذِي الْخَصِيصَةِ لَكِنَّهُ فَاقَ تِلْكُمُ الْأَشْعَارَ بِأَنَّهُ ظَلَّ مُتَشَادًّا مُتَمَاسِكًا بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ فِي وَحْدَةٍ شِعْرِيَّةٍ لِلْقَبِيلَةِ لَا وَحْدَةٍ شِعْرِيَّةٍ لِلشَّاعِرِ(١)؛ فَإِنْ صَحَّتْ الْمُعَالَجَةُ الْبَحْثِيَّةُ لِشُعَرَاءِ الْجَاهِلِيِّينَ وَصَدْرِ الْإِسْلَامِ فَرْدًا فَرْدًا، فَإِنَّهَا لَا تَصِحُّ لِشَاعِرٍ هُذَلِيٍّ إِلَّا فِي ضَوْءِ شِعْرِ الْقَبِيلَةِ.

وَأَثْمَرَ مَجْمُوعُ الْأَسْبَابِ اللُّغَوِيَّةِ وَغَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ فِي الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ الْهُذَلِيِّ أَنْ جَعَلَتْ لَهُ أَوْلَوِيَّةً خَاصَّةً حِينَ جَاءَ وَقْتُ التَّدْوِينِ، وَأَهَمِّيَّةُ ذَلِكَ الشِّعْرِ ـ لُغَوِيًّا وَأَدَبِيًّا فِي التَّعْبِيرِ عَنِ التَّجْرِبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ـ دَعَتِ الْأُدَبَاءَ وَالْعُلَمَاءَ أَنْ يَتَعَامَلُوا مَعَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً غَالِبًا؛ فَكَانَ أَنْ جُمِعَ فِي دِيوَانٍ وَاحِدٍ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ، وَعُنِيَ بِهِ الشُّرَّاحُ وَالشُّعَرَاءُ، كَمَا اخْتَارَ مِنْهُ مُصَنِّفُو الْمَجْمُوعَاتِ الشِّعْرِيَّةِ قَصَائِدَ مُعَيَّنَةً، تَوَاتَرَتْ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَوْدَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْعَاطِفَةِ الصَّادِقَةِ وَالْحِسِّ الْمُرْهَفِ كَعَيْنِيَّةِ أَبِي ذُؤَيْبٍ الْقِرْدِيِّ الْهُذَلِيِّ(٢) وَغَيْرِهَا.

---

(١) وتظهر وَحدةُ قبيلةِ هُذَيلٍ وصمودُها إلى يوم الناس هذا في منتدياتهم على الإنترنت، وفيها يجد الباحث أكثرَ ما طُبع عن الهذليين من كُلِّ جهة، وإن لهم لفضلًا على هذه الرسالة في استيفاءِ مراجعِهَا بِيُسْرٍ، والحمد لله رب العالمين، انظر: www.hothle.com

(٢) الْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْلَى الضَّبِّيُّ الْكُوفِيُّ: الْمُفَضَّلِيَّاتُ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون وأحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م، ط٦، ص٤١٩ وما بعدها.

وَمِنْ هُنَا يُعَدُّ شِعْرُ الْهُذَلِيِّينَ غَنِيًّا أَدَبِيًّا، بِمَطَاوِيهِ الْخَبِيئَةِ فِيهِ، الَّتِي تُحْدِثُ فِي مُتَلَقِّيهِ التَّأَثُّرَ وَالاهْتِزَازَ، مِنْ يَوْمِ أُنْشِدَ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا؛ وَلِذَا قَامَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ وَبِهِ أَبْحَاثٌ أَدَبِيَّةٌ وَافِرَةٌ جَزِيلَةٌ، تُحَاوِلُ كَشْفَ أَسْرَارِ صِنَاعَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ، وَتَفْسِيرَ آثَارِهِ السِّحْرِيَّةِ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، بِمَا تَنْعَقِدُ عَلَيْهِ الْيَدُ، رَصْدًا تَحْلِيلِيًّا تَجْرِيبِيًّا، أَكْثَرَ مِنْهُ وَصْفًا تَخْيِيلِيًّا أَدَبِيًّا.

وَهَذِهِ الدِّرَاسَةُ خُطْوَةٌ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، تُحَاوِلُ دِرَاسَةَ الْبُعْدِ التَّدَاوُلِيِّ فِي شِعْرِ الْهُذَلِيِّينَ، وَهَذِهِ الْمُقَدِّمَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى بَيَانِ عَتَبَاتِ الدِّرَاسَةِ، وَهِيَ: أَسْبَابُ اخْتِيَارِ الدِّرَاسَةِ، وَمُشْكِلَتُهَا، وأَهَمُّ الدِّرَاسَاتِ السَّابِقَةِ عَلَيْهَا، وَأَقْسَامُ الدِّرَاسَةِ.

مُشْكِلَةُ الدِّرَاسَةِ

تَقَعُ مُشْكِلَةُ الدِّرَاسَةِ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَوَاطِنِ التَّأْثِيرِ وَعَوَامِلِهِ، وَقَدْ شَهِدَ الْمُتَقَدِّمُ وَالْمُتَأَخِّرُ لِذَلِكَ التَّأْثِيرِ، وَتِلْكُمُ الْعَوَامِلُ الَّتِي تَضَافَرَتْ مِنْ مَنَابِعَ مُتَعَدِّدَةٍ حَتَّى خَلَقَتْ حَيَاةً لِلْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ الْهُذَلِيِّ لَا فِي مَقَامِ تَلَقِّيهِ الْأَوَّلِ فَحَسْب، بَلْ فِي مَقَامَاتِ التَّمَثُّلِ والتَّلَقِّي التَّالِيَةِ، حَيْثُ عَاشَ مُلْهِمًا لِلشُّعَرَاءِ، مَرْمُوقًا عِنْدَ مُؤَرِّخِي الْأَدَبِ، مَفْحُوصًا عِنْدَ النُّقَّادِ، عَلَى مَرِّ الْقُرُونِ.

وَفَاعِلِيَّةُ هَذَا الشِّعْرِ هِيَ سُلْطَتُهُ الَّتِي جَعَلَتِ الْمُتَلَقِّينَ يَرَوْنَ فِيهِ دِقَّةً وَاقْتِدَارًا عَلَى تَصْوِيرِ التَّجْرِبَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْجَمْعِيَّةِ لِلقَبِيلَةِ، وَالشَّخْصِيَّةِ لِلشَّاعِرِ، وَتَلَقَّاهُ الْعَرَبُ ـ عَلَى تَعَدُّدِ مَشَارِبِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَشَخْصِيَّاتِهِمْ وَأَذْوَاقِهِمِ وَاخْتِلَافِهَا وَتَبَايُنِهَا ـ بِالِانْبِهَارِ وَالْإِعْجَابِ، لِمَا فِيهِ مِنْ حَبْسِ ظِلِّ التَّجْرِبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي نَظْمٍ بِقَدْرٍ مَعْلُومٍ[1]؛ وَلِذَا احْتَاجَ مِنَّا هَذَا الشِّعْرُ إِلَى بَحْثٍ فِي تَصْمِيمِ بِنَائِهِ الْفَنِّيِّ وَظُرُوفِ حَيَاةِ شُعَرَائِهِ، لِاكْتِشَافِ سُلْطَةِ خِطَابِهِ.

---

(١) هذا القدر المعلوم سيأتي بيانه عند الكلام على التخييل والتمثيل في مواضع ذكرهما بالباب الثاني إن شاء الله تعالى.

CamScanner

وَمِنْ هُنَا كَانَ التَّسَاؤُلُ الرَّئِيسُ فِي الدِّرَاسَةِ:

مَا مَكَامِنُ التَّأْثِيرِ فِي هَذَا الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ الْهُذَلِيِّ؟

وَمِنْهُ تَنْفَرِعُ التَّسَاؤُلَاتُ التَّالِيَةُ:

أَوَّلًا: مَا عَتَبَاتُ الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ الْهُذَلِيِّ الَّتِي هَيَّأَتْ مُتَلَقِّيهِ لَهُ؟ وَمَا أَنْوَاعُهَا؟ وَكَيْفِيَّةُ تَوْظِيفِهَا شِعْرِيًّا؟ وَدَوْرُهَا فِي السِّيَاقِ الْوَظِيفِيِّ لِلْقَصِيدَةِ؟

ثَانِيًا: مَا دَوْرُ الْحِوَارِ الشِّعْرِيِّ فِي السِّيَاقِ الْوَظِيفِيِّ؟ وَمَا أَثَرُ التَّخْيِيلِ الْوَارِدِ فِيهِ فِي عَمَلِيَّةِ التَّلَقِّي؟ وَمَا مَوْقِفُهُ مِنْ قَوَاعِدِ التَّخَاطُبِ؟

ثَالِثًا: مَا بَصْمَةُ الْمَجَازِ الشِّعْرِيِّ فِي فِعْلِ الْكَلَامِ لِيَخْتَلِفَ عَنْ فِعْلِ الْكَلَامِ فِي سِيَاقِهِ غَيْرِ الشِّعْرِيِّ؟ وَمَا قِيمَةُ الْحَدَثِ الْكَلَامِيِّ الْمُنْجَزِ شِعْرِيًّا؟

رَابِعًا: مَا إِمْكَانِيَّةُ النَّظَرِ إِلَى قَصَائِدِ الدِّيوَانِ وَأَبْيَاتِهِ فِي تَرْتِيبٍ جَدِيدٍ بِحَسَبِ أَوْسَعِهَا انْتِشَارًا وَتَأْثِيرًا فِي مَجْمُوعِ الْمُتَلَقِّينَ؟ وَمَا الْقِيمَةُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ هَذَا التَّرْتِيبِ؟

أَسْبَابُ اخْتِيَارِ الدِّرَاسَةِ

تَظَاهَرَ عَدَدٌ مِنَ الْحَوَافِزِ عَلَى اسْتِشْكَالِ تَسَاؤُلِ الدِّرَاسَةِ وَإِيقَادِ الْحَمَاسَةِ لِلْبَحْثِ عَنْ جَوَابِهِ، مِنْهَا مَا يَخُصُّ الظَّرْفَ الْمَعْرِفِيَّ وَالْأَدَبِيَّ الَّذِي يَحْيَاهُ الْبَحْثُ وَالْبَاحِثُ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الْخَامِسَ عَشَرَ الْهِجْرِيِّ، وَهَذَا الْجَانِبُ يَتَعَلَّقُ بِكَوْنِهِ بَحْثًا فِي السُّلْطَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ الْفَاعِلَةِ، وَالْقُوَّةِ التَّأْثِيرِيَّةِ الْعَامِلَةِ الَّتِي يُهَيْمِنُ بِهَا الْخِطَابُ عَلَى الْمُتَلَقِّي هَيْمَنَةَ الطَّائِرِ عَلَى فِرَاخِهِ[1]؛ حَيْثُ يَتَّجِهُ النَّظَرُ إِلَى السُّلْطَةِ النَّافِذَةِ لِلشِّعْرِ فِي النَّاسِ وَالْوَاقِعِ،

---

(١) هَيْمَنَ الطائِرُ على فِرَاخِهِ رفرف عليها، انظر:

- أبو القاسم محمود جار الله بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٣، ج٢، ص٥٥٣، مادة (هـ.ي.م.ن).

وَقُدْرَةِ الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ عَلَى تَشْكِيلِ عَالَمِ الْوِجْدَانِ وَمِنْ ثَمَّ تَشْكِيلِ عَالَمِ الْأَعْيَانِ[1].

كَمَا أَنَّ مِنْ تِلْكَ الْحَوَاثِّ مَا يَخُصُّ شِعْرَ بَنِي هُذَيْلٍ فِي أَعْمَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى بَيْنَ مَضَارِبِهِمْ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ.

وَكَوْنُ الدِّرَاسَةِ مُنْحَصِرَةً فِي الشِّعْرِ فَلِأَنَّهُ أَعْلَى فُنُونِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَبْقَاهَا وَأَدْخَلِهَا فِي تَرْكِيبِ الْهُوِيَّةِ الْحَضَارِيَّةِ لِلْأُمَّةِ، بَلْ هُوَ مِنْهَا بِمَنْزِلَةِ الْعَمُودِ لِلْخَيْمَةِ، وَأَمَّا كَوْنُهُ قَدِيمًا أَوِ الْأَقْدَمَ فَلِأَنَّ إِحْكَامَ دِرَاسَةِ الْجُذُورِ شَرْطٌ لِحُسْنِ فَهْمِ الْجُذُورِ وَفَهْمِ الْأَطْوَارِ اللَّاحِقَةِ وَالْفُرُوعِ الْبَاسِقَةِ؛ وَالشَّرْطُ مُقَدَّمٌ عَلَى الْمَشْرُوطِ، كَمَا أَنَّ الْحَضَارَةَ بِنَاءٌ يَقُومُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ.

وَأَمَّا كَوْنُ الْخِطَابِ لِقَبِيلَةٍ لَا لِفَرْدٍ فَلِأَنَّهُ لَا شَاعِرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ فَاقَ بِشِعْرِهِ وَحْدَهُ شِعْرَ قَبِيلَةٍ مُمْتَلِئَةٍ بِالشِّعْرِ كَتَمِيمٍ أَوْ قَيْسٍ أَوْ أَسَدٍ أَوْ هُذَيْلٍ أَوْ طَيِّءٍ، وَأَمَّا كَوْنُهُ هُذَلِيًّا فَلِمَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّمَاسُكِ الْمَتِينِ بَيْنَ خُيُوطِ النَّسِيجِ الشِّعْرِيِّ الْهُذَلِيِّ، بِحَيْثُ تَتَّحِدُ قَالَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ فِيهِ وَمَنْ تَلَاهُمْ، بِقَوْلِهِمُ النَّظَرِيِّ تَارَةً، وَتَارَةً أُخْرَى بِالْفِعْلِ الْعَمَلِيِّ بِالْجَمْعِ وَالتَّدْوِينِ وَالرِّوَايَةِ، فَضْلًا عَنْ أَنَّ الدِّيوَانَ نَاطِقٌ بِذَلِكَ مُقَارَنَةً بِدَوَاوِينِ الْجَاهِلِيِّينَ وَالْإِسْلَامِيِّينَ.

أَهَمُّ الدِّرَاسَاتِ السَّابِقَةِ

لَمْ يَقِفِ الْبَاحِثُ عَلَى أَيِّ دِرَاسَةٍ تَدَاوُلِيَّةٍ اخْتَصَّتْ بِالشِّعْرِ الْهُذَلِيِّ، وَبَقِيَ أَنْ نُشِيرَ إِلَى الدِّرَاسَةِ التَّدَاوُلِيَّةِ الَّتِي تَعَرَّضَتْ لِلشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ بِعُمُومٍ؛ وَهِيَ بِعُنْوَانِ: تَدَاوُلِيَّةُ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ، جَمْهَرَةُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ نَمُوذَجًا، رِسَالَةُ دُكْتُورَاه لِشِيتَرِ رَحِيمَة بِقِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِكُلِّيَّةِ الْآدَابِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِجَامِعَةِ لَخْضَرْ بَاتْنَة، بِإِشْرَافِ: عَبْدِ الْقَادِرِ دَامخي، بِمَدِينَةِ بَاتْنَة بِالْجَزَائِرِ ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

---

(١) سيتضح المقصود هنا بجلاء عند الكلام - في التمهيد بعد قليل - على المراد بالسلطة.

CamScanner

أَقْسَامُ الدِّرَاسَةِ

تَنْقَسِمُ الرِّسَالَةُ إِلَى: مُقَدِّمَةٍ، وَتَمْهِيدٍ، وَبَابَيْنِ، وَخَاتِمَةٍ، وَتُعَرِّفُ الْمُقَدِّمَةُ بِمُشْكِلَةِ الدِّرَاسَةِ، وَأَسْبَابِ اخْتِيَارِهَا، وَأَهَمِّ مَا سَبَقَهَا مِنْ دِرَاسَاتٍ، وَأَقْسَامِ الدِّرَاسَةِ.

أَمَّا التَّمْهِيدُ فَيَتَنَاوَلُ عَدَدًا مِنَ الْمُحَدِّدَاتِ الْمَنْهَجِيَّةِ لِلدِّرَاسَةِ، وَهِيَ: بَيَانُ الْمُرَادِ فِي الدِّرَاسَةِ بِالْخِطَابِ، فَالْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ، فَالسُّلْطَةِ، فَسُلْطَةِ الْخِطَابِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَتَعَرَّضُ التَّمْهِيدُ لِحُدُودِ مَادَّةِ الدِّرَاسَةِ وَمَصَادِرِ شِعْرِ بَنِي هُذَيْلٍ الَّتِي عَلَيْهَا التَّعْوِيلُ، مَعَ إِشَارَةٍ إِلَى مَنْهَجِ الدِّرَاسَةِ، وَقَائِمَةٍ بِالدِّرَاسَاتِ السَّابِقَةِ عَلَيْهَا.

وَجَاءَ **الْبَابُ الْأَوَّلُ** عَنِ التَّدَاوُلِيَّـةِ بِعُنْوَانِ: الدِّرَاسَةِ النَّظَرِيَّةِ، وَيَنْقَسِمُ إِلَى سَبْعَةِ فُصُولٍ تُلْقِي الضَّوْءَ عَلَى نَشْأَتِهَا، وَتَعْرِيفَاتِهَا، وَأَنْوَاعِهَا، وَإِنْ كَانَتْ مَذْهَبًا أَمْ مَنْهَجًا أَمْ عِلْمًا مُسْتَقِلًّا، كَمَا يَأْتِي شَرْحُ الْبَرْنَامَجِ التَّحْلِيلِيِّ لِنَظَرِيَّةِ أَفْعَالِ الْكَلَامِ، مَعَ تَطْوِيرٍ عَرَبِيٍّ لَهُ، وَكَذَلِكَ نَظَرِيَّةِ الِاسْتِلْزَامِ الْحِوَارِيِّ، وَيُخْتَتَمُ الْبَابُ بِنِقَاشِ جَدْوَى التَّدَاوُلِيَّةِ الْأَدَبِيَّةِ وَمُنْطَلَقَاتِهَا.

أَمَّا **الْبَابُ الثَّانِي** وَهُوَ الدِّرَاسَةُ التَّطْبِيقِيَّةُ، فَيَتَكَوَّنُ مِنْ خَمْسَةِ فُصُولٍ، يَقِفُ فِيهَا الْبَاحِثُ عِنْدَ التَّوْظِيفِ الْقَانُونِيِّ لِلْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ فِي بَنِي هُذَيْلٍ، وَاسْتِعْمَالِ الشِّعْرِ فِي الرَّسَائِلِ، وَبِخَاصَّةٍ رِسَالَةُ الِاسْتِغَاثَةِ، وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ التَّرْتِيبُ التَّدَاوُلِيُّ لِشِعْرِ الْهُذَلِيِّينَ، ثُمَّ يَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى سُلْطَةِ الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ الْهُذَلِيِّ الرِّثَائِيِّ فِي ضَوْءِ نَظَرِيَّةِ الْمُلَاءَمَةِ، وَيُخْتَتَمُ الْبَابُ بِالْكَلَامِ عَلَى الْمُلَاءَمَةِ الصَّوْتِيَّةِ فِي الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ الْهُذَلِيِّ.

وَفِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ تَحْمِلُ **الْخَاتِمَةُ** عُصَارَةَ الدِّرَاسَةِ، وَمِنْ بَعْدِهَا ذِكْرُ **مَصَادِرِ الرِّسَالَةِ وَمَرَاجِعِهَا**، ثُمَّ **تَلْخِيصٌ** لِأَهَمِّ نَتَائِجِهَا بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ، ثُمَّ فِهْرِسُ الرِّسَالَةِ.

وأشكر بعد الله كل من له فضل على هذا العمل؛ إذ أصله كان رسالتي للحصول على الدكتوراه الثانية من قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بجامعة عين شمس،

CamScanner

أشرف عليها أ.د/ مصطفى عبد الشافي الشورى، إشرافا أصليا، ود. سلوى محمد سليم العوا، إشرافا مشاركا، وناقشها: أ.د/ أسامة محمد بحيري، وأ.د/ منال محرم عبد المجيد، وحازت مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بالطبع والتداول بين الجامعات المصرية، وذلك في يوم ٢٠/٨/٢٠١٧م.

وقد من الله بهذه المنة شافعا منته الأولى بأن جاد علي بالدكتوراه الأولى ٢٠١٥ بمرتبة الشرف الأولى أيضًا مع التوصية بالطبع والتداول بين الجامعات، وكانت من قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، بعنوان:

«أَثَرُ شِعْرِ الْبُحْتُرِيِّ فِي الْأَدَبِ الْأَنْدُلُسِيِّ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهِجْرِيِّ»

والحمد لله أوَّلًا وآخِرًا.

١٠ من شعبان ١٤٣٩هـ
٢٥ من أبريل ٢٠١٨م

حاتم أوس الأنصاري
ضَحْوَةُ القاهرة ربيعًا

التَّمْهِيدُ

جاء في عنوان الدراسة بعضُ المصطلحات المترددةِ في جَنَبَات البحث اللغوي والأدبي المعاصرَيْن؛ مما يَفْرِضُ عند البَدْءِ ضرورةً منهجيةً في تحديد المرادات بتلك الاصطلاحات، كالمراد بالخطاب والمراد بالمركب الوصفي «الخطاب الشعري» ثم المراد بالسلطة، والمراد بالمركب الإضافي «سلطة الخطاب» وبعد ذلك يأتي بيانُ حدودِ مادة الدراسة ومنهجِها، وقائمةٍ تحاول استقصاءَ كلِّ ما سبقها في دراسة شعر الهذليين.

الْمُرَادُ بِالْخِطَابِ

من قلب البنية النظرية للنحو العربي ينقسم الضمير إلى نوعين: غَيْبَة وحضور، والحضور قسمان: أحدهما: ضمير المتكلم، والثاني: ضمير المخاطَب[1]، ومعنى الخطاب الموجود في هذا الأخير هو المقصودُ إذا استُعمِلَتْ كلمةُ الخطاب على الأصل، وهو عينُه المرادُ بقول نُقَّاد السرديات المعاصِرِين: استعمال الضمير الثاني.

ثم إن في استعمال التداوليين يتسع الخطاب ليدل على أحد معنيين:

---

(١) يقول ابن مالك في الخلاصة:

فَمَـا لِذِي غَيْبَـةٍ اوْ حُضُورِ   كَأَنْتَ وَهْوَ سَـمِّ بِالضَّمِيرِ

ويقول ابن عقيل: «يشير إلى أن الضمير: ما دل على غيبة كَهُوَ أو حضور، وهو قسمان: أحدهما ضمير المخاطب، نحو أنتَ، والثاني ضمير المتكلم، نحو أنا». راجع:

- بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بابن عقيل: شرح على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة ٢٠٠٥، ج١، ص٧٧.

CamScanner

المعنى الأول: عملية التخاطب التي يجري فيها تقديم المخاطِب مشاركةً لفظيةً أو غيرَ لفظية للمخاطَب في ضمن ظروف الحدث ومصاحِباته.

والمعنى الآخر: المشاركةُ نفسُها.

والخطاب بهذا الفهم يقابل مغايِرًا الجمْلَةَ؛ فهو أَعَمُّ، ويقابل مغايِرًا الملفوظَ؛ فبينهما عمومٌ وخصوصٌ وَجْهِي، ويقابل مغايِرًا اللغةَ، فهو مباين؛ لأنه استعمال واللغة وَضْعٌ.[1] والمعنى عند التداوليين مختص بالاستعمال دون الوَضْع، وفي هذه الرسالة يُستعمل هذا المصطلح للدلالة على أحد هذين المعنيين التداوليين.

وأقرب صورة في التراث العلمي العربي لهذا المعنى التداولي - وهي غير متطابقة - ما قدمه علماء أصول الفقه[2] تعريفًا للخطاب[3]، وهو: «اللَّفْظُ الْمُتَوَاضَعُ

---

(١) ممن نبه على أطراف من ذلك:

- دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة ٢٠٠٨، ط١، ص٣٨-٤٠.

(٢) إنما احتاج الأصوليون أن يعرفوا الخطاب لأنه جنسُ تعريفِ الحكم الشرعي، وهو: «عِبَارَةٌ عَنْ خِطَابِ الشَّارِعِ الْمُتَعَلِّقِ بِأَفْعَالِ الْمُكَلَّفِينَ» راجع في ذلك مثلا:

- أبو الحسن سيد الدين علي الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ج١، ص٩٥، وما بعدها.

- جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي: نهاية السُّول في شرح منهاج الوصول، بحاشية سلم الوصول للشيخ محمد بخيت المطيعي، عالم الكتب، ج١، ص١٦، وما بعدها.

(٣) ومن جهة أخرى ناقش الأصوليون أخذ الخطاب جنسا قريبا في تعريف الحكم الشرعي، مناقشة تزيدنا إدراكا لما يسمونه خطابا، يقول الشيخ حسن العطار: «قَوْلُهُ: (خِطَابُ اللَّهِ) أُعْتُرِضَ بِأَنَّ الْحُكْمَ الْمُصْطَلَحَ هُوَ مَا ثَبَتَ بِالْخِطَابِ كَالْوُجُوبِ وَالْحُرْمَةِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا هُوَ مِنْ صِفَاتِ فِعْلِ الْمُكَلَّفِ لَا نَفْسِ الْخِطَابِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى. وَأُجِيبَ بِأَنَّ الْوُجُوبَ هُوَ نَفْسُ الْخِطَابِ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ قَوْلِ الْقَائِلِ افْعَلْ وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا بِالذَّاتِ بَلْ الِاعْتِبَارِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ إذَا نُسِبَ لِلْحَاكِمِ يُسَمَّى إيجَابًا، وَإِذَا نُسِبَ إلَى مَحَلِّ الْحُكْمِ وَهُوَ الْفِعْلُ يُسَمَّى وُجُوبًا، وَهَكَذَا بَقِيَّةُ الْأَحْكَامِ». انظر: =

عَلَيْهِ الْمَقْصُودُ بِهِ إِفْهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ»[1] فأخرج باللفظ ما تُوُوضِع عليه من الإشارات والحركات غيرِ اللفظية، وأخرج بقيد التواضعِ المهملَ، وبالقيد الأخير في التعريف أخرج الكلامَ لمن لا يفهم كالنائم والمغمى عليه ونحوِه[2].

الْمُرَادُ بِالْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ

والشعر لا يُحَدُّ؛ لأنه عربيٌّ؛ والعرب تقيم المعاني في النفوس بحسَبِ المقام، والحدُّ مطلقٌ عن المقام[3]، وإنما تقريب الشعر أنه: الكلام الموزون المقفى الذي فيه تخييل، وعلى هذا تسير هذه الرسالة[4].

وعلى ذلك فالخطاب الشعري في هذه الرسالة هو: المشاركة الشعرية المتعاونة مع عواملِ المقامِ في تكوين معنًى وإِحداثِ أَثرٍ عند المتلقي.

= ـ حسن بن محمد العطار: حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، دار الكتب العلمية، ج١، ص٦٦.

(١) سيد الدين الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام، ج١، ص٩٥.

(٢) وقال بعض الأصوليين: «قَوْلٌ يَفْهَمُ منه من سمعه شيئًا مُفِيدًا مطلقًا» فهو استعمال للمصدر بمعنى اسم المفعول، ويخرج منه بقيد الإفادة المهمل، ما لو استعمل قائله ما لا دلالة له في اللغة، أما قيد الإطلاق فيفيد أن هذا القول يكون خطابا سواء في حالة قصد إفهام السامع أو عدم القصد، انظر:
ـ تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد الفُتوحي المعروف بابن النجار: شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العُبَيْكَان، الرياض ٢٠٠٩، ط٢، ج١، ص٣٣٩.

(٣) فيختلف معناه باختلاف المتكلمين والسامعين والظروف والمصاحبات لعملية إرادة تعريفه، وكل شيء عربي كذلك؛ لأنه ليس صوريا أرسطيا؛ بيد أن مطالب تعريفيه آبَى من غيرها على الانصياع في قوالب اليونان.

(٤) يُستأنس هنا بقول بعض العلماء: «ولم يكن الشعر عندي في جوهره إلا تعبيرا جميلا منطوقًا منغومًا عن انعكاس الحياة في أروع معانيها على النفس البشرية». انظر ذلك في:
ـ نَجِيب مُحَمَّد الْبَهْبِيتِي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠م، ط١، ص: (ي) من المقدمة.

الْمُرَادُ بِالسُّلْطَةِ

السُّلْطَة والسَّلَاطَة والسُّلُوطَة هي: القَهْرُ والقُوَّةُ، والسُّلْطَانُ يَجْرِي مَجرى المصدر، وكَثُرَ عند العرب استعمالُها في مجالَيْنِ دلالِيَّيْنِ:

المجال الأول: صفة اللسان، فالرجل إذا وُصِفَ بسَلِيطٍ أو سَلْطٌ، والمرأة بِسَلِيطَةٍ أو سَلَطَانَة أو سِلِطَانَة؛ فالمقصود أحدُ معنيَيْنِ: طولُ اللسانِ بمعنى الإيذاءِ به، أو حِدَّتُهُ بمعنى فصاحَتِه.

والمجال الآخر: الإمارةُ والحُكْم، ولهذا قِيلَ للأُمراء سَلاطين؛ لأَنهم الَّذِينَ تُقَامُ بِهِمُ الْحُجَّةُ والحُقوق، وتكون لهم القوة والبطش والغلبة.

وكثرةُ ذَيْنِ الاستعمالَيْنِ لا يمنعُ استعمالَ السُّلطة في غيرهما كوَصْفِ حَدِّ السيف أو حافر الدابة أو خُفِّهَا أو شِدَّة الدَّم[١].

وإن كان النصف الأول من القرن الخامس عشر الهجري يَعُجُّ بقضايا السلطةِ الإِمَارِيَّة الْحُكْمِيَّة، فإنه بهذا يُفَجِّرُ في ذهن الباحث في التراث العربي عنايةً بالسلطة اللسانية، لاختصاصها بالروحِ أكثرَ من الجسد.

الْمُرَادُ بِسُلْطَةِ الْخِطَابِ

وسلطة الخطاب في هذه الرسالة هي: الْقُوَّةُ الْقَائِمَةُ بِالْخِطَابِ الْمُؤَثِّرَةُ فِي الْمُتَلَقِّي الْمُجْتَمِعَةُ مِنَ انْسِبَاكِ عَوَامِلِ الْحَدَثِ التَّخَاطُبِيِّ.

وهذا يعني أن العوامل التي تتسبب في إحداث سلطة الخطاب منها ما هو جزء البنية اللغوية ومنها ما ليس جزءها، كطريقة أداء المخاطِب والأوعية المعنوية التي تَظْرِفُ[٢]

---

(١) راجع في كل هذه المعاني: لسان العرب وتاج العروس، مادة (س.ل.ط).

(٢) وعن الاستعمال المعنوي لكلمة ظرف قال ابن منظور: «وظَرْفُ الشَّيْءِ: وِعاؤه، وَالْجَمْعُ ظُرُوف، =

التخاطب وتشارك عَلَاميًا في بناء المعنى المفهوم عند المتلقي، كالوعاء الاجتماعي مثلا.

وهذه القوة لها اقتدار وهيمنة وسلطان على المتلقي، وهذا ما دعا لتسميتها «سلطة الخطاب» وإنما يُهتدى إليها من أثرها، ومعنى ذلك أنه يستدل عليها بظهور أثرها فيما تحقق بالخطاب في المتلقي والواقع.

وقد يكون غرضًا للمخاطِب حين يتطابق مع مقصدية المخاطِب، وقد ينحرف عن تلك المقصدية بدرجات مختلفة، تعكس هذه الدرجات القدرة البلاغية للمخاطِب على توظيف اختياراته اللغوية وغير اللغوية في الحدث التخاطبي لتحقيق غرضه منه.

وهذا ما يستدعي المنهج التداولي؛ لأنه المعنيُّ بدراسة ذلك كما سيأتي البيان إن شاء الله تعالى.

ولا بد هنا من توضيح أمور تخص الاصطلاحات المستعملة:

الأول: عَدَلُ الباحث عن استعمال كلمة «السياقات» في مكان «الأوعية المعنوية» لأن السِّيَاق والسِّبَاق كلاهما جزء البنية اللغوية التي يؤديها المتكلم[1]؛ فليست خارجة عنها[2].

= وَمِنْهُ ظُرُوف الأَزمنة والأَمكنة. اللَّيْثُ: الظَّرْف وِعَاءُ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِنَّ الإِبْريق ظَرْفٌ لِمَا فِيهِ. اللَّيْثُ: وَالصِّفَاتُ فِي الْكَلَامِ الَّتِي تَكُونُ مَوَاضِعَ لِغَيْرِهَا تُسَمَّى ظُرُوفًا مِنْ نَحْوِ أَمامَ وقُدَّامَ وأَشباهِ ذَلِكَ، تَقُولُ: خَلْفَكَ زَيْدٌ، إِنَّمَا انْتَصَبَ لأَنه ظَرْفٌ لِمَا فِيهِ وَهُوَ مَوْضِعٌ لِغَيْرِهِ، وَقَالَ غَيْرُهُ: الْخَلِيلُ يُسَمِّيهَا ظُرُوفًا، وَالْكِسَائِيُّ يُسَمِّيهَا الْمَحَالَّ، وَالْفَرَّاءُ يُسَمِّيهَا الصِّفَاتِ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ». راجع اللسان مادة (ظ.ر.ف).

(١) يمكن الوقوف على هذا الاستعمال من تتبع الدلالات الأصلية للكلمة عند الجاهليين كما وردت في:

ـ محمد بن منظور الأنصاري: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١، ط١، مادة (س.و.ق) ومادة (س.ب.ق).

ـ السيد محمد أبو الفيض الملقب بمرتضى بن محمد الزَّبِيدِي: تاج العروس من جواهر القاموس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٠، ط١، مادة (س.و.ق) ومادة (س.ب.ق).

(٢) هكذا يجري استعمال العرب في كتاباتهم العلمية وبخاصة عند المتأخرين من الأصوليين والمناطقة =

CamScanner

والأمر الثاني: عَدْلُ الباحث عن وصف هذه الأوعية بالمصاحِبة أو التي في مَعِيَّة الحدَث؛ لأن التفكير العربي يأبى الخَلْطَ بين الوعاء الظارف من جهةٍ والمصاحِبِ أو الذي في الْمَعِيَّة من جهةٍ أخرى؛ فهما متغايران لا متطابقان[1]، واستعمال أحدهما مكان الآخر من إهدار دلالات الألفاظ العربية وليس مجازا؛ لافتقاره إلى القرينة المانعة، والأصل عدم المجاز في التعريفات.

والأمر الثالث: أن المكانَ وعاءٌ غيرُ معنويٍّ للحَدَث؛ لأنه جُثَّةٌ وله جِرْمٌ[2]، وهذا الاحتواء الفيزيائي لا يعني الباحثَ التداولي، لكن يعنيه دلالة المكان الموجِّهة للمعنى المستنتج من الحدث التخاطبي، وهذه الدلالةُ معنًى لا جُثَّة، فدلالة المكان ليست المكان، وهي ما يرومه الباحث التداولي، وكذلك الباحث البلاغي ويسميها قرينةً[3].

= والبلاغيين، بخلاف دلالة كلمة «Context» في اللغة الإنجليزية؛ فإنها تعني ما هو خارج البنية اللغوية.

(١) ويظهر هذا من سبب تسمية النحاة لواو المعية، حيث يسميها البصريون واو المعية، ويسميها الكوفيون واو الصَّرْف، وسبب إطلاق ذلك عليها أنها لا يندرج ما بعدها في حكم ما قبلها؛ فكأنه صرف عنه. راجع اللسان مادة (و.ا) والتاج في الوجه السابع والعشرين في خروج الواو عن إفادة مطلق الجمع.

(٢) المقصود بالجثة في لسان علماء العرب وعلى رأسهم النحاة ما يعبر عنه الآن فيزيائيا بأنه ثلاثي الأبعاد، أي: له طول وعرض وارتفاع، وهو معنى الجِرم، وكونه جرما يدل على كونه ذاتا لا معنًى، ومنه قول ابن مالك في خلاصته المشهورة بالألفية:

وَلَا يَكُونُ اسْـمُ الزَّمَانِ خَبَرَا   عَـنْ جُثَّـةٍ، وَإِنْ يُفِـدْ فَأَخْبِـرَا

انظر شرحه في: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج١، ص١٧٧.

(٣) مع ملاحظة أن مفهوم القرينة أوسع عند البلاغيين من الوعاء المعنوي هنا؛ فهي تشمل القرينة اللغوية وغير اللغوية، يفهم هذا مثلا من عبارة السعد التفتازاني وابن يعقوب المغربي على التخليص في:
- شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص القزويني وما معه شروح، دار إحياء الكتب العربية، عيسى مصطفى الحلبي، القاهرة، ج٤، ص١٢. وسنشير إليها بعد ذلك بشروح التلخيص اختصارًا.

CamScanner

شِعْرُ بَنِي هُذَيْلٍ وَحُدُودُ مَادَّةِ الدِّرَاسَةِ

هذيلٌ قبيلةٌ عَدْنَانِيَّةٌ، كانت تسكن بادية الحجاز حول مكة والطائف وما صاقب ذلك[1]، قال الزَّبِيدِي: «هُذَيْلُ بنُ مُدْرِكَةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ: أَبُو حَيٍّ مِنْ مُضَرَ أَعْرَقَتْ فِي الشِّعْرِ»[2] وشهد النقاد أن في هذيل أربعينَ شاعرًا مُفْلِقًا مُحْسِنًا[3]، ومن هذيل الصحابيُّ الجليل عبد الله بن مَسْعُودٍ[4] رضي الله عنه، وهو من أعلم الناس بالعربية والقرآن والسنة إن لم يكن أعلمَهم، وقد طلب فيهم الإمام الشافعي العربية سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً[5].

---

(١) للاطلاع على تفاصيل أكثر عن القبيلة ونسبها وبطونها ومنازلها، راجع لزامًا:

ـ عبد الجواد محمد الطيب: لغة هذيل، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة بكلية الآداب بقسم اللغة العربية، بإشراف: خليل يحيى نامي، بلا تاريخ، وهي بالآلة الكاتبة، ومتوافر على الإنترنت، ص١-٤٣.

ـ أحمد كمال زكي: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، صادر عن: المكتبة العربية التي تصدرها وزارة الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة من المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ١٩٦٩، ص٣-٢٢.

(٢) الزبيدي: تاج العروس، مادة (هـ.ذ.ل).

(٣) أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب الأصمعي: فحولة الشعراء، تحقيق المستشرق: ش.توري، تقديم: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨٠، ط١، ص١٩.

(٤) راجع: الزبيدي: تاج العروس، مادة (غ.ف.ل).

(٥) أبو عبد الله ياقوت شهاب الدين الرومي الحموي: معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣، ط١، ج٦، ص٢٣٩٥.

CamScanner

أما الشعر الهذلي فقد وصل إلينا من طرقٍ أرفعُها طريق أبي سعيدٍ السُّكَّرِيِّ المتوفى ٢٧٥هـ، وقد روَى الأشعار وأخبارها وشروحها عن: العباس بن الفرج الرياشي، وإبراهيم بن سفيان الزيادي، ومحمد بن حبيب، ومحمد بن الحسن، وأبي توبة ميمون بن جعفر، وأبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي، والزبير بن بكار، وسلمة بن عاصم.

وقد روى هؤلاء عن أبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي الباهلي، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وابن الأعرابي محمد بن زياد، والأخفش سعيد بن مسعدة، وعبد الله بن إبراهيم الجمحي، وخالد بن كلثوم، وعمرو بن أبي عمرو الشيباني، وأبيه أبي عمرو إسحاق بن مرار، والأموي عبد الله بن سعيد، وعمر بن بكير، ونصران، وعمارة ابن أبي طرفة الهذلي.

كما كان في رواة أشعارهم المشهورين أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، وأبو عمرو بن العلاء البصري[1].

هذا وقد طُبع ديوان الهذليين عدة مرات في أوربا، ولا يعوَّلُ الآن على شيء منها، وطُبع مرتين عن القسم الأدبي بدار الكتب المصرية بالقاهرة، من مطبعتها، في ثلاثة أجزاء، وكانت الطبعة الثانية عام ١٩٩٥م، وقد حققه الأستاذ أحمد الزين في جزئه الأول، وبعض الجزء الثاني، ثم قام الأستاذ محمود أبو الوفا بإتمام تحقيق الجزء الثاني، وتحقيق الجزء الثالث، وقد بيَّن ذلك مفصلا في مقدمة الجزء الثاني.

لكن بعد الطبعة الأولى لدار الكتب المصرية طُبع الديوان بشرح أبي سعيد الحسن بن الحسين السُّكَّرِيِّ، بتحقيق: الأستاذ عبد الستار أحمد فراج، وراجع التحقيق الأستاذ: أبو فهر محمود محمد شاكر ـ رضوان الله عليه ـ فجاءت هذه الطبعة أتمَّ

---

(١) انظر في هذا: أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري: شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ومراجعة: محمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة ١٩٦٥، ط١، ج١، ص١٠-١١، من مقدمة المحقق.

وأضبطَ، من حيث: سندُ الرواية، ومتنُ الأشعار المروية، وشرحُها، وبيانُ أقوال العلماء فيها. وقد صدرت عن مطبعة المدني بالقاهرة، بمكتبة دار العروبة بالقاهرة أيضا، ضمن سلسلة كنوز الشعر، في ثلاثة أجزاء، عام ١٣٨٤ه ١٩٦٥م؛ ولذلك ينحصر التعويل على هذه الطبعة دون غيرها.

ولا غناء عن الاستئناس بما ورد في كتاب أبي الفتح عثمان بن جني «التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله السُّكَّرِي»، تحقيق: أحمد ناجي القيسي وخديجة عبد الرازق الحديثي وأحمد مطلوب، ومراجعة: مصطفى جواد، منشورات وزارة المعارف العراقية، ببغداد ١٩٦٢، الطبعة الأولى.

مَنْهَجُ الدِّرَاسَةِ

كما تبين من الكلام على المراد بسلطة الخطاب فإن الدراسة اتخذت من المنهج التداولي وسيلة للكشف عن تلك السلطة، لاختصاصه بالأفعال الكلامية ذات الأثر في الواقع، ولما يتيحه من فرصة للتحليل غير اللغوي بالإضافة للتحليل اللغوي ومنه البلاغي للخطاب الشعري، وسيأتي التعريف به وبأهم مصطلحاته المستعملة في الدراسة في الباب الأول إن شاء الله تعالى.

الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ عَلَيْهَا

وبقي هنا عدد من الدراسات الأدبية في شعر بني هذيل، وهذه هي مرتبة على حروف المعجم بأسماء المؤلفين:

١ـ أحمد الجدع: نسب هذيل، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ٢٠٠٣، ط١.

٢ـ أحمد صلاح البنا: الرثاء في شعر الهذليين، دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، بإشراف: عبد الحميد شيحة، ٢٠١٠م.

CamScanner

٣ـ أحمد عبد الرحمن محمود سويلم: الحيوان في شعر الهذليين، دراسة وصفية تحليلية، رسالة ماجستير بجامعة القدس، بإشراف: جمال غيظان، القدس، فلسطين ٢٠١٢.

٤ـ أحمد علم الدين الجندي: من الخصائص اللغوية لقبيلة هذيل القديمة، بلا دار نشر ولا تاريخ.

٥ـ أحمد كمال زكي: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، دار الكاتب العربي، القاهرة١٩٦٩، ط١.

٦ـ أسماء عبد المطلوب نوري السيد: النزعة القصصية في شعر الهذليين، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى، بإشراف: حبيب حنش الزهراني، مكة المكرمة١٤٢٤ه ٢٠٠٣م.

٧ـ إسماعيل داوود محمد النتشه: أشعار هذيل وأثرها في محيط الأدب العربي، رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، بإشراف: عبد السلام أبي النجا سرحان، ١٩٧٦، وطبع عن دار البشير، ومؤسسة الرسالة،٢٠٠١، جزآن، ط١.

٨ ـ إسماعيل داوود محمد النتشه: وصف الحيوان في الشعر الهذلي، نادي أبها الثقافي، المملكة العربية السعودية١٤٠٢ه ١٩٨٢م، ط١.

٩ـ إياد عبد المجيد إبراهيم: البناء الفني في شعر الهذليين، دراسة تحليلية، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»، بغداد ٢٠٠٠م، ط١.

١٠ـ أيمن إسماعيل بكر: تعدد الرواية في الشعر الجاهلي، ديوان الهذليين نموذجا، ٢٠٠٤.

١١ـ بتول البستاني: ظاهرة الشكوى في شعر هذيل، رسالة ماجستير بكلية الآداب، بجامعة الموصل، بإشراف: عبد الإله الصائغ، ١٩٨٧.

CamScanner

١٢ـ جريدي سليم المنصوري: مشهد النحل في شعر الهذليين، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة، العدد ٢١، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م.

١٣ـ حسين عبيد الشمري: المرأة في شعر الهذليين، رسالة ماجستير بكلية الآداب بجامعة القادسية، ٢٠٠٠.

١٤ـ خالد محيي الدين البرادعي: هذيل القبيلة في شعرها، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس ٢٠٠٠، ط١.

١٥ـ خليل إبراهيم أبو ذياب: «الصورة الفنية في شعر هذيل» وله كذلك: «التشكيل الاجتماعي والفني للمرأة الهذلية» و«ظاهرة الموت في الشعر الهذلي» و«أبو صخر الهذلي، حياته وشعره» و«أمية بن أبي عائذ، حياته وشعره» و«مليح بن الحكم، حياته وشعره» و«ساعدة بن جؤية، حياته وشعره» ولعل أكثرها منشور بالرياض حيث عمله بجامعة الإمام، ولم نقف على دور نشرها.

١٦ـ سائد ياسين أسعد: ما بني على أشعار الهذليين من تصاريف اللغة وقواعدها، رسالة ماجستير بجامعة النجاح الوطنية، بإشراف: يحيى عبد الرؤوف جبر، نابلس، فلسطين ١٩٩٨م.

١٧ـ سعيد بن طيب المطرفي: الإنشاء ومواقعه في شعر هذيل، رسالة دكتوراه.

١٨ـ سوهام المصري: ديوان أبي ذؤيب الهذلي، عني بمراجعته وقدم له: ياسين الأيوبي، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨م، دمشق، عمَّان، ط١.

١٩ـ صالح بن أحمد بن محمد السهيمي: الحوار في شعر الهذليين، دراسة وصفية تحليلية، رسالة ماجستير في جامعة أم القرى، بإشراف: عبد الله محمد العضيبي، مكة المكرمة ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

٢٠ـ عاطف أحمد عثمان خيمر: شواهد الشعراء الهذليين في التراث النحوي،

CS CamScanner

توثيق دراسة، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، بإشراف: محمد حماسة عبد اللطيف، ٢٠٠٠م.

٢١ـ عاطف محمد مصطفى: الصورة الفنية في شعر الهذليين، رسالة ماجستير بجامعة اليرموك، بإشراف: عبد القادر الرباعي، ١٩٩٠.

٢٢ـ عالي بن سرحان القرشي: اشتيار العسل عند الشعراء الهذليين، قراءة في سياقاته ودلالاته الشعرية، بحث منشور بمجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٨، ع٣٦، ربيع الأول بمكة المكرمة١٤٢٧هـ.

٢٣ـ عبد الله بن ضاوي الهذلي: قبيلة هذيل نسبها وتاريخها، بلا دار نشر ولا تاريخ.

٢٤ـ عبد الجواد محمد الطيب: لغة هذيل، رسالة دكتوراه بكلية الآداب بجامعة القاهرة، بإشراف: خليل يحيى نامي، وقد طبعت عن: دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٩، ط١.

٢٥ـ عبد الجواد محمد الطيب: هذيل في جاهليتها وإسلامها، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط١.

٢٦ـ عبد الناصر محمد السعيد: الحس القصصي في شعر الهذليين، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة٢٠٠٠، ط١.

٢٧ـ عفاف طريلي: النص الواصف، شرح أشعار الهذليين أنموذجا، رسالة ماجستير بجامعة الحاج لخضر باتنة، بإشراف: عبد الله العشي، مدينة باتنة بالجزائر ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٢٨ـ عنان محمد أحمد: قراءة في عينية أبي ذؤيب الهذلي، بلا دار نشر ولا تاريخ.

٢٩ـ عهود أبو الهيجاء: بنية النص الشعري عند أبي ذؤيب الهذلي، رسالة ماجستير بجامعة اليرموك ٢٠٠٦.

٣٠ـ فاضل بنيان: الطبيعة في شعر الهذليين، رسالة ماجستير بكلية الآداب بجامعة الموصل، ١٩٨٧.

٣١ـ كريم زكي حسام الدين: المعجم اللغوي لشعر الهذليين، دراسة دلالية، رسالة دكتوراه، ١٩٨٠، بكلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة.

٣٢ـ محمد أحمد بريري: الأسلوبية والتقاليد الشعرية في شعر الهذليين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٥، ط١.

٣٣ـ محمد الحسن علي الأمين: الصورة البيانية في شعر الهذليين، دراسة وتحليل ومقارنة، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى، بإشراف: عبد الفتاح لاشين، مكة المكرمة ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٣٤ـ محمد خليل الخلايلة: بنائية اللغة الشعرية عند الهذليين، عالم الكتب الجديد، إربد بالأردن ٢٠٠٤، ط١.

٣٥ـ محمد بن سعيد بن إبراهيم اللويمي: شعر أبي ذؤيب الهذلي، دراسة بلاغية أسلوبية، رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، بإشراف: سعد أبو الرضا بن محمد أبو الرضا، ١٤٢٤ه.

٣٦ـ محمد مصطفي منصور: أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، دراسة توثيقية نقدية وتحليلية فنية، وتطبيق لنظرية جديدة مبتكرة في الأدب العربي، دار غريب القاهرة ٢٠٠٤، ط١.

٣٧ـ المكي العلمي: شعراء هذيل أشعارهم وأخبارهم في القرن الأول الهجري، رسالة ماجستير بكلية الآداب، بجامعة دمشق، ١٩٨٣.

CamScanner

٣٨ـ مها علي محمد الشطناوي: أسلوب التقديم والتأخير بين النحو والبلاغة، الهذليين نموذجا، رسالة ماجستير بجامعة اليرموك، بإشراف: فايز القرعان: ١٩٩٨.

٣٩ـ ميساء قتلان: شعر ساعدة بن جُؤَيَّةَ الهذلي، دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير بجامعة دمشق، بإشراف: حسين جمعة، دمشق ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٤٠ـ نصرت عبد الرحمن: الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ١٩٨٥، ط١.

٤١ـ نصرة الزبيدي: ما وصلنا من شعر جنوب الهذلية، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠١١، ط١.

٤٢ـ نورة الشملان: أبو ذؤيب الهذلي، حياته وشعره، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٨٠، ط١.

الْبَابُ الْأَوَّلُ

الدِّرَاسَةُ النَّظَرِيَّةُ

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

نَشْأَةُ التَّدَاوُلِيَّةُ

بَيْنَ التَّدَاوُلِيَّةِ وَالنَّفْعِيَّةِ الْفَلْسَفِيَّةِ:

في مَطْلَع القَرْنِ العشرينَ نَبَعَتْ من الواقع الغَرْبِيِّ[1] حاجاتٌ نظريةٌ عديدةٌ إلى نظريةٍ تلتفِتُ إلى الإنسان أكثرَ مِنَ التفاتِها إلى الأشياء، وتلتفتُ إلى الأشياء أكثرَ مِن التفاتها إلى الأفكار، وتلتفت إلى الأفكار غيرِ المتعلِّقَةِ بالغيب[2] أكثرَ مِنَ التفاتها إلى الأفكار المتعلِّقَة بالغيب، وعلى التحديد بالإله، الذي صار وجودُهُ مَحَلًّا لمزيد من الشكوكِ المتنوعة كمًّا وكيفًا، أو بالأحرى الاهتمامُ بوجودِه لا عينُ وجودِهِ.

ومن أَجْلِ خدمةِ هذا الهدف بدأ مفكرون متعدِّدُو المشارب والتخصصات إثارة القضية في صورٍ تتراوح بين البساطة الساذَجَة والتنظير المركَّب، ولعل من أبرز هؤلاء وِلْيَمْ جِيمْسْ[3] وتشَارْلِزْ سَانْدَرْسْ بيرْسْ[4] وجُونْ دِيوِي[5] وغيرُهم؛ فظهرت في العالم

---

(١) لا سيما الأوربي والأمريكي، بل الألماني والبريطاني والأمريكي على الأخص.

(٢) المقصود بالغيب هو ما يُطلق عليه: «الميتافيزيقا» والأول أدق.

(٣) هو «William James» عاش من ١٨٤٢ إلى ١٩١٠، فيلسوف أمريكي درَّس علم التشريح والفلسفة وعلم النفس في جامعة هارفرد.

(٤) هو «Charles Sanders Peirce» عاش من ١٨٣٩ إلى ١٩١٤، فيلسوف أمريكي وعالم أرض وعالم رياضيات ومنطقي.

(٥) هو «John Dewey» عاش من ١٨٥٩ إلى ١٩٥٢، فيلسوف أمريكي وعالم نفس وعالم تربية، درَّس في جامعة شيكاغو.

CamScanner

فكرةُ المذهبِ النَّفْعِيِّ الفلسفيِّ «Pragmatism» الذي سَرَى في جسد المجتمع وأخذ في الهيمنةِ بالتدريج على التفكير الجَمْعي له، حتى صار في قوة دِينٍ[1] مُعْلَن لدولة خرجَتْ من الحرب العالمية الثانية[2] هي أقوى دولِ العالَم؛ وذلك لأسباب كثيرة سياسية وعسكرية، وهي الولايات المتحدة الأمريكية.

في المدى الذي شغلته النفعية الفلسفية طَفَتْ منظومةٌ فكريةٌ مُرَتَّبَةٌ منطقيًا، وهي اتخاذُ الإنسانِ ـ بوصفه إنسانًا ماديًّا ومعنويًّا لا روحيًّا ـ مِحورًا للحضارة التي ينبغي على الأمم أن تبنيَها في العالَم المعاصر، وهذا يعني أن يكونَ منه الْمُنْطَلَقُ، وإليه الْمَرَدُّ، وهو الغايةُ، ومنه التقويم[3]، وهذا الاتخاذ استلزم رفع قيمة الموجود في الأعيان على الموجود في الأذهان، بحيثُ تصيرُ القيمةُ الفلسفيةُ للموجودِ في الأذهان مرهونةً بتَمَثُّلِه في الأعيان كَمًّا وكيفًا، وهذا التمَثُّل للفكرة هو أثر الفكرة، ويمكن أن نعبر عنه أحيانًا بالتجلِّي الواقعيِّ لها.

ومن هنا يمكن فَهمُ أنَّ النفعيةَ الفلسفيةَ ـ على مستوى الممارسة العِلْمية ـ انطلقَتْ مِن الواقع دَرْسًا وتحليلًا، مستهدفةً الواقعَ إفادةً ونفعًا، وبواسطة نظريتِها المعرفيةِ الواسعةِ طَالَتْ كُلَّ رجًا من فروع المعرفةِ ساعيةً لتغيير جهة النظر إلى موضوعَاتِ العلوم، مما يؤدي ـ قطعًا ـ إلى تغييرٍ في محمولاتها.

وعلى ذلك صارتْ مشروعيةُ الاهتمامِ بالأفكار ـ بلْ عَدُّها أفكارًا ـ موقوفةً على

---

(١) المقصود هنا دين بالمفهوم العربي له أي: طريق في النظر والاستدلال والبحث والتفكير، لا بالمعنى الإنجليزي: «Religion» انظر في ذلك ما كتبه محمود محمد شاكر في:

ـ المتنبي، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، دار المدني، جدة ١٩٨٧-١٤٠٧، ص٧٣، الهامش١.

ـ أباطيل وأسمار، الخانجي، القاهرة ١٣٨٥، ص٥١٣-٥٥٢.

(٢) من المعلوم من التاريخ المعاصر بالضرورة أن الحرب العالمية الثانية انتهت عام ١٩٤٥.

(٣) فَادَتْ هذه العناصر الأربعة للباحث في فلسفة تمحور الحضارات من حديث خاص مع مفتي الديار المصرية الأسبق أ.د/ علي جمعة محمد بوصفه مفكرا لا محض فقيه.

CamScanner

آثار هذه الأفكارِ أو تجلِّيَاتِها الواقعيةِ «فإذا كان لفكرتين اثنتين الآثارُ نفسُها أو إذا ترتَّبَ عنهما الحدثُ نفسُه، أو النتائجُ نفسُها؛ فإنهما لا يكونان في حقيقة الأمر سِوَى فكرةٍ واحدةٍ، وإذا كان للفكرة نفسِها آثارٌ أو نتائجُ مختلفةٌ؛ فإنها تشكِّلُ في الواقع فكرتَيْنِ أو أكثرَ تَبعًا للحالة»[1] وإذا لم يكن لها تجلِّيَات فَلَيْسَت شَيْئًا!

التَّدَاوُلِيَّةُ وَالْخُرُوجُ عَلَى الْمَنْطِقِ:

كان المنطق المدرسي في مطلع القرن العشرين يواجه عددًا من الخارجين عليه، ومنهم من كان يريد العودة من الممارسة التجريدِيةِ إلى الممارسة التجريبيةِ شيئًا فشيئًا، ومنهم من كان يريد ذلك عَنوةً واعتسافًا، بوصفِ ذلك ردَّ فِعْلٍ مُعَاكِسًا لغُلَوَاءِ التجريدِ، التي جَرَّتْ إلى إطباقِ ثنائيةِ الصِّدْقِ والكَذِبِ على عَقْلِ المنطقيِّ في معالجة كلِّ قضايا العالَم؛ فزادَتْ مشروعيةُ أن يُعِيدَ المفكرونَ النظرَ في مَدى صلَاحية القضايا لوصف وقائعِ العالَم، وقد أنتجَ ذلكَ حركةً ما أُطلِقَ عليها فيما بعد «الْمُنْعَطَفُ اللغويُّ»[2].

ويُعرف هذا «المنعطفُ اللغويُّ» بأنه «حركةٌ فلسفيةٌ سيطرت على الفِكْرِ الأنجلو أمريكي في القرن العشرين، وما يميز هذه الحركة هو نظريتها في أن كل القضايا تعالَج من خلال اللغة...»[3] وكان لُودْفِيغْ فِتْغِنِشْتَاينْ[4] وجُونْ لَانْجْشُو أُوسْتِنْ[5] من أَحْفَزِ حواثِّها.

---

(١) جِيرَارْ دُولُودَالْ وجُووِيلْ رِيطُورِي: السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار، اللاذقية بسورية ٢٠٠٤، ط١، ص ٤٦، مع تعديل ما في النص الأصلي من أخطاء طباعية تُفسد المعنى. علمًا بأنه قد صدر قبل هذه الطبعة عن مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ٢٠٠٠.

(٢) استعير الانعطاف هنا من معنى الدوران من طريق إلى آخر، ويظهر ذلك في العبارة الإنجليزية: «Turn».

(٣) وهذا الوصف ـ على ما فيه ـ منقولٌ من: جمال حمود: فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر العاصمة، بلا تاريخ، ط١، ص١١، هامش٣.

(٤) هو «Ludwid Wittgenstein» عاش من ١٨٨٩ إلى ١٩٥١، فيلسوف ولد في فيينا من أصل يهودي، درّس هندسة الطيران وفلسفة الرياضيات، استقر في بريطانيا حيث درَس ودرَّس في جامعة كمبردج.

(٥) هو «John Langshaw Austin» عاش من ١٩١١ إلى ١٩٦٠، فيلسوف بريطاني، درّس في أكسفورد وهارفرد.

ولا شك أن هؤلاء المفكرين احتاجُوا لكي يَخْرُجُوا من بِنْيَةِ المنطقِ المدرسي إلى صَدْعٍ يَكْسِب لذلك المنعطفِ اللغويِّ مشروعيته؛ فكان من بدايات هذا الصَّدْع ما قدَّمه فتغنشتاين حين رأى أن قضايا المنطق لا تخبرُ بشيء عن الواقع، ولا تمثل أية حالة ممكنة من حالات الواقع، ومن ثَم فهي تحصيل حاصل[1].

هذا من جهة، ومن أخرى فإن المعنى ـ عنده ـ[2] محايدٌ تمامَ المحايدةِ عن ثُنائيةِ الصدق والكذب، فلا يُوصفُ بأحدهما؛ لأن القضيةَ تُفيد ما تُفيدُه ـ الذي هو معناها ـ بقطع النظر عن كونها صادقة أو كاذبة[3].

أما أوستن فقد فَضَّل أن يبدأ بأمثلة من اللغة العادية ـ بوصفها أقصى درجات الواقعية اللغوية في العالَم لا المنطق ـ لِيَغْمِزَ المنطق، ويُعَيِّره بِعَجْزِه عن تحليل هذه الأمثلة وَفقًا لبرنامجه القائمِ على الصدق والكذب[4]، وحاولَ بعد ذلك أن يقدِّم بنفسه برنامجًا موازيًا للبرنامج المنطقيِّ يكون قادرًا على استيعابِ ما عجَز عنه المنطقُ وتحليله[5]؛

---

(١) راجع ما استدل به على ذلك في: جمال حمود: فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين، ص٦٦-٧٦.

(٢) يرجِّح الباحث أن المقصود بالمعنى هنا هو ما يسميه المناطقة «النسبة الحُكْمِية» لا «التصديق».

(٣) جمال حمود: فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين، ص٢٩٩، وعبارة المؤلف: «فالقضية تمثل ما تمثله [أي يحصل معناها] باستقلال عن كونها صادقة أو كاذبة» والمعقوفات له هو.

(٤) وقد أدّى ذلك ببراعة مَسْرَحِيَّة في المحاضرة الأولى كلِّها في: أوستن: نظرية أفعال الكلام العامة ـ كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قينيني، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ١٩٩١، ص١٣-٢١، عِلْمًا بأن المترجم هو الذي تبَرَّع بعنونة المحاضرات من عند نفسه، ولم يشر إلى ذلك، كأنها معنونة في الأصل الإنجليزي! وستكون الإحالات بعد ذلك على الأصل الإنجليزي ما لم تلزم مناقشة الترجمة العربية، أما اسم الكتاب فقد اختاره جامع المحاضرات وناشرها بعد وفاة المؤلف بعامين، وهو أَرْمِسُونْ «J. O. Urmson» وهذا الاسم تسويقي أكثر منه علمي أكاديمي، وهو معبر عن محتوى المحاضرات، انظر:

J. L. Austen (1962) How to do things with words, Oxford University Press, P:1-11.

(٥) ويرى الباحث أنه لم يكن سديدًا هذه المرة، انظر المحاضرة الثامنة في الكتاب:

J. L. Austen (1962) How to do things with words, p:94-107.

CamScanner

فجاء بثنائية أخرى، هي النجاح والفشل.

وباتفاقٍ أو بغير اتفاقٍ تواطأ المتعاصرانِ فتغنشتاين وأوستن على مخرجٍ واحد من المنطق الأرسطي، عَبَّر عنه فتغنشتاين بقوله: الرَّسْمُ وَاقِعَةٌ[(١)]، وعَبَّر عنه أوستن بقوله: التكلُّم حَدَثٌ[(٢)]، وهما بَعْدَ ذلك مختلفَانِ كلَّ الاختلاف؛ إذْ يَرى فتغنشتاين أننا بصَدَدِ ألعابٍ لغويةٍ لا أفعالٍ كلامية[(٣)].

وسواء أَقَـرَّ أوستن أوْ لَا باطلاعه على أعمال فتجنشتاين؛ فإن لِيفِينْسُونْ[(٤)] رآه مستفيدًا منه[(٥)]، ونقل عنه ذلك العربُ - على عادتهم في التَّرْدِيدِ بلا تَبَيُّنٍ - كأنه حقيقةٌ مُسَلَّمَة لا تحتاج إلى أدنى مراجعة[(٦)]، مع ما بين طَرِيقَيْهِمَا من بَوْنٍ شاسع، كأنهما لا

---

(١) يرى فتغنشتاين أن القضية المنطقية كالرَّسْم، رَسْمِ صورةٍ مثلاً أو رَسْمٍ بيانيٍّ أو غيرِ ذلك؛ ولذلك سماها الرسمَ المنطقيَّ - وهي نظريةٌ عنده - ويرى أن الدراسة التي ينبغي أن تكون لهذه القضية المنطقية هي: توضيحُ طبيعتِها، أيْ: ماهيتِها، وأنْ نَعرِفَ طبيعةَ القضيةِ معناه أنْ نكونَ على عِلْم بالوظيفة التي تُؤدِّيها هذه القضية في اللغة، انظر شرح ذلك بتفصيل مُفهم بإيجاز في:
جمال حمود: فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين، ص١٧٣، ١٨٨.

(٢) J. L. Austen (1962) How to do things with words, p:7.

(٣) شُرِحَ هذا الفرق واستُدِلَّ عليه بوضوحٍ يُوجب مراجعتَه بتأمل في:
- زِيبِيله كِرِيمَرْ: اللغة والفعل الكلامي والاتصال - مواقف خاصة بالنظرية اللغوية في القرن العشرين، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ٢٠١١، ط١، ص١٤٨، وما بعدها.

(٤) هو «Stephen C. Levinson» عالم بريطاني ولد في ١٩٤٧، وهو متخصص في علم النفس المعرفي، وعلم اللغة النفسي، ويدرِّسه في معهد مَاكْسْ بلَانْكْ ببرلين.

(٥) انظر:
Stephen C. Levinson (1983) Pragmatics, Cambridge University Press, P:227.
ولا ننسى أن ليفنسون بريطاني استقر في برلين، وأن فتغنشتاين ناطق بالألمانية استقر في بريطانيا، لكن كتب ليفنسون هذا الكتاب تحديدًا حين كان يعمل في قسم علم اللغة في بريطانيا، كما هو موضح في سيرته العلمية على موقع معهد ماكس بلانك: www.mpi.nl الذي يعمل فيه.

(٦) انظر:
- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية =

يشتركان إلا في رغبة الخروج من قَفَصِ المنطق المدرسي شديدِ الْمَتَانة، ويَظَلُّ مَزْعَمُ أنَّ أحدَهما أخذ من الآخر مَزْعَمًا يحتاج إلى تحقيقٍ، ليس هذا مقامَه.

= ٢٠٠٢، ص٤٢، وقد نقل عن نحلة ذلك جمعٌ غفير يَعِزُّ على الحصر.

ـ معاذ بن سليمان الدخيل: منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية العربية مقاربة تداولية، نادي القصيم الأدبي، دار محمد علي للنشر، دار التنوير، بيروت والقاهرة ٢٠١٤، ط١، ص٦٣.

الْفَصْلُ الثَّانِي

تَعْرِيفُ التَّدَاوُلِيَّةِ

يَضِحُ مما مَرَّ أن المضمارَ الواسعَ الحائطَ حركةَ الدراساتِ التداوليةِ ـ وإن شئتَ قُلْتَ: الوادي السائلَ بأمواجِ الدراساتِ التداوليةِ[1] ـ هو البحثُ في أثَرِ الأفكار في الواقع؛ فكلُّ دراسةٍ استهدفَتْ قياسَ هذا الأثَرِ أو رَصْدَه فهي دراسة تداولية، ومن هنا يكون تعريفُ التداوليةِ: الْعِلْمَ الذي يَبْحَثُ في الْأَثَرِ الْوَاقِعِيِّ لِلْفِكْرَةِ الْعَقْلِيَّةِ.

وهذا التعريف يحتاج إلى الوقوف عند بعض ما وَرَدَ فيه:

أولا: فيما يخص التركيب الوصفي: «الأثر الواقعي» فإن الأثر مجاله هو الواقع،

---

(١) يحلو لبعض الباحثين أن يسميها التداوليات، ويصفها بأنها أشتات متفرقة نشأت بلا جامع واحد، ثم جُمِعَتْ تَعَسُّفًا، كأنها سَلَّةُ مهملات تضم من الدراسات ما لم يجد له مكانًا في التصنيف الأكاديمي للدراسات اللغوية عند دي سوسير، ومن هذه التداوليات المتفرقة عندهم التداولية الاجتماعية والتداولية اللغوية والتداولية التطبيقية، وهذا الفهم يدل على أحد أمرين أو كليهما: الأول: أجنبية هؤلاء الباحثين عن النصوص المؤسِّسَة للدَّرْس التداولي. والثاني: أن هؤلاء الباحثين يَجْمَعُون فَيُوعُون كحُطَّابِ الليلِ، بلا تمحيص للمادة المجموعة، ولا بحث عن الأصول والجوامع الكلية في التَّحَمُّل قبل التَّعَقُّل في الأداء، ربما بسبب الضعف في مَلَكَةِ التجريد المنطقي، أو لرغبة بعضهم في تنزيهِ التداولية عن الأُسُس الفكرية للنفعية بغرض حيازةِ لَقَب «موضوعية» لها بخلاف التحيز الفكري. انظر في ذلك:

ـ محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص١٥.

ـ أرمينيكو: المقاربة التداولية، ص٥ المترجم سيعد علوش، وص٩٣ المؤلفة.

CamScanner

فالنَّسَبُ هنا لِمُلابَسَة الظرفية، والواقع كل ما ليس في ذهن المتكلم، والأدق: كل ما ليس في ذهن محدِثِ الأثر، سواء كان الحدث هو التَّكَلُّمُ أَوْ لَا كالإشارة أو العَزْف؛ فَيَضُمُّ الواقعُ إذن: ما في ذهن المتلقي ونفسِه، وما في العالَم الخارجي، ويُحْتَرَزُ بوصف الأثر بالواقعيِّ عمَّا تُحدثه الفكرة مِن أَثَرٍ في غيرِها من الأفكار في ذِهن محدِثِ الأثر.

وفيما يخص التركيب الوصفي: «الفكرة العقلية» فهو للاحتراز عن التعبير المجازي بالفكرة عن تجلِّيَاتها الواقعيةِ المتشخِّصة؛ إذن هو قَيْدٌ لدفع الإيهام، وإلا فلا فكرةَ إلا عقلية.

ثانيا: الفكرة العقلية تشتمل على الجانب المعنوي الموجود في ذهن المتكلم ونفسه، وإن شئتَ الدقة: في ذهن محدِث الأثر الواقعي ونفسِه، بحيث تشمل نيةَ المتكلِّم وقُدرتَه اللغويةَ على انتقاء الكلام وصَوْغِه، وقدرتَه الاجتماعيةَ والنفسيةَ على فَهْم الأَوْعِيَةِ المعنويةِ للتخاطُبِ وتحليلِه والتفاعلِ معه، وغيرِ ذلك من المعارف والمهارات لديه مما يمكن استثماره في كُلِّ ثِنْيٍ مِنْ أَثْنَاء عملية التخاطب.

مُنَاقَشَةٌ لِلتَّعْرِيفَاتِ الْمُقَدَّمَةِ لِلتَّدَاوُلِيَّةِ:

وقد تعدَّدَ ما قدمه الباحثون تعريفًا للتداولية، وحاول بعضُهم أنْ يُعَلِّلَ هذا التعدُّد. ولا يَصْلُحُ أكثرُها حَدًّا ولا رَسْمًا، وتظهر وظيفة التعريف من تعريفه، وهو: ما يستلزم تصوُّرُه تصوُّرَ المعرَّف وامتيازه عن كل ما عداه، كما عند المناطقة[1]، أو يكونُ تعريفُ التعريفِ: لفظٌ مركَّبٌ يَمِيزُ الماهيةَ عن أغيارها، سواءٌ كان بالذاتيات أو العَرَضيات أو

(١) انظر: نجم الدين أبو الحسن علي بن عمر القزويني الكاتبي: الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية، ضمن ثمانية من شروحها وحواشيها، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٠٥، ط١، ج١، ص٣٣٤، وسيشار إلى هذا المجموع بعد ذلك بشروح الشمسية.

ولتدقيق العبارة ـ إن شئتَ ـ راجع الرسالة الشمسية بتحقيق: مهدي فضل الله، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء ١٩٩٨، ط١، ص٢١٠.

بالمركَّبِ منهما، كما عند الأصوليين،(١) وقد سبَّبَ انعدامَ صلاحيةِ ما قدمه الباحثون من تعريفات أحدُ أمْرَيْنِ أو هُـمَا معًا:

١ـ عدم توفُّر الواضعين على معرفةٍ كافيةٍ بباب التَّصَوُّراتِ في علم المنطق، وهو الباب المسؤول عن صناعة هذه الْمَلَكَة العلمية؛ فجاء ما قدموه منخرمًا بعديد من العُيوب التي نصَّ عليها المناطقة من قرون طويلة.

٢ـ انبهام التداولية؛ لكثرة ما كُتب عنها بلا استيثاق ولا تمحيص؛ مما جعل التفرقةَ لا تَلُوح على السَّطْح للوَهْلَةِ الأولى بين ماهيتها وما وُصِفَتْ بها من أوصاف عَرَضِيَّة أو أوصاف ليسَتْ لها لكنها أوصافٌ لِلَوَازِمِها؛ لذا لم تُؤَدِّ هذه التعريفات وظيفتَها المنطقية التداولية بنجاح.

وفيما يلي إلقاءُ ضوءٍ على بعض ما قدمه الباحثون تعريفًا لها، وبيان بعض مشكلاته:

١ـ التداولية: العلمُ بأصولٍ يُعرَفُ بها سببُ كَوْنِ وَضْعٍ مُعَيَّنٍ لجُمَلٍ شاذًا أو غيرَ مُسْتَعْمَل(٢).

---

(١) انظر في ذلك كلا من:

ـ ابن النجار: شرح الكوكب المنير، ج١، ص٧٥.

ـ شمس الدين محمد بن أحمد الْمَحَلِّيُّ: شرح جمع الجوامع للتاج السبكي بحاشية البَنَّاني، دار الفكر، القاهرة، بلا تاريخ نشر، ج١، ص١٣٣.

ـ سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني: حاشية على شرح العضد لمختصر ابن الحاجب المسمى مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، ومعه حاشية السيد الشريف الجرجاني، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٧٣، ج١، ص٦٨.

(٢) أورده ليفنسون بلا نسبة لقائلٍ بِعَيْنِه، وناقشه، وَرَدَّهُ؛ لِعَدَمِ الجَمْعِ، في:

Stephen C. Levinson (1983) Pragmatics, P:6-7.

=

ومنطوقه بالإنجليزية:

وهذا غير جامع، إذ تَصْدُق التداولية على ما هو أوسعُ من ذلك، كدراستها لجمل مستعملة في ضوء كونها محقِّقَةً مرادَ المتكلمِ أو مُخْفِقَةً في ذلك.

٢ـ التداولية: دراسة اللغة من حيث وظيفتُها[1].

= «Pragmatics is the study of those principles that will account for why a certain set of sentences are anomalous, or not possible utterances».

وترجمه محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص١١، بقوله: «التداولية هي دراسة الأسس التي نستطيع بها أن نعرف لم تكون مجموعة من الجمل شاذة تداوليًا أو تُعَدُّ في الكلام المحال». وقد أضاف بهذه الترجمة عيبًا جديدًا من عند نفسه، وهو الدَّوْر؛ إذ التعريف للتداولية؛ فكيف يكون فَهْمُ التعريف متوقفًا على فَهْم المعرَّف؟! وهذا حينما استخدم كلمة «تداوليًا» في التعريف بخلاف الأصل الإنجليزي.

فضلا عن مخالفته سَنَن تعريفات العلوم في العربية التي تَسْتَعمِل كلمة «أصول» للدلالة على مرادهم بـ«principles» هنا، وهو شائع جدًا، أما كلمة «utterances» وإن دَلَّتْ بالوضع على معنى ملفوظات، لكن تدل باستعمالها هنا على معنى «مستعملاتٍ منطوقٍ بها» وَفقًا للعادة الجارية لُغويًّا بين المتخاطِبِينَ العُقَلاء؛ وعليه فترجمتها بـ«الكلام المحال» ليست بعيدة، لكن ترجمتها بعبارة «غيرِ مستعمل» أو «مُهْمَلٍ» أدقُّ، ومن المعلوم أن الوَضْع سابق على الاستعمال، وهو هكذا في التعريف الإنجليزي.

وقد نقله بحاله عن محمود نحلة قومٌ، بدون مراجعة الأصل؛ يَدُلُّ على ذلك أن ليفنسون ضَرَبَ سبعة أمثلة نَقَلَ منهم محمود نحلة ثلاثةً تناقلهم العرب من خلاله، ومن الناقلين:

ـ علي محمود حِجِّي الصَّرَّاف: في البراجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي، مكتبة الآداب، القاهرة ١٤٣١-٢٠١٠، ط١، ص٣. وسنشير إلى هذا الكتاب بعد ذلك اختصارا باسم: في البراجماتية.

(١) أورده ليفنسون، ص٧، غير منسوب كذلك، ومنطوقه:

«Pragmatics is the study of language from a functional perspective»

كما ظل يستعرض التعريفات المقدمة للتداولية وينقدها، والفائدة الأهم ـ في رأي الباحث ـ من عمل ليفنسون هذا أنه قدم استعراضًا يوضح ميادين التفكير التداولي بما يقيم في النفس معنًى إجماليًّا عامًّا للتداولية على مدار ٣٠ صفحة تقريبًا، قامت هذه الصفحات مقامَ التعريفِ المختصِر في ألفاظه الجامعِ المانعِ المنتَظَرِ، وخير منه ـ عند الباحث ـ قراءة كتاب أوستن مرتين أو ثلاثة، انظر:

Stephen C. Levinson (1983) Pragmatics, P:5-35.

وتقديم التداولية بوصفها دراسةً لغويةً له عَيْبَانِ:

العيبُ الأولُ: النفي القاطع لتداوليةِ أيِّ دراسةٍ غيرِ لغوية، كدراسة أثرٍ لمسرحٍ صامتٍ أو لمقطوعةٍ موسيقيةٍ أو منحوتٍ أو رسمةٍ فنيةٍ في المتلقين، بلِ القطعُ أنَّ الدراسةَ التداوليةَ أوسعُ من الدراسة اللغوية.

والعيب الآخر: أنه جَعْلٌ لِلُّغَةِ مادةً للدراسة التداولية، أيْ: موضوعًا لها تبحث فيه عن محمولاته من جهة بحثٍ معينة، وهذه اللغة هنا هي الكلام اللغوي نفسُه لا إحداثُه، بمعنى أن موضوعَها هو الكلامُ نفسُه من حيثيةٍ معينة، كما أن الكلامَ نفسَه هو موضوعُ عددٍ من العلوم مع اختلاف الحيثية، من هذه العلوم المعجمُ والأصواتُ والصَّرفُ والنحو والبلاغة، وهذا خَلْطٌ بين متباينَيْنِ:

الأول: الكلام نفسه، أي: المتكلَّم به، والآخر: إحداث الكلام، أي: إيقاعه وإيجاده والتلفُّظ به؛ ليكونَ حاصلًا موجودًا وجودًا خارجيًّا لا ذهنيًّا فقط، ولك أن تُسَمِّيَه - وفقا لاصطلاح علماء الكلام المسلمين - جَعْلَ الكلامِ النفسيِّ كلامًا لفظيًّا.

وموضوع الدراسات اللغوية هو الأول، ومحمولاتها تتعددُ بتعدُّدِ حيثيات البحث في كل علم، وموضوع الدراسة التداولية هو الثاني من حيث أَثَرُهُ الواقعيُّ.

وإنما يكون تقاطعُ[1] الدراسة التداولية مع الدراسة اللغوية عارضًا لاختلاف الموضوعين واختلاف جهة النظر، واختلاف الغاية التي هي الثمرة المقصودة، ومحل هذا التقاطع العارض في استعمال التداولية لأدواتٍ لغويةٍ - معجميةٍ وأصواتيةٍ ونحويةٍ وصرفيةٍ وبلاغيةٍ - لرصد مدى مطابقةِ الغرضِ التَّخاطُبي المتحققِ من حَدَثِ التكلُّمِ لمقصدية المتكلِّم من خلال درجةِ مراعاةِ مقتضى الحال.

---

(١) التقاطع هنا بمعنى التقاطع الهندسي لشكلين هندسيَّيْنِ، أي: المشترك بين ما بينهما العموم والخصوص الوجهي، أي: بمعنى التقاءٍ وتَشابُكٍ لا بمعنى مخاصَمَةٍ وتنافُرٍ.

CamScanner

كما أن الدراسة التداولية تتقاطع مع علم النفس - لا سيما المعرفي - وعلم الاجتماع وعلم السياسة وعلم التربية وغير ذلك من العلوم التي تُقَدِّم برامجَ تحليلٍ جزئية لبعض جوانب الحَدَث الكلامي.

وبهذا التوضيح تنخرم كل التعريفات المقدمة للتداولية بوصفها دراسةً لغويةً أو دراسةً لسانيةً، ومن ذلك ما قدمه بعض الباحثين للتداولية من تعريفات من نَحْوِ:

٣ـ التداولية: دراسة اللغة في الاستعمال أو التواصل(١).

٤ـ التداولية: دراسة للغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية، في نفس الوقت(٢).

٥ـ التداولية: هي الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل(٣).

٦ـ التداولية: هي الدراسة التي تعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية والحدثية والبشرية(٤).

---

(١) وقد رجَّحَهُ محمود نحلة وتابعه فيه علي الصراف، انظر:

ـ محمود نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص١٤.

ـ علي الصراف: في البراجماتية، ص٥.

(٢) والصواب لغةً: في الوقت نفسه، لأن الوقت لا نفس له، ولكن نقلتُه كما ورد عن (ف.جاك F.Jacques) في:

ـ فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية ١٩٩٧، ط١، ص١٩.

(٣) ويظهر في ذلك إهمال السَّك والتوخّي والدقة بالكلّ والكلية، مع نثر الكلمات بلا ضابط بشكل لا يشي بأنك تقرأ تعريفًا بل كأنه شرح أو كلام مرسل، ونسب إلى (ل.سفز L.Sfez) في:

ـ فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص١٩.

(٤) وهو تعريف يفتقر صاحبه لأدنى مهارات التجريد المنطقي، منقول عن (الموسوعة الكونية) في:

ـ فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص١٨.

CS CamScanner

٧ـ التداولية: تمثل دراسة تهتم باللغة في الخطاب، وتنظر في الوسميات الخاصة به، قصد تأكيد طابعه التخاطبي[١].

٨ ـ التداولية: العلم الذي يُعنى بدراسة استعمال اللغة وفَهْمِها[٢].

٩ـ التداولية: دراسة الاتصال اللغوي في السياق[٣].

١٠ـ التداولية: علم الاستعمال اللغوي[٤].

وجليٌّ أن هذا التعريف لا يقدِّم جهةً في البحث؛ فإنه ـ وإن حدد موضوع العلم ـ فقد سَكَتَ عن الأهم، وهو جهة البحث فيه؛ فالبحث في اللغة من حيث استعمالُها غيرُ البحث في الاستعمال اللغوي نفسه من حيث كفاءَتُه مثلا.

١١ـ التداولية: دراسة استعمال اللغة[٥].

---

(١) فعلى هذا تكون التداولية تمثل دراسة وليس دراسة؛ فإن ممثل الشيء ليس هو، وغايتها تأكيد الطابع التخاطبي فقط! وأصَرَّ فيليب بلانشيه أن يصفه بأنه تعريف مرتين، ونسبه إلى (أ.م.ديلر A.M.Diller ومعه ف.ريكاناتي F.Récanati) في:

ـ فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص١٨-١٩.

(٢) عَرَّفَ به محمد محمد يونس علمَ التخاطب الذي هو المقابل العربي عنده لِكَلِمَة «Pragmatics» انظر:

ـ محمد محمد يونس علي: علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الإسلامي، بيروت ٢٠٠٦، ط١ باللغة العربية، ص٢٧. وقد طبع قبل ذلك باللغة الإنجليزية في ٢٠٠٠ في كِيرْزُونْ بِرِسْ، بعنوان:

Medieval Islamic Pragmatics, Mohammad M.Younes Ali, Curzon Press – Routledg.

(٣) رجح ذلك عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ٢٠٠٤، ط١، ص٢٢. وقال في هامشه برقم (٤٧) ص٥٧٤-٥٧٥، إن ليفنسون يتفق معه فيما ذهب إليه من تعريف.

(٤) ورجحه مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٥، ط١، ص١٧.

(٥) جاء في القاموس الموسوعي للتداولية: «تُعَرَّف التداولية بأنها دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة =

والقول بأن التداولية هي دراسة جانب الاستعمال المقابل لجانب الوضع في اللغة ليس سديدًا، ولتوضيح هذا الأمر لا بد من التحقُّق من علاقة التداولية بتصوُّرات متعدِّدَة استقبلها بها المترجمون العرب، خاصةً من أَلِفَ منهم تقديم قراءات تأصيلية لكل ما يَفِد من العالم الغربي[1].

التصوُّر الأول أن التداولية جزءٌ من ثنائية علم الوضع وعلم الاستعمال[2]، وليست كذلك؛ لأنها ثنائية لا تشمل الحمل، والتداولية فيها دراسة للحَمْل، بل من موضوعها الحمل، وبدونه وما ينبني عليه تُعْرِضُ التداولية عن دراسة المادة.

فإن قيل الاستعمال يشمله، قلنا هذه ترجمة لنظرية أجنبية يجب فيها التزام المصطلحات العربية على بابها، ولا يتوسع إلا فيما لا مقابل له عندنا[3]، واستعمال كلمة

= النظام اللساني الذي تعنى به تحديدًا اللسانيات» انظر:

ـ جاك موشلر وآن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف: عز الدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس ٢٠١٠، ط١، ص٢١، وهذا الاقتباس من ترجمة شكري المبخوت تحديدًا.

(١) أي مذهب: «هذه بضاعتنا ردت إلينا» في كل شيء، بمعنى جَعْلِ كلِّ منتجٍ حضاريٍّ أجنبيٍّ له أصولٌ عربية أو إسلامية عريقةٌ قبل أن تكتشفه أي أُمَّةٍ أخرى، ويسمى أحيانًا هذا بالقراءة الأرشيفية.

(٢) يُفهم هذا من كلام مسعود صحراوي عن «دراسة استعمال اللغة عوضًا عن دراسة اللغة» عند ذكر بعض أبرز الأنشطة التداولية، جاعلًا التداولية مقابِلًا للبنيوية، والظاهر أن مسعودًا قرأ أوستن في ترجمة فَرَنسية، ولم يقرأ الأصل الإنجليزي، والنصوص المؤسَّسة تحتاج إلى فرطِ عناية في استيعابها بلغتها الأصلية،، راجع:

ـ مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص٢٨، ٢٩، ص١٦٦ الهامش ٢.

فضلا عن أنه دل على جهله حين وصف البريطانية وِلْسُنْ التي لم تكن رجلا البتة بأنها رجل، وهذا يوضح قدر الاستهانة الذي يتعامل به مع النظرية وواضعيها، وهي من واضعيها، انظر: ص٣٦.

(٣) ومن عدم مراعاة هذه الضوابط ما اضطر إليه مترجم كتاب أوستن حينما ترجم «ritual act» إلى «طَقْوسِيَّة» وهي ترجمة حرفية، ومقابلها في اللغة العربية «دلالة اللفظ بالعرف الخاص» وهو =

CamScanner

«الاستعمال» ينفي «الحمل» وفاقًا للقاعدة: «الاستعمالُ من صِفَةِ المتكلم، والْحَمْل من صفة السامع، والوَضْع قبلهما»[1] فالثلاثة متغايرون؛ فهي إذن ثلاثيةٌ لا ثنائية، ثم إنها لا تقبل الاختصار؛ مراعاةً لحيثية التقسيم، وقد يطلقُ المناطقةُ أصلَ التقسيم أو أساسَه.

وليس صائبًا كذلك عَدُّ التداولية ـ ولو في صورة أفعال الكلام ـ إحالةً على تقسيم دلالة اللفظ عند المناطقة ـ لا سيما العرب ـ وذلك كما في رأي عبد القادر قنيني مترجم كتاب أوستن، حيث رأى أنَّ كلامَ أوستن يقابِلُ التقسيمَ المنطقيَّ لدلالة اللفظ إما مطابَقةً وإما تضمُّنًا وإما التزامًا؛ حيث «يُرجع أفعال الكلام إلى ثلاثة أنواع: فعل الكلام، وقوة فعل الكلام، ولازم فعل الكلام»[2] والسبب في خطإِ هذا الربطِ عدمُ تحرير الاصطلاح أوَّلًا؛ فدلالة المطابقة عند المناطقة والبلاغيين دلالة اللفظ على تمام أفراده في الخارج، وما أسماه المترجم النوع الأول من أفعال الكلام، وهو «فعل الكلام» هو عند أوستن في

= تقسيم مشهور في الأدبيات العربية من تقسيم الدلالة إلى لغوية وشرعية وعرفية بالعرف العام أو العرف الخاص، وما ذكرناه هو ما ينبغي أن يترجم به كلام أوستن؛ لأنه مراده، تَفَهَمُه لو قرأتَ السياقَ والسباقَ الإنجليزيَّ كاملًا، راجع كلًّا من:

ـ أوستن: نظرية أفعال الكلام العامة ـ كيف ننجز الأشياء بالكلمات، ترجمة: عبد القادر قينيني، ص١٠٥.

- J. L. Austen (1962) How to do things with words, P:85

(١) راجع في ذلك تطبيقًا نافعًا في:

ـ علي جمعة محمد: المصطلح الأصولي ومشكلة المفاهيم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ١٩٩٦، ط١، ص٣٩.

ـ علي جمعة محمد: اللغة المقدسة وقدسية اللغة، مقالة بصحيفة الأهرام، نشـرت بتاريخ ١١/ ٩/ ٢٠٠٤، السنة ١٢٧، العدد ٤٣٠١٣، ويمكن مراجعتها من: http://www.ahram.org.eg/Archive/2004/9/11/Writ2.htm

(٢) أوستن: نظرية أفعال الكلام العامة، من كلام المترجم، ص٧.

على أن المترجم سَيِّئُ القَالَةِ في علماء البلاغة؛ حيث قرر في الصفحة نفسها كذبًا وادعاءً أنهم أهملوا دراسة باب الإنشاء، علمًا بأن التراث البلاغي طافح بدارسات الإنشاء طَفْحًا يتأبى على الحصر كَثْرَةً.

الأصل الإنجليزي حدوث التلفظ بالبنية اللغوية الصوتية المنطوقة، وليس هو ما تَدُلُّ عليه هذه البنية ولا هيئةَ قولها، لا بدلالة الوضع ولا بدلالة الاستعمال.

ويزعم الباحث أن هذا الخطأ في تلقي المفهوم ثم في ترجمته جرَّ وَبَالًا على معنى التداولية، وهو سبب في كثير من عدم التحديد للمصطلح العربي.

وأما دلالة التضمن عند المناطقة والبلاغيين فهي دلالة اللفظ على بعض الأفراد في الخارج، أما ما أسماه المترجم «قوة فعل الكلام» وينبغي أن يترجَم بعبارة «قوة التلفظ بالقول» فإنه مجموع دلالة البنية اللغوية وهيئة الأداء غير اللغوية المصاحِبَة لها في الموقف التخاطبي، ولا مقابلة بين المفهوم المنطقي والمفهوم التداولي.

وأما دلالة الالتزام عند المناطقة والبلاغيين فهي دلالة اللفظ على لازم المعنى الوضْعِي له، وما ترجمه المترجم بعبارة «لازم فعل الكلام» فهو الأثرُ الإنجازيُّ المتحقق في الخارج الناتجُ عن حَدَثِ النُّطق باللفظ.

فالثلاثيتان منفصلتان متباينتان، وإن بَدَا للوهلة الأولى تقابُلُهما، ومثل ذلك ما لو قيل إن ثلاثية أوستن تقابل ثلاثية (الإيجاب، والوجوب، والواجب) في لسان علماء أصول الفقه الإسلامي.

١٢ـ التداولية: العلم الذي يُعنى بدراسة المعنى في علاقاته بالمقامات التخاطبية[١].

وهذا من أقرب التعريفات للصحة، فكلمة المعنى في التعريف تحتمل وجهين، المعنى المقصود، وهو من المتكلم، والمعنى المفهوم، وهو من الحامل، وليس في التعريف تحيِيزٌ للتداولية في اللغة، كما يُلاحِظ هذا التعريف التغييرات التي تُحدِثُها مقامات التخاطب في المعنى، وتغييرات المعنى التي يُحدِثها في المخاطبِين ومقامات التخاطب.

(١) محمد محمد يونس علي: علم التخاطب الإسلامي، ص٢٧.

CamScanner

وهذا التعريف يلتفت إلى التجلي التطبيقي للتداولية أكثر مما يلتفتُ إلى الأصل الفلسفي للتداولية، خلافًا لما قدمه الباحث بقوله: التداولية هي العلم الذي يبحث في الأثر الواقعي للفكرة العقلية، وهما متكاملان، غير أن الباحث آثر ربط التداولية بأصلها الفلسفي؛ ليكون في ضمن التعريفِ إجابةٌ عن سؤال النشأة بالإضافة لإجابة عن سؤال الوظيفة، ومثل هذين ينبغي مراعاتهما في تعريفات الأفكار الجديدة الأجنبية في الدرس اللغوي والفلسفي العربي؛ لتلبية احتياجات الباحث المتعرِّض للمعرَّف لأول مرة المتسائلِ عنه.

وفيما يلي بعض التعريفات القريبة من التعريف السابق:

١٣ـ علم التخاطب: دراسة كيف يكون للمقولات معانٍ في المقامات التخاطبية[1].

والمترجِم لا يترجِم «Pragmatics» بالتداولية، بل بعلم التخاطب، وهذا يجعل في التعريف بحسَب هاتِه الترجمة خطأً يَعيبُ التعريف عيبًا قادحًا في وظيفته؛ لأن في أخذ المصدر الصناعي للتخاطب في تعْريف علم التخطاب دورًا ظاهرًا، والدور في التعريف يُفسِدُه؛ إذ تتوقف معرفة المعرِّف على المعرَّف فلا يفي بالْمَهمَّة التعريفية.

١٤ـ التداولية: دراسة المعنى في المواقف المختلفة[2].

على أن التعبير بالمقام أكثر دورانًا في العلوم العربية وأوفق اختيارًا من التعبير بالمواقف.

---

(١) هو ما يُعَرِّفُ به محمد محمد يونس علي في: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص١٣، ويحيل على جفري ليتش «Geoffrey Leech» في كتابه: مبادئ البراجماتية «Principles of Pragmatics» وهو أول ما بدأ به ليتش؛ حيث قال في الأصل الإنجليزي:

«Pragmatics can be usefully defind as the study of how utterances have meanings in situation».

(٢) علي عزت: الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، شركة أبو الهول، القاهرة ١٩٩٦، ط١، ص٤٧.

CamScanner

الْفَصْلُ الثَّالِثُ
التَّدَاوُلِيَّةُ الْعَامَّةُ وَالتَّدَاوُلِيَّةُ اللُّغَوِيَّةُ

من الضروري أيضًا التنبيه على أن مطلقَ التداوليةِ ليس التداوليةَ اللغوية، وأن الحرص على وضع تعريف لِمُطْلَق التداولية فيما مَرَّ ليس نَفْيًا لوجود فروعٍ تخرُج منها، وبعض هذه الفروع على سبيل المثال: التداولية اللغوية والتداولية الاجتماعية والتداولية الموسيقية وتداولية الفنون البصرية ... إلى آخر ذاك.

وليس بعيدًا ما ذهب إليه بعضُ الباحثين من عَـدِّ التـداولية العامة «Genral Pragmatics» مشتملة على تِلْكُمُ الفروع[1]، ويمكن التعبير عن ذلك بعبارة أكثر إحكامًا منطقيًّا، حين نَعُدُّ التداولية العامة مَقْسِمًا ـ أي: جنسًا كليًّا أعلى ـ وتلكم التداوليات أقسامًا له ـ أي: جزئيَّاتٍ إضافيةً أدنى ـ بحيثُ يكون الْمَقْسِمُ الجامعُ لتلكمُ الجزئياتِ هو ثمرةُ الدراسة، وهي قياسُ أثرِ الحدثِ في الواقع، وكذلك من الْمَقْسِمِ الجامع جهةُ النظر في موضوعِها، وهي كيفيةُ حصولِ هذا الأثر[2]، أي: قوَّةُ إحداث الحدث[3].

أما الاختلاف بين تلكمُ الجزئياتِ فيكون بالموضوع وَفقًا لطبيعته؛ فالموضوع في التداولية اللغوية حَدَثُ التكلُّم، والموضوع في التداولية الاجتماعية حدث الاجتماع

---

(١) تأمَّلْ تردُّدَ عبارة دومينيك مانغونو في لَمْح هذا المعنى في تعريف التداولية: «التداولية توصيفٌ كذلك لتصور لِلُّغَةِ وبشكل أعم للتبليغ/ الاتصال» انظر:

ـ دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص١٠١.

(٢) هذا من حيث المبدأ دونَ المطلبِ.

(٣) هذا من حيث المطلبُ دونَ الْمَبْدَإِ.

CamScanner

على الأعياد والمآتم والتظاهرات وغير ذلك، أي: الأحداث التي يظهر فيها السلوك الجمعي للمجتمع، والموضوع في تداولية الفنون البصرية هو حدوث رَسْمِ اللوحة أو العمل الفني، أي: عرضُه على الجمهور إن لم يكن الرسْمُ أمامَ الجمهور؛ إذ يحصل الاتصال ويقع الأثر في العَرْض لا محضِ الرسمِ الذي هو حصول الرسم من الراسم ولو منفردًا، والموضوع في التداولية الموسيقيةِ هو حَدَث العَزْف، أو بالأحرى: العزفُ حالَ تَهَيُّؤِ سامعٍ له؛ ليحصل الاتصال، وهكذا.

الْمَعْنَى التَّدَاوُلِيُّ وَالدِّرَاسَةُ التَّدَاوُلِيَّةُ:

بعد ما سبقَ ذكرُه لا بُدَّ من النَّصِّ على أن التداولية تُقَدِّمُ مستوًى من التحليل للخطاب، هذا المستوى جديد على الدرس اللغوي النظري المعهود، وهذا المستوى التحليلي للخطاب ليس كلَّ التداولية، فإنَّ هذا المستوى يمثل مجالًا للمعاني التداولية للخطاب لا الدراسة التداولية للخطاب.

وقيل في المعنى التداولي هذا أنه «قُدرة دالٍّ على إيصال شيء يختص بمستخدمي العلامات عند استعمال اللغة».[1] ولكي يكون هذا صحيحًا يُشترط أن يكونَ هذا الشيء ـ المذكورُ في الاقتباس ـ ليس ما يُسمِّيهِ البلاغيون العرب لازمَ فائدة الخبر، وبالتأكيد لن يكون هذا الشيءُ أيضًا ما يُسمِّيهِ البلاغيون العرب فائدةَ الخبر[2]، وفائدة الخبر هذه هي ما يسميه التداوليون المحتوى القَضَوِي[3]، ويسميه

---

(١) بِيتْ لُويسْ مُولَرْ: الفعل الكلامي معنًى للجملة ـ حول الصيغة الأساسية البراجماتية للغة الطبيعية، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ٢٠١٤، ط١، ص١١٦.

(٢) راجع: شرح السعد التفتازاني في: شروح التلخيص، ج١، ص٩٤-٩٦.

(٣) أي: المنسوب إلى القضية، أيْ: تصوُّر نسبة المحمول إلى لموضوع في الذهن، وإن شئتَ قلتَ: تصوُّر نسبة المسند إلى المسند إليه في الذهن، وإن شئتَ قلتَ: تصوُّر نسبةِ مُتعلِّقِ ما عنه الذِّكْرُ الْحُكْمِيُّ إلى مَا عَنْهُ الذِّكْرُ الْحُكْمِيُّ، ولمزيد بيان ذلك راجع: =

المناطقة النِّسْبَةَ الْحُكْمِيَّةَ[1].

ويمكن تسمية هذه المعاني التداولية بالأغراض الْمَقَامِيَّة، وهذا خير من تسميتها بالأفعال الإنجازية[2].

ويحسُن بالمقام ذكر التعريفات الأربعة للتداولية التي رأى جُورْج يُول أنها تُعبِّر عن التداولية بالكُلِّ لا بالكُلِّيَّةِ، أي: بمجموعها لا بكلٍّ على حدةٍ:

١ـ التداولية: دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم.

٢ـ التداولية: دراسة المعنى المقامي.

٣ـ التداولية: دراسة كيفية إيصال أكثر مما يقال.

٤ـ التداولية: دراسة التعبير من حيث دلالتُه على بُعْد المتلقي مكانيًا أو اجتماعيًّا أو فكريًّا عن المعبِّر[3].

= ـ مجموع حواشي الهروي على الشريف الجرجاني وحاشية السعد التفتازاني على شرح العضد الإيجي لمختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب، الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣١٦هـ، ط١، ج١، ص٥٨ وما بعدها. وسنذكره بعد ذلك اختصارًا بحواشي المختصر الأصولي ابن الحاجب.

ويرى الباحث أنَّ التداوليين إنْ صاروا إلى المصطلح المنطقي «قضية» فالأولى بهم أن يأخذوا بالمصطلح المنطقي «النسبة الحُكْمِية» وإلا ففي «الإسناد» متسعٌ، ومع هذا شاع اصطلاحهم «المحتوى القضوي» شيوعًا لا يمكن معه المخالفة؛ فلزم استعماله، وكأنه صار علامة على درسهم التداولي خاصةً.

(١) وأحيانا يسميه المناطقة: النسبة الكلامية، أو النسبة الداخلية.

(٢) لما سيأتي ـ إن شاء الله ـ عن استعمال مادة (ن.ج.ز) في الحديث عن أفعال الكلام.

(٣) George Yule (1996) Pragmatics, Oxford University Press, P:3.

وانظر الترجمة العربية له، مع ما اختلفت فيه عما ترجمه الباحث في الأعلى:

ـ جورج يول: التداولية، ترجمة: قُصَي مهدي العَتَّابي، الدار العربية للعوم ناشرون، دار الأمان، بيروت، والرباط ٢٠١٠، ط١، ص١٩-٢٠.

CS CamScanner

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

التَّدَاوُلِيَّةُ مَذْهَبٌ أَمْ مَنْهَجٌ أَمْ عِلْمٌ؟

ولا بُدَّ من التِفاتةٍ للتساؤل عما إذا كانت التداوليةُ مذهبًا[1] لغويًّا ونقديًّا، أو منهجًا تحليليًّا، أو علمًا مستقلًّا؟ حيث اتضح مما سبقَ ذكرُه أن التداوليةَ ليست نظريةً لغويةً ترمي إلى تحليل مادة لغوية بالأساس، وإن كانت تمارس هذا العمل في أثناء عملها الأصلي، فهي أعم من ذلك، وليست منهجًا تحليليًّا لغويًّا فقط؛ لأنها تقوم في الأساس على تحليل كل عناصر الموقف التخاطبي بما في ذلك العناصر اللغوية وغير اللغوية لهدفٍ ليس تقعيديًّا لغويًّا ولا جماليًّا فنيًّا؛ ولذا فهي ليست منهجًا تحليليًّا لِلُّغَة، وإن كانت تُقَدِّمُ للمستويات الداخلية الخمسة لتحليل اللغة ـ وهي المعجم والأصوات والنحو والصرف والبلاغة ـ تُقَدِّم لها مستوًى سادسًا هو مجال المعنى التداولي.

ولاختلاف حيثيتها هذه في تناول الموضوع فهي علم مستقل عن علوم اللغة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هي جزء من علم أكبر منها هو السيمياء[2] الذي هو: علم

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن علي الصراف نقل تعريف مسعود صحراوي للتيار التداولي بأنه «مذهب لساني» نقله علي الصراف بوصفه تعريفًا للتداولية نفسها، علمًا بأن مسعود صحراوي قدم بعد ذلك تعريفًا خاصا بالتداولية، انظر:

ـ علي الصراف: في البراجماتية، ص٤.

ـ مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ٥، ١٧.

(٢) وهذا وِفَاقًا لدي سوسير، وخلافًا لبارْتْ الذي رأى السيماء جزءًا من اللسانيات، راجع كلاًّ من:

ـ فرديناند دي سوسير: علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: مالك يوسف =

CamScanner

يبحث في العلامات[1] ومستعملي هذه العلامات[2]، ويقع تحت اختصاصه كلُّ أنواع العلامات، وما تدل عليه، وكيفيةُ دلالَتِها تلك، ويتناول عمليةَ استعمال العلامة، وفَهْمِ معنى العلامة... إلى آخر ذلك.

التَّدَاوُلِيَّةُ وَالسِّيمِيَاءُ:

ولفهم أَوْعَب للعلاقة بين التداولية والسيمياء نرجع إلى مراسلات الفيلسوف الأمريكي بِيرْس مدة إقامته في فَرَنْسَا مع رِيبُو «Ribot» ولَالَانْدْ «Lalande»[3] حيث بدأ استعمال مصطلح «Pragmatics» لِيَنْشُرَ بيرس مقالتَيْه عنها في عام ١٨٧٨ و١٨٧٩

= المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد ١٩٨٥، ط٣، ص٣٤، وما بعدها، علمًا بأن هذه الترجمة هي من الإنجليزية إلى العربية، والنص الأصلي ألقي في محاضرات بالفرنسية.

ـ رولان بارت: مبادئ في علم الأدلة، تعريب محمد البكري، دار الحوار، اللاذقية بسورية ١٩٨٧، ط٢، ص٩.

(١) راجع كلاًّ من:

ـ ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٠، ط٢، ص١٠٦.

ـ ميشال آريفيه وجان كلود جيرو ولوي بانييه وجوزيف كورتيس: السيميائية أصولها وقواعدها، ترجمة: رشيد بن مالك، مراجعة وتقديم: عز الدين المناصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٢، ط١، ص ١٠٥، علما بأن المترجِم والمراجِع هما من أعطى الكتاب هذا الاسم، وقد أعادا طبع الكتاب وضمَّا له أعمالا أخرى ولم يشيرا لهذه الطبعة الأولى في الطبعة الأشمل.

ـ محمد السرغيني: محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة، الدرا البيضاء ١٩٨٧، ط١، ص٥.

ـ روبرت شولز: السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت ١٩٩٤، ط١، ص٩.

(٢) انظر: نُعْمَان بُوقَرَّة: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، عالم الكتب الحديث، وجدارا للكتاب العالمي، عَمَّان، الأردن ٢٠٠٩، ط١، ص٩٧.

(٣) راجع في ذلك:

ـ جِيرَارْ دُولُودَالْ وجُووِيلْ رِيطُورِي: السيميائيات أو نظرية العلامات، ص١٧، وما بعدها.

CamScanner

الأولى بعنوان: كيف يمكن تثبيت الاعتقاد؟ والأخرى بعنوان: كيف تصير أفكارنا واضحة؟ حيث أشار إلى أن الفكر «إبداع لعادات فعلية، ذلك أنه مقرون بقيمتين: متى يتم الفعل؟ وكيف يتم؟ فيكون مقترنًا بالإدراك في حالته الأولى، وفي الحالة الثانية يؤدي الفعل إلى نتيجة ملموسة»(١) ليصل إلى أن الممارسة والتطبيق هما ما يشكل القاعدة الأهم لأفكار الإنسان.(٢)

أما الفيلسوف تشَارْلِزْ مُورِيسْ فقد قَدَّم توضيحًا لهيكل السيمياء الثلاثي المكوَّن من: التركيب والدلالة والتداولية، وأن التداولية هي «الجزء من السيميائية الذي يعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات»(٣).

والتداولية ـ وَفقًا لهذا التصور ـ هي الضِّلْعُ الثالث في المثلث السيمِيائي، ولها مَزِيَّة على الضلعين الأَوَّلَيْنِ، هي أنها تضطلع بدراسة أبعاد غير لغوية تحصل في خلال الموقف التخاطبي وتؤثر في عملية الفهم، وتوجيه دلالات البنية اللغوية المستعملة، وهذا ما يربطها بفكرة الإدارك والتفكير التي يقوم على دراستها علم النفس، وتمتد

---

(١) باديس لهويمل: التداولية والبلاغة العربية، بحث بمجلة مخبر اللسانيات واللغة العربية، بجامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر ٢٠١١، العدد٧، ص١٥٨. وقد وقع في خطإٍ طباعي خطير حين جعل تاريخ نشر المقالتين ١٩٧٨-١٩٧٩، وهما قبل ذلك بمائة عام بالضبط.

(٢) انظر: بغورة الزاوي: العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة التأسيس والتجديد، بمحث بمجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت مارس ٢٠٠٧، العدد ٣، المجلد ٣٥، ص١٩٩.

(٣) راجع كلاًّ من:

ـ فرانسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط ١٩٨٦، ص١٢.

ـ جاك موشلار وآن ريبول: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ومراجعة: لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٣، ط١، ص٢٩.

CS CamScanner

في تجلياتها السلوكية والجمعية إلى علم الاجتماع[1]، فكأن التداولية تمثل الجزء غير اللغوي من السيمياء.

ويظهر هذا في برامج التحليل التداولية في الكلام على كيفية تحليل قوة التلفظ بالقول، والإحالات الإشارية الاجتماعية، ومناسبة تأدب الخطاب للتأدب المفترض في المقام التخاطبي، وغير ذلك مما لا يحصى كثرةً.

وبعبارة أقل إحكاما: فإنَّ فهمَ عمل التداولية ضمن المشروع السيميائي بوصفها مهتمةً بدراسةِ «كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم كما تُعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث»[2].

وَصْفُ التَّدَاوُلِيَّةِ بِاسْتِعْمَالِ الْمَفَاهِيمِ النَّحْوِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ:

ووفقا للجهاز المفهوميِّ[3] النحويِّ العربيِّ لكَ أن تَعُدَّ التداولية: دِرَاسَةَ لأَثَرِ

(١) راجع في ذلك:

ـ محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٥، ط١، ص٤.

(٢) الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر ١٩٩٢، ط١، ص١.

(٣) يشيع عند المغاربة ومن والاهم أن ينسبوا إلى الجمع هنا وفي مواضعَ أُخَر؛ فيقولون: الجهاز المفاهيمي، والدراسة الموضوعاتية، وغير ذلك، والمقرر في المذهب الصرفي عند السادة البصريين منعُ ذلك، ووجوب النسبة للمفرد، على تفصيل، والتفصيل عندهم في كيفية تنزيل هذا الحكم على الحالات المتعددة، وليس التفصيل في وجود استثناءات، بل أَوَّلُوا كل ما ظهر أنه استثناء، وأكثرها تأويلات في غاية الوجاهة، تجدها عند الرضي الإستراباذي على شافية ابن الحاجب وكذا عند ابن يعيش على مفصل الزمخشري وغيرهم.

لكن حكى السيوطي في همع الهوامع جواز النسبة للجمع بلا قيد، أقول: والظاهر أنه قول السادة الكوفيين؛ لأنه أَوْفَقُ لأصولهم الصرفية، وأَلْيَقُ باتساعهم النَّقْلِي، وإن لم أقف على نص منهم عليه، والباحث على مذهبهم، وعلى هذا فلا وجه للإنكار؛ إذ لا يدخلُ الإنكارُ في المختَلَف فيه، خلافا =

الْمَفْعُولِ الْمُطْلَقِ فِي الْمَفْعُولِ بِهِ مِنْ خِلَالِ قِيَاسِ مَدَى نَجَاحِ الْفَاعِلِ فِي تَوْظِيفِ الْمَفْعُولِ فِيهِ وَالْمَفْعُولِ مَعَهُ لِيُحَقِّقَ الْمَفْعُولَ مِنْ أَجْلِهِ.

ولبيان هذا يجب أولا توضيح دلالة المفعول المطلق؛ إذ هو الْحَدَث ـ وهو المفعول على الحقيقة ـ ويعبر عنه أحيانًا بالمصدر، ويَعُدُّ بعضُ النحويين ما بين ذَيْنِ المصطلحين من قبيل الترادف؛ بوصفهما لفظتين مترادفتين تَدُلَّانِ على معنًى واحد، وهذا صحيح من وجه دون وجه؛ فالذي يَدُلَّانِ عليه واحد نعم، لكنْ كلٌّ منهما يَدُلُّ عليه من جهة غير جهة الآخر؛ فالمصدر يشير إلى أنه أصل الاشتقاق، وذي قضية صرفية، وذا مذهب البصريين فيها.

أما المفعول المطلق فهو الحدث عينه[1]، أي: الذي فُعِل، لكنه مطلق عن قيدٍ

= لصنيع كثير من المشارقة المعاصرين، وإنما حدا بالباحث هنا أن ينسب إلى المفرد حاديان:

الأول: أن الخروج من الخلاف مستحب غالبا.

والثاني: أن الواحد هنا ـ أي: في مفهوم ـ في معنى الجمع، بل هو أفضل؛ لأنه يدل على معنى الجنسية المجردة لا الأفراد المتشخصة، وكأن الأفراد لا تشترك إلا في جامع المفهومية، أما النسبة للمفرد هنا فتلمح أن الأفراد تشترك في مفهومية مخصوصة، وهي طريقة عقلية فكر بها العقل النحوي الجمْعي. انظر ـ على سبيل التمثيل لا الحصر ـ كلا من:

ـ رضي الدين محمد بن الحسن الإستراباذي: شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ومعه غيره، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ص٧٧.

ـ يعيش بن علي بن يعيش: شرح المفصل للزمخشري، تقديم: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠١، ط١، ج٦، ص٩-١٠.

ـ السيوطي: همع الهوامع، ج٢، ص.١٩٧.

(١) مع ملاحظة أن بعض النحويين يُوَسِّع مدلول «المفعول المطلق» ليشتمل على الذوات أيضًا فيما لو كان الفعل هو الخلق مثلًا، كما مَثَّلُوا له بإعراب كلمة «السموات» مفعولًا مطلقًا في قولهم: «خلق الله السموات»، وسواء كان ما حدث معنويًّا أو جُثَّة أي: جِرْمًا، فكلاهما حدثَ من عَدَم، وجَرى عليه الحَدَثَان، أي: الحدوث، ولا يضر عدم التفريق هنا بين الحسي والمعنوي في انحصار المفعول المطلق في المصدر الذي هو حدث أو تعديه لبعض الذوات، انظر في توضيح النحاة لذلك: =

CamScanner

يخصُّه، كأن التقسيم النحوي قسّم المفعولَ الذي لا بقَيْدِ شيءٍ إلى قسمين: مفعول بقيد شيء، ومفعول بقيد لا شيء، والمفعول بقيد شيء جنس يندرج تحته المفعول به والمفعول له والمفعول فيه والمفعول معه. والمفعول بقيد لا شيء هو المفعول نفسه، أي: الْحَدَث الذي فُعِلَ؛ ولذا أُطلق عليه المفعول المطلق.

وبناء على ذا فالمصدر والمفعول المطلق مختلفان بالجهة، وهي عينها الجهة

= ـ أبو بكر عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بلا تاريخ والمقدمة ممهورة بعام ١٩٩١، ص٣٦٩، وما بعدها.

ـ أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب: أمالي ابن الحاجب، تحقيق: فخر صالح سليمان، دار عمار، الأردن، دار الجيل، بيروت ١٩٨٩، ج٢، ص٧٠٢.

ـ أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق ١٩٨٥، ط٦، ص٨٦٧.

ـ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: همع الهوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، القاهرة، ج٢، ص٩٤.

ـ السيوطي: الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق: أحمد مختار الشريف، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٧، ج٤، ص١٠١-١٢٣، وهو أوفاهم إيضاحًا وجمعًا بإطلاق، ومفتاح فهمها هو تصور المعتزلة في شيئية المعدوم حين قالوا: الشيء إما موجود وإما معدوم، فيكون الخلق نقل لوجوده المتقرر من العلمي الجائز إلى العيني الجائز، وليس ابتداء من لا شيء، بخلاف الأشاعرة ومنهم عبد القاهر وابن الحاجب وابن هشام الذين قالوا إن الشيء هو الموجود العيني فحسْب لا العلمي؛ فاتسع عندهم مفهوم المفعول المطلق ليشمل الذوات المحدثة بالخلق، ويرى الباحث أن الخلاف بينهما في مفهوم المفعول المطلق فرع على الخلاف بينهما في الكَسْب والقُوَّةِ الْمُودَعَة.

وفي مسألة صحة التفريق بين الحسي والمعنوي انظر:

ـ رضا زيدان: رسالتان في نشأة اللغة والمجاز، عالم الأدب، القاهرة ٢٠١٦، ص١٢٢ وما بعدها.

وليس كل ما ورد هنا سديدًا، بل يرى الباحث أن الصواب بخلافه بأن يُقال: التفريق بينهما إضافي، أي: نِسْبِي بالاصطلاح المعاصر، كما هو التفريق بين النظري والضروري في التصورات والتصديقات المنطقية.

المقصودة في العبارة السابقة؛ لأن المقصود هو المفعول المطلق الذي هو الحدث، لا المصدر الذي منه الاشتقاق[1].

وبناء على ذلك فبحث التداولية بحث مختص بأثر هذا المفعول المطلق، الذي يمكن أن نمثل له بعبارة «فعل الكلام» أي: حَدَثِ التكلُّم، في المفعول به ويمثله المعنى المستنتَج لدى المتلقي الذي هو السامع أو المخاطَب، من خلال قياس مدى نجاح الفاعل الذي هو المتكلم أي: المخاطِب في توظيف المفعول فيه من زمان ومكان وكل ظارف من الأوعية المعنوية وتوظيف المفعول معه وهو العوامل المقارِنة المصاحِبة لحدث التكلم ويمثل المفعولين الأخيرَيْنِ الخلفياتُ الاجتماعية والفكرية والنفسية ... إلخ، ليحققَ المتكلِّمُ المفعولَ من أجله، وهو ما في نية المتكلم وقصده.

(١) هذا مع التسليم الجدلي للبصريين بأن المصدر هو أصل الاشتقاق، وإلا فالفعل الماضي أصله.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

نَظَرِيَّةُ أَفْعَالِ الْكَلَامِ

يضم الإطار التداولي الجامع لنظريات التحليل التداولي ثلاث نظريات تربطها علاقة العموم والخصوص المطلق، فنظرية الملاءمة خرجت من رحم نظرية المبادئ التعاونية، والمبادئ التعاونية جاءت لتخدم قياس قوة فعل الكلام.

وأُولَى هذه النظريات تاريخيا هي نظرية أفعال الكلام، وهي مهيمنة على ما بعدها، كأنها أبٌ يَمُونُهم أو أمٌّ تحُوطُهم.

فِكْرَةُ نَظَرِيَّةِ أَفْعَالِ الْكَلَامِ:

حينما وجد أوستن أن النظرية التفسيرية التي تطرحها المدرسة المنطقية الوضعية غير كافية لتشمل كل ما يتلفظ به الإنسان في حياته اليومية قَرَّرَ أن يضع هو نظرية تفسيرية مباينة تقوم على تفسير هذه الملفوظات وتحليلها؛ بحيث يمكن الاستفادة من هذا التحليل في ميادينَ عمليةٍ كثيرةٍ كالقانون وعلم الاجتماع الحديث وعلم النفس الحديث وغير ذلك من العلوم الناشئة، في خطوة هي الأسبق في العلم الغربي ـ لا سيما بريطانيا وأمريكا ـ لتحويل مسيرات[1] الدراسات الفلسفية والمنطقية إلى ما يراه

---

(١) يطلق بعض الباحثين لفظة «مسار» وهو مهمل لا مستعمل في العربية؛ لأن الأصلَ يائيُّ العَيْن (س.ي.ر) والوزن الصرفي لاسم الزمان واسم المكان منها «مَفْعِل» أي: «مَسْيِر» فثقل كسر الياء؛ فنقلت الكسرة للسين الساكنة قبلها، فصارت «مَسِير» ولا وجود لأي ألف في ذلك. ومثله «مطار» وإن طَمَّ به البلاءُ فشوًّا؛ فالشيوع لا يغير من أمر الصحة شيئًا، راجع لسان العرب وتاج العروس مادة (س.ي.ر).

صحيحًا، وَفقًا لمواضعات المذهب العملي الجديد «Pragmatism»[1].

والمنطلق الذي بدأ منه أوستن كان التفرقة بين نوعين من عمليات التلفظ، الأول: هو أن تقول شيئًا لتخبر الآخر به فحسب، والآخر: أن تقول شيئًا لتنجز بعملية التلفُّظ نفسِها حدثًا ما في الواقع كإبرام معاهدة وإعلانِ حربٍ وعقْدِ بيعٍ وغيرِ ذلك، ومع تطوُّرات النظرية فيما بعدَ أوستن وسيرل امتدَّ النوع الثاني ليشمل الأول تمامًا؛ لأن عملية الإخبار هذه لا بد أنها واقعة في حَيِّز فِعْلٍ أكبرَ يحصلُ إنجازُه بعملية القول.

باللغة العربية يمكن أن يستفيد الباحثُ من الجهد الكبير الذي بذله علماء العرب في تقسيم الأفعال والكلام؛ فيقول إن ما سماه أوستن «أفعالًا إخبارية» يقابل ما أسماه البلاغيون العرب «الخبرَ» وما أسماه «أفعالًا أدائية» يقابل ما أسماه البلاغيون العرب «الإنشاءَ» ومن نافلة القول أن يُقال: إنَّ عبدَ القاهر الجرجانيَّ مَثَلًا تكلم عنهما قبل أوستن بعشرة قرون تقريبًا.

مَا الْفَائِدَةُ الزَّائِدَةُ إِذَنْ فِي نَظَرِيَّةِ أَفْعَالِ الْكَلَامِ عَلَى مَا عِنْدَ الْعَرَبِ؟

النفع الزائد فيها جاء من كونها تطوَّرَتْ باتساعٍ لغويٍّ فلسفيٍّ مترامي الأطراف، وَفقًا لمذهب فكري معين[2]، ويظهر هذا جليًّا حينما نرى كلَّ خَبَرٍ جزءًا من فِعْلٍ إنشائيٍّ

(١) لفهم ذلك اقرأ لزامًا بعناية الفصل الثاني من:

Ahti-Veikko Pietarinen (2006) Signs of Logic Peircean Themes on the Philosophy of Language, Games, and Communcation, Springer, The Netherlands, P:49-76.

وعُنوان الفصل الثاني هذا هو:

«From Pragmatism to the Pragmatics of Communication»

(٢) وبعض الباحثين أرجع التداولية لما قبل النفعية الفلسفية؛ إذ أرجعها إلى أرسطو، وهو رأي متهاوٍ، بل محض تَمَحُّل؛ إذ كيف يُنسب إلى أرسطو فرعٌ معرفي مستقل بعد تَجَرُّمِ القرون بعد القرون وكلام أرسطو لم يثمره إلى أن بدأ القرن العشرون الميلادي؟! انظر إن شئتَ:

- فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص٢٠-٢٣.

CS CamScanner

أكبرَ منه، وبهذا تُردُّ ممارسة عملية التلفظ كلُّها - بل سائر الممارسات التي يأتيها الإنسان من أكل وشرب وتريض وقتال ... إلخ - إلى إنشاءات، والإنشاء يفارق الخبر هنا من جهة أنه يَقصِدُ تحقيقَ إنجازٍ ما له أثرٌ أو بقاءٌ في الواقع، هذا الأثر يحقق مصلحةً للمتلفِّظ، وهذا الأثر يمكن تقسيمه إلى قسمين[1]:

الأول: تغييرٌ نفسيٌّ مباشر، كإفحام مُعانِدٍ في نقاش، أو تبشير طالب بالنجاح.

والآخر: تغييرٌ معنويٌّ سواء كان له ظلالٌ نفسيَّةٌ وماديَّةٌ، أَوْ لَا، كطَرْدِ موظَّفٍ، أو طلاقِ زوجةٍ، أو إطلاق اسمٍ على مولودٍ أو سفينةٍ.

ولأن الأمر منوط بالمصلحة فإن نظرية أفعال الكلام تقوم على دراسة كيفية استخدام اللغة وتوظيف مفرداتها وتراكيبها وأساليبها من أجل تحقيق منجَزٍ معين في الواقع، وهذا المنجز يمثِّل مصلحةً ما للمتلفِّظ.

بل الأمر أكبر من ذلك، حيث يمكن تحقيق المنجز المنشود دون استعمال اللغة أحيانًا كإشارة أو صفير أو تصفيق، لكن هذا تدرسه التداولية تحت أبواب أخرى لا تحت باب أفعال الكلام، وبهذا يتضح أن التداولية أوسع من أفعال الكلام[2]، وهذه

---

(١) هذا التقسيم ليس من كلام أوستن، بل من تأمل الباحث، وإنما ذُكِرَ لأن السياق اقتضاه.

(٢) وقد عَرَفَ النحاةُ العربُ شيئًا بخلاف الكلام أسمَوْه «الدوالَّ الأربعة» وهو داخل في الدَّرْس التداولي غير داخل في الدرس النحوي، وهي:

١ـ الإشارة،

٢ـ والكتابة،

٣ـ والنَّصْب،

٤ـ والعَقْد.

وهذا يَكسِبُ للتداوليةِ مشروعيةً في الاستقلال عن الدَّرْس النحوي، كما يحقق لها الاستقلال عن الدرس المنطقي العربي تعرُّضُهَا للدلالات التي عَرَفَها المناطقةُ العربُ ولم يدرسوها في المنطق شأنُهم في ذلك شأنُ النحاة مع الدوال الأربعة، هذه الدلالات هي: =

علاقة منطقية مهمة، كما يتضح أن أفعال الكلام كانت وما زالت من أهم أبواب الدَّرْس التداولي، لأن اللغةَ أسهلُ عند أكثر البشر في تحقيق أغراضهم.

وبعدَ هذه الاكتشافات الأوستنية في عدمِ مناسبةِ النظريةِ التفسيريةِ المنطقيةِ الوضعيةِ ومِن ثمَّ اللغويةِ المعتمِدة عليها في تفسير المتلفَّظات التي حولنا، اجتهد في وضع برنامج تحليلي لعملية التلفُّظ هذه، فيما يمكن تسميته «نظرية أفعال الكلام» لتكونَ نواةً للتطوير المنشود في الرؤية والاتجاه العامِّ للتفكير اللغويِّ والفلسفيِّ المعاصِر.

ومما يؤكد هذه الرغبة الكلية التي كانت عند أوستن أنه لم يؤلف ذلك في مجرد كتاب، بل قدمه في محاضرات كأنها خلاصةُ حياته العلمية في جامعة «هَارْفَرْد» الكبيرة التي دعته لذلك قبل أن تنتهي حياته بقليل، ولم يكن السامعون من تخصصٍ واحد، ولكنها كانت دعوة لتوجيه التفكير العامِّ وِجهة جديدة، وقد تم له ما أراد.

وبقطع النظر عن السيل العارم الذي فاضت به أودية العربِ النقَلةِ للنظريةِ من محاولاتٍ ترجميَّةٍ مخفِقةٍ أو مصيبةٍ في وصف ما أتى به أوستن، فسوف يتناول الباحث هنا برنامجه التحليلي العملي بعَرْضٍ موجز، ثم يأتي ما أضافه سيرل للنظرية، والتعليق

= ١ـ الدلالة اللفظية الطبيعية،

٢ـ والدلالة اللفظية العقلية،

٣ـ والدلالة غير اللفظية الوضعية،

٤ـ والدلالة غير اللفظية الطبيعية،

٥ـ والدلالة غير اللفظية العقلية.

وسيأتي بيان ذلك من شروح الشمسية قريبًا إن شاء الله، ويكفي هنا مراجعة على طَرَف الثُّمَام من كتب مبادئ العلوم كلًّا من:

ـ حاشية أبي النجا على شرح خالد الأزهري على متن الآجرومية، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٤٣هـ ص٩. من كلام الشيخ خالد الأزهري.

ـ عبد المتعال الصعيدي: تجديد علم المنطق في شرح الْخَبِيصِي على التهذيب، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة ١٩٦٩، ص٢٤.

CamScanner

عليه؛ لبيان البرنامج العملي الإجرائي الذي سيتبعه الباحث في تحليل المادة محل الدراسة هنا.

الْبَرْنَامِجُ التَّحْلِيلِيُّ:

البرنامج التحليلي الأوستني يقسم الملفوظات إلى خبر وإنشاء كما مَرَّ، والإنشاء ـ وهو محل العناية في النظرية ـ يُصَنَّف إلى فئةٍ من خمسِ فئاتٍ من أنواع الأفعال، ثم يمكن تحليل كلِّ نموذجٍ جزئيٍّ مندرجٍ تحت فئةٍ من هذه الخمسة إلى ثلاثة عناصر رئيسة هي حدوث التلفظ بالقول، وطريقة أداء ذلك التلفظ، والأثر الواقعي الناتج عن ذلك التلفظ، وفيما يلي توضيح ذلك.

أَصْنَافُ الْإِنْشَاءَاتِ:

١ـ إطلاق الأحكام: وهي عمليات توظيف بنيةٍ لغوية دالَّةٍ في سياق يعترف للمتلفِّظ أنه يمتلك السُّلْطَة في إصدار أحكام مِنْ عَلٍ كالقاضي أو محتكَمٍ إليه عرفيًا.

وأمثلة هذه الإنشاءات: ما يقوله القاضي عند تبرئة متهم أو الحكم عليه بالإذناب في محكمة، أو ما يُوَقِّع عليه الملِكُ أو رئيس الجمهورية حين يصدر مرسومًا، أو ما يقوله قائد عسكري أعلى حين يمنح رتبةً لأحد جنوده، أو ما أشبه ذلك.

١ـ أفعال القرارات: وهي عمليات توظيف بنية لغوية دالة في ظَرْفٍ يعترف للمتلفِّظ بأن له الحق في إنفاذ اختياره في شأن معين.

ومن أمثلة هذه الإنشاءات: ما يقوله المعلم حين يسمح لطالب بالانصراف مبكرًا أو حين يمنعه من ذلك، أو ما يقدمه مدير قسم الموارد البشرية حين يوافق على تعيين موظف جديد في الشركة التي يعمل بها، أو ما يقوله والد فتاة حين يرفض طلب أحد الخاطبين أن يتزوج منها، وما أشبه ذلك.

٢ـ **أفعال التَّعَهُّد**: وهي عمليات توظيف بنية لغوية دالة في ظَرْفٍ يُلزِمُ فيه المتلفِّظ نفسه بأنْ يقوم بعملٍ ما يخصُّ المخاطَبِينَ أو بعضَهم أو غيرَهم، بشرط أن يكون لهذا السياق معطيَاتٌ، منها: أن يكون المتلفِّظ قادرًا على فعْلٍ معين، أو يُتَوَقَّع منه أو له أن يكون قادرًا عليه في وقت ما في المستقبل، ومنها: أن هذا التعهد سيؤثر في المخاطب إيجابًا أو سلبًا، كالرضا أو الفرح بالوعد والخوف أو الغضب من التوعد.

ومن أمثلة هذه الإنشاءات: ما يقوله الابن لأبيه حين يَعِدُه بعدم تكرارِ خطإٍ معين مرةً أخرى، أو ما يُهدد به الحاكم الخارجين على القانون من السجن والاعتقال، أو ما يقوله المشتري للبائع حين يَرْهَن عنده ساعته الثمينة حتى يعطِيَه السلْعَة في الحال بدون قبض ثمنِها على أمل أن يسدِّد ثمنَه بعد أسبوع، أو ما يقول المسلم المصري الريفيُّ حين ينذر لله تعالى أن يذبح شاةً ويفرِّق لحمها على الفقراء المجاورين لجامع سيدنا الحسين إذا قُبل ابنُه طالبًا بكلية الطبِّ، وما أشبه ذلك.

٣ـ **أفعال الاستجابة**: وهي عمليات توظيف بنية لغوية دالة في ظَرْفٍ يكون فيه المتلفظ مخاطَبًا قبل إصدار هذه البنيةِ اللغوية؛ فيكونُ توظيفُ هذه البنية اللغوية في ضمن الاستجابة لما تعرَّض له المتلفِّظ قُبيل تلفُّظه.

ومن أمثلة هذه الإنشاءات: ما يقوله الصدِيقُ لصديقه إذا قَدَّم له هديةً شُكْرًا على هديته، أو ما يقوله المضيف لضيفه حين يفتح له الباب تَرحابًا بقدومه، أو ما يقوله المعزِّي لأهل الميت مواساةً وتقديمًا لواجبِ العزاء، أو ما يقوله سائق السيارة في مصر إذا غضب من السلوك القيادي لغيره ممن لم يحترف القيادة بعد لاعنًا له، أو لمن أعطاه رخصة القيادة، وما أشبه ذلك.

٤ـ **أفعال العَرْض والإيضاح**: وهي عمليات توظيف بنية لغوية دالة في مَقَامِ تدريسٍ أو مناظرةٍ وحِجَاجٍ بين أطرافٍ، بحيث يحاول كلُّ طَرَفٍ ـ والمتلفِّظ أحد هذه الأطراف ـ تحقيقَ مصلحةٍ معنوية، هي إفهام الطلاب وإقناعهم بالفكرة أو المحتوَى

القَضَوِيِّ الذي يؤمن به، أو تكونُ المصلحةُ هي الانتصارَ العقليَّ وإفحام الخصم.

ومن أمثلة هذه الإنشاءات: ما يقوله أستاذ الاقتصاد في تعريف القيد المحاسبي لطلاب كلية التجارة، أو ما يشرح به محاورٌ تليفزيونيٌّ آيةً قرآنيةً أو حديثًا نبويًا يَظُن أن المشاهدين سيرون فيها مخالفةً لفكرته التي يدافع عنها، أو ما يعترض به نديم مقهًى على رأي نديمه في تفضيل لاعب كرة قدم على آخر وَفقًا لمعاييرَ معينةٍ.

عَنَاصِرُ التَّحْلِيلِ:

بعد أن يصنِّفَ المحلِّلُ المادةَ المتلفَّظ بها محلَّ الدراسة إلى هذه الأصناف الخمسة فإنه يقوم بتحليل كلِّ نموذجٍ منها إلى ثلاث عناصر رئيسة هي حدوث التلفظ بالقول، وطريقة أداء ذلك التلفظ، والأثر الواقعي الناتج عن ذلك التلفظ، وهذا تفصيلها[1]:

١ـ **حدوث التلفظ بالقول:** وهو إثبات حدوث حدث التكلم الذي هو أن يقول قائلٌ كلامًا نحويًّا. وكلمة «كلام» هنا تعني ما يقصده النحاة العرب من اللفظ المركب المفيد بالوضع، بمعنيَي الوضع، وهما: قَصدُ المتكلم إليه؛ فيخرُج كلامُ المجنون والنائم، وأن يكون الوضعُ عربيًّا[2] أي من لغة معلومٍ أن المخاطب يعرفها بدرجة تسمح له بفهم ما يتلقاه بها.

٢ـ **قوة التلفظ بالقول:** ويشمل البنية اللغوية المتلفظ بها، وكذلك هيئة التلفظ بها، وهي طريقة أداء هذا القول حالَ كَوْنِ المتلفِّظ قائلًا، وذلك بما يصاحب البنية

---

(١) يساعد على فهمٍ أجمع لأطراف المسألة:

ـ صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، القاهرة ١٩٩٣، ط١، ص١٨٤-١٨٥.

(٢) انظر في بسط ذلك مثلاً:

ـ حاشية أبي النجا على شرح خالد الأزهري على متن الآجرومية، ص٨-٩. وتأمل النقاش الذي بين المُحَشّي والشَّارِح.

اللغوية الصادرة من تعبيرات الوجه وإشارات اليد وتشدقات الفم ونفور عروق الجسد وحدة نبرة الصوت وهبوطِ التنغيم أو صعودِه، ... إلخ.

٣ـ أثر التلفظ بالقول: وهو رد الفعل الذي يحصل في الواقع ناشئًا عن إصدار المتلفظ قولَه على الهيئة المخصوصة التي أداه بها، وفي بعض الأحيان لا يكون هذا الردُّ ظاهرًا بعَقِب فعل الكلام مباشرة، ولكن قد يظهر بعد مُهلة وتراخ.

ويكون عمل المحلل في هذه المرحلة أن يرصد هذه العناصر الثلاثة، ثم يقدم قراءة تفسيرية لها في ضوء الأوعية المعنوية للموقف التخاطبي، على النحو التالي:

١ ـ أما العنصر الأول ـ وهو حدوث التلفظ بالقول ـ فيقوم المحلل بإثباته عن طريق النص على البنية اللغوية التي صدرت من المتلفظ في الموقف التخاطبي؛ لأن هذه البنية هي الدليل الأقوى لإثبات حدوث التلفظ، لكن لو اضطربت الروايات التي تنقلها، فمجموع البنى المنقولة يكون دالًّا على حدوث التلفظ، ولو عَدِمَ البنيةَ اللغوية تلك فعليه أن يثبت حدوث التلفظ بلازم من لوازمها الخارجية التي ثبت وروده، بشرط أن يكون لازمًا في العادة، أي وَفقًا للمقام التخاطبي الذي جرى فيه حدث التكلم، وبهذا يظهر أن قصارى عمل المحلل هنا هو إثبات حصول التلفظ، وقد يكون ذلك سهلا هينًا، وقد يحتاج إلى جهد ومشقة وبحث، بحسَب كلِّ موقف، والعوارض التي أثرت في نقله حتى وصل للنطاق المتاح معرفيًّا في العصر الذي يعيش فيه الباحث.

٢ـ وأما العنصر الثاني ـ وهو قوة التلفظ بالقول ـ فهو أهم عنصر تعتني به النظرية؛ إذ هذا هو العنصر الذي يشمل الجانب اللغوي وغير اللغوي في التفسير، ومعلوم أن من مزايا النظرية أنها تُعنى بالجانب الدال في الفعل الكلامي ـ أي: حصول عملية التخاطب ـ بشقيه اللغوي وغير اللغوي؛ لأن التداولية متفرعة على السيمياء من حيث تصورُ فلاسفة اللغة والمناهج النقدية الحديثة.

CamScanner

وَيَصَّاعَدُ عَمَلُ الْمُحَلِّلِ هُنَا عَلَى سِتِّ مَرَاقِبَ:

١ـ الْمَرْقَبَة الأولى: تحديدُ المحتوى القَضَوِيِّ للبينة اللغوية المستعمَلة:

ويكون ذلك بأن يرصد البنية اللغوية المتلفظ بها، فيبين الدلالات الأصلية لهذه الجزئياتِ إذا كان بها بعضُ غموض، كبيان المعنى الصِّفْرِي لمفردةٍ ما مثلا عن طريق الاستدلال باستعمالها في سياقات لغوية مشابهة، أو يبين دلالة صيغة صرفية معينة عن طريق الاستدلال باستعمالات مضاهِئَةٍ لها من جذور أخرى، أو يبين المعنى الصِّفري لتركيب نحويٍّ غيرِ واضح بتقدير محذوف أو بإعادة الترتيب في المقدَّم والمؤَخَّر وما أشبه ذلك، وذلك أيضًا عن طريق الاستدلال باستعمال هذا التركيب في سياقات مشابهة، ويمكن أن يتطرق إلى الآثار الدلالية لظاهرة صوتية معينة كالمماثلة الصوتية مثلا، أو الآثار الدلالية الصوتية لظاهرة صرفية كالإبدال مثلا، أو غير ذلك ما يتفطن له الباحث.

كما يقوم الباحث كذلك بتوضيح نحو صورة بلاغية أو مجاز مرسل أو عقلي وارد في البنية اللغوية ببيان الأوعية المعنوية التاريخية والاجتماعية اللازمة في الفهم العام لهذه المجازات، وهذه الأوعية تمثل الظروف المبتلعة للموقف التخاطبي محل الدراسة.

وهذه المعالجة تمثلُ تَبَيُّنَ المحتوى القضوي للبنية اللغوية محل الدراسة، ويكون التعويل فيها على مهارات الباحث العلمية في معرفة الأنظمة اللغوية المختلفة للغة التي حصل بها التخاطب.

والشرط الأول لهذه المرحلة أن يكون استدلال الباحث بالمعاجم والقواعد مبنيًا على إثبات صحة ما انتهت إليه كتب المعاجم والقواعد اللغوية عن طريق بيان السياقات المدانية والمصاقبة والمشابهة التي أثمرت فيها هذه البنية اللغوية ومثيلاتها بالوضع النوعي؛ إثبات ذلك للمعنى الذي يفهمه الباحث، وهو المعنى الذي يدَّعي

الباحث أنه يمثل المحتوى القضوي للبنية اللغوية محل الدراسة؛ فلا يكفيه أن يقول إن هذا ورد في لسان العرب، ولكن عليه أن يوضح السياقات المشابهة التي جعلت من هذا المفهوم مفهومًا، مستعمِلا في ذلك مواقف تخاطبية أخرى من لسان العرب أو من غيره.

والشرط الآخر لهذه المرحلة أن تكون هذه الاستعمالات للبنية اللغوية في السياقات المستدَلِّ بها أوضح في مجموعها ـ على الأقل ـ من البنية اللغوية الواردة في الموقف التخاطبي محل الدراسة، ومما يقوي موقف الباحث أن تكون السياقات المستدل بها مقارنة أو قريبة الحصول من عصر الموقف التخاطبي محل الدراسة أو مشتركة معه في جهةٍ ما من الجهات التاريخية أو النفسية أو الاجتماعية أو السياسية أو غير ذلك.

٢ـ الْمَرْقَبَة الثانية: تحديد المحتوى القَضَوِي لهيئة التلفظ بالقول:

ويقوم الباحث أيضًا هنا بتحليلٍ آخر، يهدف إلى بيان دلالات الهيئة المصاحبة للبنية اللغوية المستعملة عند إحداث التلفظ بالقول في الفعل الكلامي، مثل دلالة الإشارة بالأصابع، وأخذِ المتكلم بلحية غيره، وعلوِّ الصوت، أو التقطعِ والسَّكْت في أثناء الكلام، أو العبوسِ والإدبار، وغيرِ ذلك مما ورد في الموقف التخاطبي محل الدراسة.

وليست الطريق الوحيدة لمعرفة هذه الهيئة هي النصُّ عليها، بل يمكن استفادة حصولها من بعض السمات اللغوية الموجودة في البنية اللغوية المنقولة، كحذف كاف مالك من قوله: «وقالوا يا مالك ليقض علينا ربك» في قراءة، وهاء السكت في قوله: «ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه» أو المد في الطويل اللازم في كلمة الضالين في قوله: «وإن كنا من قبله لمن الضالين» وكل هذه حوارات نقلها القرآن الكريم، ومن هذا الجانب يعد القرآن الكريم من أثرى المواد التي تساعد الباحث بنصها وإشاراتها،

والقرآن الكريم من النصوص المقارنة للمواقف التخاطبية التي اشتملت عليها أشعار الهذليين في الجاهلية والإسلام التي هي محل الدراسة.

فإذا بَيَّن الباحث ما وَجَدَه مِن تَيْنِ الْمَرْقَبَتَيْنِ فقد قدَّم دلالة المحتوى القضوي للبنية اللغوية من حيث هو، لا من حيث استعماله في الموقف التخاطبي.

٣ـ الْمَرْقَبَةُ الثالثة: الْخَرْصُ بمقصدية القائل:

ثم يقوم الباحث بافتراض قصد بعينه للمتكلم من كلامه هذا، هذا القصد فَهِمَه المحللُ من توظيف المتكلم للبنية اللغوية التي استعملها على النحو الذي وردت به، وربما يكون ذلك ظاهرًا لا يحتاج لاستدلال كما في قول أهل النار: «يا مالك ليقض علينا ربك» فهو الاستعطاف، أو طلب الخلاص من العذاب لشدته، ولو بالفناء، وقد يكون القصد محتاجًا لتأمل وتوضيح كقصد اليهود في قول «راعنا» وقول سليمان «بل أنتم بهديتكم تفرحون».

٤ـ الْمَرْقَبَةُ الرابعة: تعيين الأوعية المعنوية التخاطبية المؤثرة في التأويل:

وهنا تظهر مهارات المحلل الانتقائية في استعراض الأوعية التاريخية والاجتماعية والنفسية والفكرية والسياسية وغير ذلك من أوعية بِسَبْرٍ تَامٍّ سَابغ، وتأمُّلِهَا تأملًا يسمح بانتقاء ما يرى الباحث أنه أثَّر في عملية التلقِّي، وشَكَّل معطًى من معطيات الفهم في الموقف التخاطبي، وهذا يقارب ما يسميه الأصوليون بالسبر والتقسيم، وهو عندهم مَسْلَك مهم من مسالك اكتشاف العِلَّة ضِمْن عملية القياس.

ويقوم الباحث بإبراز الجانب المؤثر في الوعاء المعنوي المنتَقَى، وربما يحتاج في ذلك بتوضيح بعض الخلفيات المعرفية الضرورية لعملية الفهم، وهذا الوعاء المعنوي المنتقى هو ما يسمى عند البلاغيين بالحال، ويكثر ذكره عندهم في موضعين، في ذكر أَضْرُب الخبر، وهي الابتدائي والإنكاري والطلبي، وهو حال المخاطب من

جهة خلوِّ ذهنه أو تردده أو إنكاره، والموضع الآخر حين يعرِّفون البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والعلم المختص بذلك عندهم هو علم المعاني.

٥ـ الْمَرْقَبَة الخامسة: اختبار مطابقة المحتوى القضوي لمقتضى الحال:

وبعد ذلك يختبر الباحث توظيف المتكلم للبنية اللغوية المستعملة وهيئةِ قولها في ضوء قصده ونيته ومدى مطابقة هذا المحتوى القضوي لحال المخاطبين والظرف المقامي الذي هم فيه، والجانب اللغوي الذي يستلزمه حال المخاطبين هذا هو ما يسميه البلاغيون العرب «مقتضى الحال» فمقام الحليم على الجَهَلَة مقتضاه اللغوي الاقتضاب والحذف كما في: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا» ومقام المستمتع مقتضاه اللغوي الإطناب كما في «هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ...» ومقام المماطل يقتضي لغويًّا الإطناب مع التكرار كما في قول بني إسرائيل: «ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟» ومقام الضعيف الداعي يقتضي لغويًّا النداء الاسترحامي الذي يذكر بأواصر الود ورابطة القومية كقول الجائي من أقصى المدينة: «يا قوم اتبعوا المرسلين» ومقام الطالب المتعفف يقتضي لغويًّا الإجمال كما في «اذكرني عند ربك» ... إلخ.

٦ـ الْمَرْقَبَة السادسة الأخيرة: قياس تحقيق الغرض الإنجازي في ضوء مقصدية القائل:

وبعد أن يقوم الباحث بتوصيل كل جزئية وجزء من مكونات البنية اللغوية وهيئتها بالأوعية المعنوية المنتقاه الظارفة للموقف التخاطبي نفسِه، يتبدى للعِيان مدى تحقق الغرض الإنجازي للمشاركة التي قدمها القائل حال تلفظه بقول مخصوص مصحوبًا بهيئة مخصوصة، سواء كان الذي تم تحقيقه مناسبًا لنية القائل أو منحرفًا عنها، وهذا موعد قياس هذا الانحراف، والوقوف على أسبابه من عدم المناسبة بين أي جزئية بعينها في فعل التلفظ وهيئته والمقام التخاطبي الذي يشتمل على الفعل التلفظي وهيئته.

وبعد بيان الباحث لمدى مطابقة توظيف المتكلم للبنية اللغوية المستعملة وهيئة

CamScanner

قولها لمقتضى الحال من أجل تحقيق غرض إنجازي معين مناسب لنية القائل وقصده، بعد ذلك تظهر ثمرتان لدراسة عنصر قوة التلفظ بالقول:

الأولى: معرفة القدرة البلاغية والكفاءة اللغوية للقائل في بيان ما في صدره ووجدانه.

الأخرى: مدى نجاح المتكلم في تحقيق الغرض المنشود من خلال مجموع تفاعله داخل الموقف التخاطبي.

٣ـ وأما العنصر الثالث ـ وهو أثر التلفظ بالقول ـ فهو العنصر الذي يُصَدِّق ما ذهبَ إليه الباحث في تحليله للعنصر السابق أو يُكَذِّبه، وهو في قوة الشرط الذي يجعل من الدراسة تداوليةً؛ لأن النتائج الحقيقية في الواقع هي التي أغرت المحلل التداولي من البداية للعناية بهذه المادة محل الدراسة.

وفي هذه المرحلة يرصد الباحث كل ردود الفعل، حتى لو كانت سلبية كانقطاع الْمُناظِر عن الرد، أو غضب مشتوم، أو انحطاط شأن مهجوٍّ اجتماعيًّا، أو المساحة التي شغلها الفعل الكلامي في نقل النقَلة وتلقي الجماهير في عصره والعصور التي تلته، والحيز الذي شغله من ثقافة لغة معينة، والخلفيات التي صار يستدعى فيها، فكل هذه النتائج هي التي تعطي للموقف التداولي قيمة تداولية أعلى؛ لأن البحث التداولي مَعنيٌّ بالأشيع والأشهر دومًا، والأفْعَلِ والأنْفَذِ في المتلقي دومًا.

وقد لا يتمكن الباحث في كل الأحوال من الوقوف على هذه النتائج بشكل مباشر، لكن يمكن توقُّعُها في بعض الحالات، والاستئناسُ بما يقوي هذا التوقع.

ولتحليل هذا العنصر ثمرتان:

الأولى عامة: وهي مراقبة المواقف التخاطبية والبنى اللغوية الأعظم أثرًا في الوعي الجمعي لأمَّةٍ ما تنطق بلغة واحدة، فيما يمثل معجمًا للتاريخ التداولي لخطابات

CamScanner

هذه الأمة مرتبًا على مبدإ الشيوع، وهذا يظهر كذلك تصنيفات متعددة لعناصر التأثير في وعي الأمة في كل مرحلة من مراحلها العمرية، كالدين والجغرافيا والوضع السياسي والتدخلات الأجنبية وغير ذلك.

والأخرى خاصة: وهي الإحاطة بالأثر النفسي والواقعي المتولد من استعمالٍ معيَّنٍ للغة، مما يدل على قوة هذا الاستعمال في تحقيق هذا الأثر في مقام تخاطبي أعمَّ، فيما يُمكِّن من نقل هذه الفائدة اللغوية وتدريب المتكلمين عليها إذا ما استهدفوا تحقيقَ أثرٍ معينٍ لدى الناطقين بهذه اللغة في سياقات تخاطبية مشابهة.

إِضَافَاتُ سِيرْل:

كان سِيرْل[1] قد اقترح أن تكون عناصرِ التحليل أربعة لا ثلاثة، عن طريق فكِّ العنصر الأول إلى عنصرين، هما:

١ـ **الفعل النُّطْقِي**: وفيه مستويات تحليل النظام اللغوي للبنية اللغوية من حيث هي، أي من حيث هي في النظام اللغوي، لا من حيث هي جزءٌ من عملية تخاطب، كالتحليل الصوتي والصرفي والتركيبي مثلًا.

٢ـ **والفعل القَضَوِي**: وهو الدلالة التي تفيدها الجملة في ذاتها، وهو ما يقابل عن مناطقة العرب النسبة الحكمية، أو النسبة الكلامية، أو ما يسميه النحاة العرب الإسناد، ويسميه الآن التداوليون العرب المحتوى القضوي، وهي الدلالة الثابتة الكلية للبنية اللغوية المتلفظ بها لا الدلالة المتحركة الجزئية داخل سياق معين.

وقد أضاف أيضًا سيرل شروطًا لفعل الكلام، رأى أن نجاحَ فعلِ الكلامِ موقوفٌ على تحققِ هذه الشروط فيه[2]، وهي:

---

(١) هو «John Rogers Searle» ولد ١٩٣٢، وفيلسوف أمريكي يدرّس في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة، ومنشغل بجوانب متعددة من اللغة والفلسفة والعلاقة بينهما.

(٢) محمود نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٧٥.

CamScanner

١ـشرط المحتوى القَضَوي: وهو أن يكون للبنية اللغوية المستعملة محتوى قضويًا، وهذا يقابل ـإلى حد كبير ـ ما سماه النحاة العرب شرط الفائدة التي يحسن السكوت عليها، وهو من شروطِ ما يسميه النحاة العرب كلامًا، بخلاف القول المفرد مثلا. وهذا الشرط يقتضي وجود إسناد متكون من مسند ومسند إليه، ويحلو للتداوليين أن يخترعوا ترجمات لكلام سيرل متجافين عن اصطلاحات النحاة للإشعار بجدة الطرح؛ فيسمون المسند إليه مرجعًا، والمسند خبرًا، متجاهلين ما لكلمة خبر من دلالة عرفية خاصة في النحو العربي، ووفقًا لتصور التداوليين فإن قولك: جاء زيد، يكون الفعل «جاء» خبرًا!

ومثال ذلك: أن الملفوظ «لا» فاقد لشرط المحتوى القضوي، إلا إذا كان في جواب سؤالٍ، نحوُ: أكسَرْتَ النافذة؟ لأنه ساعتها يحمل محذوفًا تقديره «لم أكسرها» وهذا محتوى قضوي يمكن دراسته. وتخريجًا على مذهب سِيرْل هذا، فإن هَيْنَمَات المترنمِ والكلمات التي يطلقها شديد الغضب ولا يربطها رابط نحوي لا يمكن لها أن تكون محلَّ دراسةٍ تداوليةٍ، وهو ما يخالف أصل النظرية، وهو باطل.

ولا يَرِدُ على الباحث أن سِيرْلَ لم يلتزم ذاك، وأنَّ لازمَ المذهب ليس بمذهب؛ إذ هو تخريج صحيح منهجيًّا، وما وضَعَ الرجلُ برنامجه التحليلي إلَّا ليُعمل به، ويُخرَّجَ عليه.

وقول سيرل بهذا الشرط له احتمالات: إما أنه لم يفهم أصل النظرية، وهو بعيد، أو فَهِمَهَا وأراد مخالفتها، وفيه بُعد، أو فهمها ووافقها واجتهد جُهْدَه فأخطأ، وهو الأَعْجَبُ إلى الباحث؛ لأنه الأقيس؛ حيث هذا التصور هو الأوفى لمفهوم النظرية والأشملُ لاجتهادات أوستن وسيرل فيها جميعًا لا معًا.

٢ـ الشرط التمهيدي: وهو كون المتكلم قادرًا على إنجاز الفعل الذي يَعِد به أو يهدد به، سواء كانت هذه القدرة مشهودًا له بها الآن، أو منتظرًا تحققُّها في المستقبل، وسواء كان الظرف المنتظِمُ للكلام يحتملُ وجود هذه القدرة أو لا يرشح ذلك.

CamScanner

ومثال ذلك: أن يهدد مديرٌ بخصم أجر يومٍ من موظفٍ يتهاون في أداء عمله. ويخرج من الفعل الكلامي المحقق لغرضه الإنجازي ما لو وعد عامل في محطة الوقود أنه سيزيد رواتب موظفي الحكومة هذه السنة، أو هدد صبيٌّ أمَّه بأنه لن يرضعها! وقد أشار إلى بعض ذلك أوستن.

٣ـ شرط الإخلاص: وهو أن يكون المتكلم صادقًا فيما يقول صدقًا فنيًّا، أي أنه يريد حقًّا من المتلقي أن يؤديَ ما أمره به، لا أنه يطلب شيئًا لهدف آخر غير أن يستجاب لطلبه هذا.

ومثال ذلك: أن يطلب المهندس من العمال نقل مواد البناء من مكان لآخر في خلال تشييد عمارة سكنية. وتخرج عن ذلك صورة طلبِ المتسوِّل في مصر من المارة أن يصلوا ويسلموا على سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه لا يريد ذلك بل يريد صدقة.

ومن الواضح أن هذا الشرط ليس صحيحًا، حيث يحقق الفعل الكلامي مهمته مع مخالفة هذا الشرط.

٤ـ شرط الأساس: وهو محاولةُ المتكلم حثَّ المتلقي على تأدية ما طلبه منه[١].

وبناء على هذه الشروط غَيَّر سيرل التصنيفات التي وضعها أوستن، وصارت عنده:

(الإخباريات، والتوجيهيات، والالتزاميات، والتعبيريات، والإعلانيات)[٢]

وتفصيلها على النحو التالي:

---

(١) وقد عَدَّهم سيرل اثنَيْ عَشَرَ شرطًا، راجع ذلك في كتابه الذي كانت طبعته الأولى ١٩٧٩، وهذه طبعته الثانية:

- John R Searle (1981) Expression and Meaning- Studies in the Theory of Speech Acts, Cambridge University Press, P:2-8.

(٢) فرانسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، ص٦٦-٧٦-٦٨.

CamScanner

تَصْنِيفَاتُ سِيرْل:

١ـ الإخباريات: وهي التي يكون غرضها الإنجازي هو وصف المتكلم لواقعة معينة، واتجاه المطابقة فيها يكون من الكلمات إلى العالم الخارجي، وشرط الإخلاص يتمثل في صدق المتكلم ونقله الأمين للواقعة، والأفعال الكلامية لهذا الصنف يمكن الحكم عليها بالصدق والكذب.

ملاحظة: ويظهر من ذلك احتواء النظرية عند سيرل لما كان انطلق أوستن من رفضه عند مدرسة الوضعية المنطقية، في حين رأى سيرل أن ما قدمه أوستن من شروط لأفعال الكلام فيه تداخل بين الأفعال الإخبارية والأفعال الأدائية، وأنه لم يضع فاصلًا للتمييز بينها «فقد تنطبق شروط الأفعال الأدائية على أفعال ليست أدائية»(١).

٢ـ التوجيهيات: وهي التي يكون غرضها الإنجازي هو توجيه المخاطب لأداء فعل معين، واتجاه المطابقة فيها يكون من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها يتحقق بالرغبة الصادقة من المتكلم في قيام المخاطب بتنفيذ المحتوى القضوي، ويندرج تحت هذا الصنف: الأمر والنصح والتشجيع والترجي والاستعطاف والدعاء.

٣ـ الالتزاميات: وهي التي يكون غرضها الإنجازي هو بيان المتكلم التزامه بأداء فعل ما في الزمن المستقبَل، واتجاه المطابقة فيها يكون من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص هنا هو الكيف الذي عليه نية المتكلم وقصده، ومن هذا الصنف: الوعود والتعهدات.

٤ـ التعبيريات: وهي التي يكون غرضها الإنجازي هو الإعراب عن الإحساسات النفسية، دون وجود عناية بأي درجة أو اتجاه للمطابقة في هذا الصنف بين العالم

---

(١) حمدي منصور: بين تداولية الأفعال الكلامية والحجاج مقاربة مفاهيمية، بحث في مخبر اللسانيات واللغة العربية، بجامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر، العدد١، ديسمبر ٢٠١٣، ص١٠١، ١٠٢.

والكلمات، وشرط الإخلاص فيه هو عدم الإخلال بتطابق المحتوى النفسي مع الكلمات للحصول على مصلحة معينة كمزيد تعاطف أو نفع مادي، ومما يندرج في هذا الصنف المواساة والتهنئة.

٥- **الإعلانيات**: وهي التي يكون غرضها الإنجازي تحقيق وجود أحداث في العالم الخارجي على وفق قصد المتكلم، ويكون شرط نجاح هذه الإعلانيات أن يتطابق الحدث المنجز مع المحتوى القضوي المتكلم به، وبهذا يكون اتجاه المطابقة من الكلمات إلى العالم الخارجي، وأما شرط الإخلاص فلا يحتاجه هذا الصنف، ومن أمثلته تسمية شارع جديد باسم معين، وإعلان حرب، أو إعلان تعيين شخص معين في درجة وزير مثلًا.

ملاحظة: قد نص أوستن على أن مثل هذا لا قيمة فيه لثنائية الصدق والكذب، وعليه فإن الباحث يرى أن عدم اشتراط الإخلاص فيه تحصيل حاصل.

التَّعْلِيقُ عَلَى إِضَافَاتِ سِيرْل:

قد تكون إضافات سيرل سارت بالنظرية قُدُمًا في آفاق أرحب من التنظير والتصور الفلسفي واللغوي، كما أكدت على أركان رئيسة في النظرية كالعناية بمقصدية القائل، والتفرقة بين الأفعال الإنجازية المباشرة «التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم»(١) والأفعال الإنجازية غير المباشرة «التي تخالف قوتها الإنجازية مراد المتكلم فالفعل الإنجازي يؤدَّى على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازي آخر»(٢).

لكن كثيرًا من الشروط التي وضعها سيرل كانت تحصيل حاصل، ولا يمكن علميًّا اعتبارها إضافة للنظرية، كما أنه كان يعبر عن فهم خاص جدًّا لأفعال الكلام، لا

---

(١) محمود نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٨٠.

(٢) محمود نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٨١.

CamScanner

بالرحابة التي نجدها عن أوستن؛ حيث ظهر من شروط فعل الكلام أنه أقرب إلى صورة الأمر منه إلى أي نوع آخر مما ضمه عند أوستن، ولربما لو كان سيرل أسبق من أوستن لكان أوستن تَقَدَّمه علميًا، لكن التاريخ بضد ذلك؛ فقد تقدمه أوستن في التاريخ والعلم معًا جيمعًا.

ولعل السبب في ذلك أن سِيرْلَ فيلسوف لغة في الأساس، وهو مشغول بالكثير من الملفات الاجتماعية والفكرية والسياسية كما توضح سيرته ومؤلفاته، وتواصله مع التداولية كان من أجل أغراض فلسفية بالأساس لا تحليلية جزئية، ولعل هذه المرحلة من عُمُر النظرية كانت أحوجَ إلى لغوي متضلع من عمق اللغة الإنجليزية ابتداءً يُطِلُّ على الفلسفة وعلى أي تخصص آخر لا العكس، ولعل هذا ما جعل مؤرخي النظرية يعتبرونه امتدادًا لأوستن في أفعال الكلام فقط، أوستن الذي مات قبل نصف قرن تقريبًا، وسيرل الذي ما زال على قيد الحياة حتى الآن ٢٠١٧، وهما طبقتان مختلفتان، في حين مَثَّلتْ البريطانيةُ وِلْسُن مع الفرنسي سبَرْبَر موجةً مستقلة وكلاهما يعيش إلى الآن أيضًا!

ومع هذا أمكنت الإفادة من بعض إلماعاته في نظرية أفعال الكلام في تصميم البرنامج التحليلي الإجرائي في هذه الدراسة، كما هو مُبَيَّن سابقًا.

CamScanner

الْفَصْلُ السَّادِسُ
نَظَرِيَّةُ الِاسْتِلْزَامِ الْحِوَارِيِّ

في إطار البحث عن برامج تحليلية تعين الباحث على رصد كل خطوة من خطوات تشكل الدلالة التداولية، ومعرفة الكيفية التي جعلت من مشاركة القائل في الموقف التخاطبي محققة لأثر منجَز في الواقع جاءت نظرية الفيلسوف بُول جرَايِس[١] المعروفة باسم «الاستلزام الحواري».

وتعد هذه النظرية هي الثانية، وهي التالية لنظرية أفعال الكلام في إطار الدرس التداولي النظري القائم على دراسة الأثر الواقعي للفكرة العقلية، وقد نشأت كأختها الكبرى من بين تضاعيف المدرسة المنطقية في محاولة للخروج عليها إلى حيز ألصق بالواقع[٢]، كما هو شأن الاتجاه العلمي الذي أرادته الفلسفة التي أنجبت التداولية اللغوية.

رأى جرايسُ أن الدلالة المفهومة من استعمال اللغات الإنسانية ليست من قبيل دلالة الدُّخَان على النار أو البُثُور على مرض الحصبة، أي: الدلالة الطبعية، بل إن الدلالة

---

(١) هو «Herbert Paul Grice» عاش من ١٩١٣ إلى ١٩٨٨، فيلسوف لغوي بريطاني قضى العقدين الأخيرين من حياته في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث حاز أستاذيته ودرَّس في جامعة كاليفورنيا.

(٢) انظر في ذلك:

- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٦، ط١، ص٤٦، وما بعدها.

CamScanner

المستنتجة من البنية اللغوية المصرح بها تكون غالبًا مختلفة عن الدلالة الوضعية لهذه البينة اللغوية المصرح بها، ومن هنا كانت مشروعية سعيه في إيجاد نظرية تقدم برنامجا تحليليًّا يهتدي إلى حساب الفرق بين ما حصل التصريح به من جهة وما هو مقصودُ القائل أو مفهومٌ لدى المتلقي من الجهة الأخرى في الموقف التخاطبي(1)، أو باختصار مخلٍّ: الفرق بين ما يُقال وما يُقصد، أو بعبارة أخرى: البحث عن القَدْر المفهوم من المسكوت عنه.

إِذَنْ مَا الِاسْتِلْزَامُ الْحِوَارِيُّ؟

بناء على ما سلف يكون من المعلوم أن البنية اللغوية المنصوص عليها في الموقف التخاطبي يمكنها الدلالة على معنيين، أولهما: هو معناها الوضعي الذي تحدده لها المنظومة المعجمية والصوتية والصرفية والنحوية بصرف النظر عن أيِّ عوامل غير لغوية أحاطت باستعمالها، وسنطلق عليه **المعنى الوضعي** للبنية اللغوية المنصوص عليها. ومثاله: المفهوم من قولك لمن أرشدك في الطريق: أشكرك.

وهذه البنية اللغوية المنصوص عليها التي يقتصر معناها على المعنى الوضعي يسميها بعض الباحثين التداوليين بنية ذات حُمُولة دلالية صريحة.

والمعنى الآخر: هو ما يفهمه المتلقي من مجموعها مع العناصر المقامية الموجهة لدلالتها، وسنطلق عليه **المعنى المستنتَج** للبنية اللغوية المنصوص عليها، ومثاله المفهوم من قولك لأخيك الأصغر: إني عطشان. وهذا المفهوم هنا هو: اسقني ماءً. وينبغي أن

---

(1) من الجدير بالذكر أن جرايس حاضر في نظريته في جامعة هارفرد (١٩٦٧) قبل أن ينشرها (١٩٧٥) تحت عنوان: المنطق والحوار «Logic and Conversation» في فصل من ١٨ صفحة، شاملة الجانب النظري وما ضربه من أمثلة توضيحية، وأتبع ذلك بفصل من ١٧ صفحة بعنوان: ملاحظات تتعلق بالمنطق والمحادثة «Further Notes on Logic and Conversation» وتجد ذلك في كتابه:

- Paul Grice (1991) Studies in the Ways of Words, Harvard University Press, P:22-57.

CamScanner

يكون هذا المعنى في التخاطب اللغوي الناجح هو نفسه ما قصده القائل، أي أنَّ تطابق المعنى المقصود مع المعنى المستنتج هو نجاح التخاطب، أو البلاغ الأمثل.

وهذه البنية التي اختلف معناها المستنتج في مقامٍ ما عن معناها الوضعي يسميها بعض الباحثين التداوليين: بينة ذات حمولة دلالية ضمنية.

وهذا المعنى المستنتَج لا يخلو من أحد نوعين: الأول: معنى مستنتج لم يدخل في صرفه عن المعنى الوضعي عناصر غير لغوية. كالمفهوم من قولك: محمدٌ أسد. ويمكن أن نطلق عليه **الاستلزام العرفي**، أي استلزام قولك «محمد أسد» لمعنى «محمد شجاع» لما جرى به العرف اللغوي من تجاوز المعنى الوضعي إلى غيره لعلاقة بين الشجاعة والأسد، بقرينة صارفة عنه في العرف اللغوي، وهذا العرف اللغوي عامٌّ اصطلح عليه المستعملون لهذه اللغة، أو خاص اصطلح عليه بين فئة معينة من مستعملي اللغة كالنحاة أو المحدِّثين أو صانعي الزجاج، وليست هذه القرينة الصارفة خاصة بالمقام التخاطبي المعين الذي جرى فيه الحوار أو قيل فيه المقول المنصوص عليه، بدليل دوران هذا الاستلزام العرفي جزئيًّا مع هذه الجملة مهما كان المقام الذي جاءت فيه.

والنوع الثاني للمعنى المستنتج للبنية اللغوية المنصوص عليها هو: معنى مستنتج صَرَفه عن المعنى الوضعي قرينة سياقية غير لغوية تخص السياق الذي استعمل فيه الكلام بعينه. وهذا هو ما يطلق عليه التداوليون - ابتداء من جرايس - **الاستلزام الحواري** «Conversational Implicature»[(١)].

وعلى ذلك يكون الاستلزام الحواري هو: المعنى المستنتَج لدى المتلقي بشرط أن يكون قد تدخلت فيه عوامل غير لغوية من جهة المقام بوصفها قرينة غيرت دلالة البنية اللغوية المنصوص عليها في الموقف التخاطبي عن دلالتها الوضعية.

---

(١) Paul Grice (1991) Studies in the Ways of Words, P:24.

CS CamScanner

مَكَانُ النَّظَرِيَّةِ مِنَ الدَّرْسِ الْمَنْطِقِيِّ وَالبَلَاغِيِّ عِنْدَ الْعَرَبِ:

للوقوف على فهم دقيق لكلام جرايس ونظريته يجب أوَّلًا استعراض البناء النظري العربي المتناول للموضوع محلِّ الدراسة لمعرفة مكانِ النظرية منه؛ تجنبًا للخطإ في ترجمة الاصطلاحات العلمية بما لا يقابلها، كما هو شأن أكثر المترجمين في هذا الميدان، وتفريقًا بين ما تشابه من الطرحين وَفقًا لجهة البحث في كل منهما.

وعلى ذلك فإن من المعلوم من المنطق العربي بالضرورة أن للمناطقة نظرًا في مباحث الدلالات، ومن المتقرر عند المناطقة العرب أن الدلالة عندهم: «كون الشيء بحالةٍ يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال والثاني هو المدلول»[١] والدلالة: إما عقلية وإما طبعية وإما وضعية، فالعقلية كدلالة الأثر على المؤثر، سواء كانت لفظية كدلالة اللفظ المسموع من وراء الجدار على وجود اللافظ، أو لم تكن لفظية كدلالة الإناء المكسور على وجود الكاسر، وهذه الدلالة لا يتعرض لها التداوليون لاختلاف غرضهم من البحث، ولعلاقة الحكم العقلي في المنطق باستعمالات ميتافيزيقية في باب الألوهيات في الفلسفة القديمة وعلم الكلام الإسلامي، مما يميل عنه التداولي منهجيًّا.

والدلالة الثانية هي الدلالة الطبعية، وهي إما لفظية كدلالة لفظ «أُح» الصادر من الإنسان عند السُّعال على الوجع[٢]، وإما غير لفظية «كدلالة الحمرة على الخجل والصفرة على الوجل»[٣].

والدلالة الثالثة الأخيرة هي الوضعية، وهي إما لفظية، وتعريفها: «كون اللفظ بحيث إذا أطلق فهم منه معناه للعلم بوضعه»[٤] ومثالها دلالة لفظ «إنسان» على

---

(١) شروح الشمسية، ج١، ص١٧٤، من كلام السيد الشريف الجرجاني.

(٢) شروح الشمسية، ج١، ص١٧٥، من كلام السيد الشريف الجرجاني.

(٣) شروح الشمسية، ج١، ص١٧٥، راجع كلام السيالكوتي.

(٤) شروح الشمسية، ج١، ص١٧٦-١٧٨، من كلام السيد الشريف الجرجاني.

CamScanner

الحيوان الناطق، وإما أن تكون الدلالة الوضعية غير لفظية كدلالة اللون الأحمر في إشارة المرور على منع سير السيارات في الطريق ووجوب وقوفها[1].

والدلالة الوضعية اللفظية هي محل عناية المناطقة دون غيرها، وهي على ثلاثة أقسام عندهم: دلالة مُطَابَقِيَّة، ودلالة تَضَمُّنِيَّة، ودلالة التِزَامية.

وفي نظرية الاستلزام الحواري تَقَابُلٌ بين الدلالة الطبعية والدلالة اللفظية من حيث إن الدلالة اللفظية غالبًا ليست هي المباشرة أي: الوضعية[2]، بخلاف الطبعية فهي مباشرة أي لا تحتاج إلى تأويل، ومن هنا بَنَى جرايس نظريته[3].

أما البلاغيون العرب فنصوا على أن الحقيقة هي: «الكلمة المستعلمة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب»[4] والوضع الذي ذكر في تعريف الحقيقة هو: «تعيين اللفظ للدلالة على معنى بنفسه أي ليدل بنفسه لا بقرينة تنضم إليه»[5] بينما المجاز المفرد هو: «الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب على وجه يصح مع قرينةِ عدم إرادته فلا بد من العلاقة»[6] وأن كلاً من الحقيقة والمجاز ينقسم إلى لغوي وشرعي وعرفي عامٍّ وعرفي خاصٍّ[7].

---

(١) شروح الشمسية، ج١، ص١٥٧، تخريجا من الباحث على كلام الإمام الرازي.

(٢) ومتى أُطلِقَ الوضعُ قُصدَ الوضعُ بالتحقيق كدلالة الإنسان على الحيوان الناطق، لا الوضعُ بالتأويل كدلالة الاستعارة كما في قولك: قابلت أسدًا، راجع كلام السعد والدسوقي عليه في: شروح التلخيص، ج٤، ص٨.

(٣) عبد الرحمن تبرماسين، دلال وشن: الاستلزامات الحوارية للأساليب الخبرية في رواية الدراويش يعودون إلى المنفى لإبراهيم الدرغوثي، بحث منشور على الإنترنت: www.alsdaqa.com

(٤) شروح التلخيص، ج٤، ص٥، من كلام القزويني.

(٥) شروح التلخيص، ج٤، ص٩، من كلام السعد.

(٦) شروح التلخيص، ج٤، ص٢٢-٢٥، من كلام القزويني.

(٧) راجع في شرح ذلك وأمثلته: شروح التلخيص، ج٤، ص٢٧-٢٩، كلام القزويني والسعد وابن يعقوب المغربي.

CamScanner

والحق أن التنظير الأجنبي لم يبلغ شيئًا من الدقة التي استقر عليها مذهب المتأخرين من المناطقة العرب والبلاغيين العرب، والحق أيضًا ـ حسَب استقراء الباحث ـ أن هذه البنية العربية النظرية المحكمة للدلالة في المنطق والبلاغة عند المتأخرين لم تشتمل على مقابل علمي للاستلزام الحواري بوصفه أخصَّ من المجاز العرفي الخاص؛ وهذا الاستلزام: كليٌّ مَقُولٌ على كثيرين مختلفين بالعدد؛ لأنه يغير معنى الجملة الواحدة من موقف تخاطبي لآخر بحسَب العناصر غيرِ اللغوية الموجودة في كل موقف من تلك المواقف التخاطبية.

الِاسْتِلْزَامُ الْحِوَارِيُّ بِوَصْفِهِ مُرَكَّبًا وَصْفِيًّا:

للوقوف على صلاحية المصطلح العربي لما يدل عليه في النظرية الغربية لا بد من تحليل كلماته العربية كلٌّ على حِدَةٍ، ثم معرفة المعنى اللغوي الوضعي الحقيقي للمركب الوصفي، ثم معرفة مناسبة ذلك للمعنى الاصطلاحي المخصوص الذي في النظرية، وهذا كما يلي:

١ـ الْفَرْقُ بَيْنَ عَلَاقَةِ اللُّزُومِ وَالِاسْتِلْزَامِ وَالتَّلَازُمِ:

علاقة اللزوم اللغوي هي العلاقة التي تكون بين شيئين، أولهما: يسمى الملزوم، وهو المذكور في البينة اللغوية المنصوص عليها، وثانيهما: يسمى اللازم، وهو الحاضر في الذهن عند ذكر الملزوم، واللازم خارج عن ماهية الملزوم، وليس جزءًا منه، وعند النظر من جهة اللازم نقول: اللازم يلزَم الملزومَ.

وعند الانطلاق من جهة الملزوم فإننا نقول: الملزوم يستلزم اللازم، ومن هنا جاء الاستلزام، الذي يعني أن الملزوم يلزم منه اللازم، فعلاقة اللزوم لها اتجاه واحد من اللازم إلى الملزوم، وعلاقة الاستلزام له اتجاه واحد من الملزوم (الذي هو مستلزِم) إلى اللازم (الذي هو مستلزَم).

CamScanner

وكل ذلك أحادي الاتجاه، بقطع النظر عن صدق العكس أو كذبه، بحيث لو كان كلٌّ من اللازم والملزوم يلزم الآخر، فالعلاقة مركبة من علاقتي لزوم، أو علاقتي استلزام، وهي ما يسمى التلازم، وهذا غير وارد في النظرية التداولية؛ لعدم الحاجة إليه، وإن كان مرعيًّا في المنطق العربي وفي أصول الفقه وفي الدرس اللغوي العربي، فوجب التنبيه على ذلك.

٢ـ أَنْوَاعُ الِاسْتِلْزَامِ:

يمكن تقسيم الاستلزام المنطقي ومن ثم الاستلزام اللغوي إلى نوعين، على هَدْيٍ من صنيع المناطقة باللزوم مع حذف التقسيم إلى عقلي وخارجي؛ لعدم عناية التداولي به، وإن شئت قلتَ: لعدم إيمان التداوليين بأن هذا التقسيمَ مفيدٌ سواءٌ كان صحيحًا في ذاته أو لا، والتقسيم أداة علمية يُرجى منها الانتفاع بالتفرقة بين الأقسام، وعلى ذلك تكون أنواع الاستلزام:

الأول: الاستلزام البيِّن بالمعنى الأخص، وهو الذي إذا ذُكر فيه المستلزِم حضر معه المستلزَم في ذهن المتلقي مباشرة.

والثاني: الاستلزام البيِّن بالمعنى الأعم، وهو الذي إذا ذُكر فيه المستلزِم لم يحضر معه المستلزَم في ذهن المتلقي إلا بتنبيه عليه.

والثالث الأخير: الاستلزام غير البيِّن، هو الذي إذا ذُكر فيه المستلزِم لم يحضر معه المستلزَم في ذهن المتلقي ولا مع التنبيه عليه إلا مع إقامة الدليل على الاستلزام.

والدرْس التداولي كالدرس الأصولي عند المسلمين شامل لكل الأقسام بخلاف الدرس المنطقي المقصور على الأول بقيد كونه عقليًّا، ولذا يكون الدرس التداولي في النوع الأول أقرب إلى اللغة اليومية في قضاء الحاجات، وفي النوع الأخير أقرب إلى عمل الناقد في النص الأدبي، وأحيانًا المشتغلين بالقانون مع النصوص القانونية.

CamScanner

٣ـ الْوَصْفُ بِالْحِوَارِيِّ:

وصف الاستلزام بأنه حواري يعود إلى أن أغلب الحالات التي يفترق فيها المعنى المستنتَج عن المعنى الوضعي يكون في حوار؛ ولأن التداولية أقرب إلى الفعل الكلامي الذي يحقق أثرًا دون غيرِه، فهي أقرب إلى الحوار منها إلى السرد والحكاية، والاستلزام الحواري ـ وإن غلب على تسميته ذلك ـ لكنه يمكن أن يتأتى في غير الحوار من أنواع الممارسات اللغوية المتعددة كالوصف.

الْمَبَادِئُ التَّعَاوُنِيَّةُ:

رأى جرايس أننا لكي نحسب مدى اختلاف المعنى المستنتج أو المعنى المقصود عن المعنى الوضعي لا بد من افتراض صورة للتخاطب، تقوم على التعاون الكامل من كل الأطراف، بحيث تكون هذه الصورة هي تطابق المعنى المستنتج مع المعنى المقصود مع المعنى الوضعي، وبهذا سيمكِنُنا تحديدُ المعنى الوضعي في المقام الذي ورد فيه[١]، ثم يكون كل انحراف عن ذلك خرقًا للعَقْد الضمني التعاوني بين المتخاطبين، أو نقصًا من كمال التعاون المنشود، وهذا الخرق يولد هامشًا زائدًا في المعنى المستنتج، وفي هذا الهامش نجد الاستلزام الحواري.

وهذه الصورة الافتراضية للتخاطب تحكمها قواعد أربعة أسماها المبادئ التعاونية، وهي[٢]:

---

(١) انظر: العياشي أدراوي: الاستلزام الحواري في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، دار الأمان بالرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة ٢٠١١، ط١، ص٩٧-١٠٠.

(٢) See:

- Paul Grice (1991) Studies in the Ways of Words, P:28.
- Stephen C. Levinson (1983) Pragmatics, p:101-102.
- George Yule (1996) Pragmatics, P:37.

١ـ الكم «Quantity»: وقاعدته أنه يجب التزام المشارك في التخاطب لحد المساواة دون الإيجاز أو الإطناب.

٢ـ الكيف «Quality»: وقاعدته أنه يجب التزام المشارك في التخاطب بالصدق؛ فلا يشارك بما يعلم كذبه، أو بما لا دليل له عليه(١).

٣ـ الملاءمة «Relation»: وقاعدتها أنه يجب التزام المشارك بتقديم معلوماتٍ مفيدةٍ صريحةٍ ذاتِ صلةٍ مباشرةٍ بالمراد، ولا مكان فيها للمخاتلة أو المواربة، وكأنه يقصد ما حذر منه البلاغيون العرب من التعقيد اللفظي والتعقيد المعنوي.

٤ـ الطريقة «Manner»: وقاعدته أنه يجب أن تكون المشاركة في التخاطب واضحةً موجزةً بعيدةً عن اللبس والغموض مرتبةً مثلَ الترتيب المنطقي أو الزمني عند سرد حادثة معينة.

وَمِنْ خَصَائِصِ الِاسْتِلْزَامِ الْحِوَارِيِّ أَنَّهُ:

١ـ يمكن إلغاؤه، وهذا يقابل ما يقوله البلاغيون العرب من أن المجاز يجوز نفيه، ومثاله: فالمعنى الضمني ثانوي بالنسبة للمعنى الصريح لذلك يمكن الاستغناء

---

(١) قَدَّمَ محمد محمد يونس علي نقدًا لنظرية جرايس قائلا: «إذا انتهك متكلم ضابطَ الكيف عند جرايس ... بالكذب على المخاطب، فسيسبب على الأرجح مشكلة في التخاطب، أما إذا انتهك أصل الحقيقة باستخدام المجاز فسيؤول ذلك إلى توليد مفهوم تخاطبي implicature» وهو نقد قوي، لكن الراجح لدى الباحث أن نظرية الاستلزام الحواري وضعت للتطبيق على التخاطب الناجح، أو البلاغ الأمثل، نعم المجاز يجوز نفيه، لكن هذا النفي من وجه دون وجه، لا من كل وجه، وبهذا يندفع ما أورده على جرايس، انظر:

ـ محمد محمد يونس علي: علم التخاطب الإسلامي، ص٩٦.

وينبغي ملاحظة أن كلمة «الكيف» هنا يقصد بها الصدق والتثبت، لا الطريقة أو الحال التي قيل بها الكلام، فمعناها المنطقي في ضمن المقولات العشرة أقرب إليها من معناها النحوي في تفسير ما انبهم من الهيئات.

CamScanner

عنه، وذلك بإضافة قول من جهة المتكلم يُنكر ما يُستلزم من كلامه؛ فإذا قلتَ في حفل زفاف أخيك: (لم أتذوق كل أنواع الحلوى المعروضة) فهذا يستلزم أنك تذوقت بعضها، لكن إذا أضفت قائلا: (الحقيقة أني لم أتذوق أي واحدة منها) تكون قد ألغيت الاستلزام، وهذا يشابه ما استقر عليه جمهور الأصوليين والمتكلمين في الإسلام من أن لازم المذهب ليس بمذهب ما لم يلتزمه صاحبه.

٢ـ يمكن تقديره؛ لأنه مجاز له علاقة وقرينة، وليس خروجًا على عادة الناس في التخاطب أي التكلم والحمل، وإن كان خروجًا على الوضع الحقيقي كما مَرَّ، فالخطاب عند التداوليين ليس عبثًا لغويًّا، لكن الخطاب عندهم يحصل على معناه في نظام أكبر من النظام اللغوي.

٣ـ أنه متغير بحسَب السياق؛ بحيث تدل الجملة الواحدة على معاني مختلفة في كل مقام، كقول السلام عليكم غاضبًا مُزْوَرًّا، أو بَاشًّا متهلِّلًا، لحبيبتك أو لأستاذك أو لصديقك.

٤ـ أنه متصل بالدلالة النحوية التركيبية؛ فهو في النهاية انحراف عنها لا استئناف لأوضاع لغوية جديدة في كل موقف تخاطبي، وهذا يمثل امتدادًا منهجيا لما عليه مذهب الجمهور في الأصول من أن الحقائق الشرعية مجازات لغوية، وليست موضوعة وضعًا مستأنفًا خلافًا للمعتزلة(١)، ولما شاع عندهم من قولهم: والوضع قبلهما.

٥ـ الاستلزام قضية معنوية لا لفظية؛ فالاستلزام الحواري نفسه يمكن أن تفيده جملتين على البَدَل، أي: لا معًا، في تخاطب واحد، وهذا ينضوي في القاعدة العربية الأصولية: العبرة بالحقائق والمعاني لا بالألفاظ والمباني(٢).

---

(١) انظر بسط الخلاف في:

ـ الإسنوي: نهاية السُّول، ج٢، ص١٥٠.

(٢) راجع في ذلك: هاجر مدقن: المقاربة التداولية المصطلح والمنهج، بحث بالملتقى الدولي الأول في المصطلح النقدي، بجامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر ٢٠٠٩، ص٣٧٦.

CamScanner

الْفَصْلُ السَّابِعُ
التَّدَاوُلِيَّةُ وَأَدَبِيَّةُ الْخِطَابِ

مما لا تخطِئُه عينانِ أن خطابات اللغة اليومية كانت الْمَعِينَ الأولَ الذي اعتمدت عليه الدراسات التداولية الأولى، وبخاصة حينما كان علماؤها ـ لا سيما الْجُونَانِ أوستنُ وسيرلُ ـ يبحثون لها عن مشروعية في الوسط العلمي، ويقدمونها بوصفها الطرحَ النظريَّ الذي يسد الفراغ الذي لم يتعرض له الدرس اللغوي ولا الدرس المنطقي، ولا الدرس النفسي كلٌّ على حدةٍ.

ولهذا الأمر عدة أسباب، منها أن الناس تستخدم هذه اللغة اليومية وتشعر بالاحتياج إليها دومًا بلا أي منازعة منهم في خطورتها، بخلاف اللغة العالية كالأدب والنصوص المقدسة، فكمُّ العناية به أقل في كل الأمم، فليس كل المسلمين يقرؤون القرآن في كل يوم، وليس كل النصارى يسمعون الإنجيل في كل أسبوع، ولا كل الناس تزور المسرح أو تنشد الشعر في كل يوم، فالكم المستغرق من الزمان والجهد العقلي والانفعال العاطفي مع تلك النصوص أقل على الدوام من اللغة اليومية.

ودعوى التداوليين تنطلق من توجيه الجهود العلمية في اللغة والمنطق وعلم النفس... وغير ذلك من العلوم إلى العناية النظرية بكل ما هو عملي؛ ليكونوا أقرب إلى العصر الذي نعيشه لا عصور اليونانيين القدامى مثلًا؛ ولِيكون الجهدُ العلمي مثمرًا كفعل الكلام، ثمرة ملموسة في الواقع، وأقربُ طريق لهذا الهدف هي أن تكون الْمُدَوَّنة الخِطابية التي يقوم عليها التحليل من كلام الناس في الشارع والسوق والبيت والنادي

ومواقع التواصل الاجتماعي... إلخ، ولا يخفى ما لهذا الطرح من الوجاهة.

ومن الأسباب أيضًا التي جعلت التداوليين يمتاحون من اللغة اليومية دون الأدبية أن بحوثهم ستتسم بالجِدة بخلاف البحوث الكلاسيكية في التحليل والنقد؛ ذلك أن الإطار النظري للبحث العملي يوجه تفكير الباحث إلى مَظَانَّ بحثية يتوقع أن يجد فيها بِغيته، والنصوص الأدبية بعمومٍ توفِّرُ للباحث مادةً ثرية من التشبيهات والتخييلات، فضلا عن أن حسنها الفني يستبد به كما يستبد بغيره، فيرى الباحث فيها فخره العلمي، حينما يكون كاشفًا للناس عن أسرار الجمال فيها، معرِّفًا للمتلقين المعجبين على جوانب الإعجاب المتعددة التي تتشابك في نفوسهم؛ فتهتز لها قدودهم!

وفخرٌ آخر لا ينساه الباحث العلمي يتيه به في الشعراء والأدباء وهو أنه قد دَرَسَ في تاريخه البحثي المجيد في إحدى رسائله العلمية أو بحوثه للترقية أو مقالاته المحكَّمة المنشورة خطاباتٍ عاليةً لأسماء كبيرة من أمثلة إليوت وشكسبير ودكنز أو نجيب محفوظ والمتنبي وامرئ القيس، خاصة حينما يتوافق ذلك مع توجيهٍ حكومي لجموع المثقفين في بلد ما بأن اعتَنُوا وادرُسُوا واكتُبُوا عن المفكر الفلاني أو الأديب الفلاني، فيما يمكن أن نطلق عليه السياسات الأدبية للدولة قياسًا على السياسات المالية لها؛ لأن هذا الأديب يمثل توجُّهًا حميدًا عند السُّلْطة السياسية الحالية، ونحو ذلك من التجليات كاختيار شخصية مفكر أو أديب للتكريم أو لمنحه جائزة تقديرية أو لإطلاق اسمه على معرِض للكتاب أو غير ذلك(١).

ومن أسباب إكباب التداوليين على اللغة اليومية أن الاحتياج المعرفي الذي يفرضه الظَّرْف المعاصر يدفع إلى إرساءِ قواعدَ علميةٍ لتحليل الخطاب السياسي والإعلامي

---

(١) اقرأ في تفصيل ذلك كتابًا أصله رسالة دكتوراه:

ـ مقبل بن علي الدعدي: أثر السياسة في اللغة ـ العربية نموذجًا، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت ٢٠١٦، ط١، لا سيما ص٢٥٥ إلى ص٢٩٦.

CamScanner

أيِّ قواعدَ علميةٍ، من أي حقل علمي، كل المطلوب أن يجد جموع المحللين في المراكز البحثية التي تخدم فئات مختلفة في البلاد نموذجًا أو أكثر تحليليًّا له سمات علمية يَروزُونَ به الخطاب الإعلامي والسياسي، وهما خطابان غير جاذبَيْن للمحلل الكلاسيكي غالبًا أيًا كان تخصصه؛ لأنه ـ كما سبق القول ـ مغرم بخطابات اللغة العالية والأدب العالي، لا ما هو نازل أو شعبي، ومعيار الشيوع عنده ليس من معيار العناية الأول؛ لأن الشيوع ليس متناسبًا مع الجودة الفنية تناسبًا طرديًّا بالضرورة.

وزاد الأمر إيغالا أن التلقي العربي للدرس التداولي جعل من التداولية موضوعًا للدراسة في قسم علم اللغة[1] وليس في أقسام النقد الأدبي والبلاغة، مما أوهم كثيرين أن التداولية مسألة في النحو أو طريقة معاصرة لدارسة النحو والصرف أو فقه اللغة مثلا[2]، ومن التعميمات التي شاعت أيضًا أن التداولية منهج بحثي صمم من أجل اللغة الشعبية والأداء اللغوي النازل، لا سيما اللغة اليومية، وفي هذه الفكرة الكفاية لصرف النقاد ودارسي الأدب عن أن يهتموا بالمجال إلا في فضول أوقاتهم لا بوصفه من صميم عملهم، اللهم إلا في استعراض التطور المعاصر لمناهج الدراسات اللغوية وأثرها على النقد الأدبي في المرحلة التمهيدية الماجستير مثلًا.

ولا يعدِمُ الباحثُ التداولي في الأدب قائلا يقول: «ما جدوى دراسة الشعر انطلاقا

---

(١) ويُطلَق عليه في أقسام اللغة العربية بكليات الآداب غالبا قسم اللغويات، وهو قسيم للنقد والبلاغة والأدب.

(٢) اقرأ في أمثلة ذلك إن شئت:

ـ أحمد المتوكل: الوظائف التداولية في اللغة العربية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، المغرب ١٩٨٥، ط١. على أنه مع ذلك عن أكثر المشتغلين بالنحو طرحٌ مستغلق محشوٌّ بالمصطلحات التي لم يعهدها الدرس النحوي، وأكبر نفعه للمشتغلين بما يسمى «النحو الوظيفي» وفي هذا الاتجاه ما فيه من عزل الفروع النحوية عن أصولها النحوية وجذورها الفلسفية، كأن النحو علم شكلي صوري وظيفي مُسَطَّح لا عمق له ولا فلسفة فيه.

من منهج نشأ ـ من الناحية الفلسفية ـ لدراسة الخطاب اليومي واللغة العادية؟»[1]

لهذه الأسباب ولغيرها معها الْتَفَتَ التداوليُّ الأول عن المساحة الأدبية إلى مساحة اللغة اليومية، وعلى هذا جاءت كلُّ أمثلة أوستن في كتابه، وأكثر أمثلة جرايس، وسبربر وولسن، حتى يكاد يشك القارئ في جدوى استعمال الطرح النظري التداولي في تحليل خطابات من اللغة العالية أو من الرقي الأدبي بمكان.

والسؤال الذي يقودنا إليه التَّبَحَاث: أللغة اليومية هي المادة الوحيدة التي تقبل إعمال الآلة التداولية؟ أو بصياغة أدق: هل الأصول المنهجية للبحث التداولي تشترط أن تطبق على ما هو هابط ويومي ومبتذل أدبيًا أم تقبل التطبيق على خطاب عالي اللغة ولو بنسبة واحد بالمائة؟

والإجابة: أننا لا نجد فيما وصل إلينا منعًا تداوليًا منهجيًا من التطبيق على خطابات شعرية أو أدبية عالية، وهذا يعني أن التداولية يمكنها تحليل الشعر، لكن لا بد أن ندرك منهجيًا أنها لن تقدم قراءة فنية موازية للتخييلات والصور الأدبية، لكنها ستضيء جانبًا آخر في الخطاب الأدبي، هو الجانب العملي المؤثِّر فيه، والجانب المتصل بالأبعاد غير اللغوية فيه، وهنا تعمل على الخطاب الأدبي لكن بلا مزاحمة لأي ممارسة سيميائية أخرى، بل في تكامل مع تلك الممارسة[2]؛ وما التداولية ـ على

(١) عمر بالخير: عن جدوى دراسة الشعر بالوقوف على إجراءات التداولية، مداخلة بملتقى علم النص ـ تداولية الخطاب الشعري، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ٢٥/ ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٨، وهي منشورة على الإنترنت في: omarbelkheir.wordpress.com ومراجعتها لازمة في جمع أطراف المسألة محل البحث.

(٢) راجع في ذلك كلا من:

ـ سحالية عبد الحكيم: التداولية امتداد شرعي للسيميائية، بحث منشور في: الملتقى الدولي الخامس السيمياء والنص الأدبي، ص٤٢١-٤٣٤.

ـ عيد بَلْبَع: التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، بحث منشور في مجلة: فصول، العدد٦٦، ربيع ٢٠٠٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٣٦-٥٥.

CamScanner

مستوى النظر وعلى مستوى التطبيق - إلا بنتٌ بارَّةٌ للسيمياء كما مَرَّ[1].

وهنا مجموعة من المعالم يجب على التداولي وقارئ الدرس التداولي أن ينتهيَ إليها[2]:

١ـ التداولية ليست بديلًا عن السيمِياء، ولا تغني غَناءها في تحليل علامات الخطاب الأدبي على المستوى الفني والجمالي والبلاغي.

٢ـ أن الظواهر المناسبة للدرس التداولي في الخطاب هي بعض ظواهر الخطاب لا كلُّها، ونقصد الآن الدرس التداولي الحالي المشتمل على نظرية أفعال الكلام والمبادئ التعاونية ونظرية الملاءمة لا الدرس التداولي في سبعينيات القرن المنصرم المتوقف عند نظرية أفعال الكلام، أما الظواهر المناسبة له في الخطاب فتتنوع بين استعمال الضمائر وأسماء الإشارة أو استعمالات الإنشاء غير الطلبي، وانزياحات المعنى المقامي عن الدلالة الوضعية بقرائن غير لغوية ... إلخ.

٣ـ أن البرامج التحليلية التداولية قد وُضِعتْ وعَينُ الباحث التداولي مملوءة بالخطابات اليومية المبتذلة أدبيًّا، فلا بد لباحث يريد أن يحلل خطابًا أدبيًّا بالتداولية

---

(١) يعبر بعض الباحثين عن ذلك بقوله: «الدور الريادي الذي لعبته السيميائية في إيجاد كيان التداولية» وهي عبارة أجنبية عن طرائق البيان العربي؛ لأن العرب تقول في مثله: له باع في كذا، أو: لولاه ما كان كذا، أو: له الأثر العظيم في إيجاد كذا، وبقطع النظر عن العبارة فالمعنى واضح، على ما وقع للرجل من عبارات غير سديدة توحي بموت السيميائية لترثها التداولية، وما كان أغناه عن مثل ذلك، انظر:
ـ سامي شهاب أحمد: التداولية وصلتها باللسانيات البنيوية والسيميائية، بحث منشور في مجلة: التداولية في البحث اللغوي والنقدي، مؤسسة السياب، لندن ٢٠١٢، ط١، ص٥٦، وكذلك: ص٧٣-٧٩.

(٢) من محاولات تحديد هذه المعالم:
ـ أحمد عدنان حمدي: التداولية الأدبية دراسة نقدية، بحث منشور في مجلة: التداولية في البحث اللغوي والنقدي، ص١٤٩-١٥٤.

CS CamScanner

من أن يخرج عن الأطر المرسومة له منهجيًا، ويفرِّع بمهاراته وخلفياته المعرفية أدوات بحثية أو تطويرات للبرامج التحليلية المتبعة، وهذا الجهد لاحق على فَهْمِ الأطر الموجودة أصلًا؛ لأنها نفسَها غيرُ واضحة وضوحًا كافيًا، ولا مجربة في ميادين متعددة، بل هي نجاحات جزئية لَمَعَتْ في الأفق فجذبت الناس إليها، وحاول بعضهم إرساء نظرية لها، فأخفق أكثرهم واستطاع بعضهم أن يصيب جزئيًّا، فالمجال ما زال منتظرًا لجهد بحثي في الدراسات المؤسِّسة لا في المسيرات البحثية فحسْب[1].

٤ـ في كثير من الخطابات الأدبية العالية قد لا يجد الباحث التداولي ما يقوله في التحليل؛ لأن الآلة التحليلية التي معه ليس فيها ما يناسب هذا الخطاب، ولا بد من احترام هذا الخطاب حينئذٍ، وعدم العبث التعسُّفي به بأداة التحليل التي لا تناسبه، كما هو حال أكثر الدارسات المجترئة على الخطابات الأدبية العالية، خاصة لو كانت مقدسةً.

٥ـ مما يغري الباحث التداولي بتحليل الخطاب هو أن يكون الخطاب حيًّا الآن، فاعلًا الآن، يمكن إدراك أوعيته المعنوية التي تؤثر في فهمه أو أكثرها الآن، وعلى هذا كُتِب ما كُتِب في التداولية تنظيرًا وتطبيقًا، فلو شاء باحث أن يحللَ نصًّا أدبيًّا قديمًا احتاج أوَّلًا أن يحصر ظروفَه الفكرية والجغرافية والاجتماعية والنفسية ... إلخ فلو عزَّ عليه ذلك فعليه أن يعيد النظر إن كان هذا الخطاب يناسب التداولية أوْ لَا؛ لأن المنجَزَ العلميَّ فيها موضوعٌ للخطاب المعاصر حقيقةً ومحاولةُ استعماله في القديم مجازٌ ـ كما في لسان البلاغيين العرب ـ والمجاز يجوز نفيُه، هذه واحدة، والمجاز يحتاج لقرينة وعلاقة، وهذه الأخرى. فليعلم الباحث حينها أنه يغامر، وعليه أن يُثْبِتَ

(١) راقب ذلك ـ على سبيل المثال ـ في صنع الباحثة مع القصيدة الهذلية:
ـ رحيمة شيتر: تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب نموذجًا، رسالة دكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر ٢٠٠٩، ص١٢٦، وما بعدها.

CS CamScanner

أن مغامرتَه علميةٌ إن استطاع. أما من حيث قيمةُ هذا التحليل لو نجح؛ فإن لذة هذه المغامرة أشبه ما تكون بلذة شاعر تفطن إلى وجه للشبه لم يتفطن له شاعر من لدن المهلهِل بن ربيعة إلى يوم الناس هذا، وعلى المستوى العلمي فإنه يفتح مسيرًا بحثيًا جديدًا، ويضع له أصوله وقواعده بما أوتي من مهارات التكييف وقوى التأمل والزَّكانة.

٦ـ أن البحث التداولي ـ بوصفه منهجًا أو علمًا ـ نشأ وترعرع في أحضان العالم الغربي، وبخاصة البريطاني والأمريكي ثم انضم إليهما مراكز بحثية متعددة في ألمانيا، وفرنسا على استحياء، وهو بذلك مفارق للمنتجات الحضارية العربية من كل جهة، فلا سياقاته تتفق مع العالم العربي في لغة ولا ثقافة ولا دين ولا غير ذلك، مما يحكم على عملية الترجمة بالفشل قبل حصولها وبعد حصولها، وهو الواقع، ويجعل الطريق الوحيدة لفهم القوم هو قراءتهم في لغتهم الأصلية، ويجعل الأمثلة المضروبة لشرح النظرية بعيدة كلَّ البعد عن القارئ العربي؛ وهذا يستلزم تنبهًا تعريبيًّا في التعامل معها، لِتُنْقَل الفكرة الأصلية وتحاكَم في ضوء خصوصيات أمتنا العربية الإسلامية بلا مشوِّشات ترجمية، ولا تحيزات بالقراءة التأصيلية.

مُنْطَلَقَاتٌ فِي تَحْلِيلِ الْأَدَبِ تَدَاوُلِيًّا:

هذا على المستويين التنظيري والتطبيقي معًا، لكن لو أطلقنا العِنان للتنظير وفقًا لمنطلقات التداولية دون طلب استشهادات بدراسات تداولية تطبيقية تتبنى هذه المنطلقات في تحليلها للخطاب الأدبي؛ فإننا نحصل على انفتاح منهجي ومصالحة نظرية بين المفهوم التداولي والخطاب الأدبي لا ماصدق لها في واقع الدراسات غالبًا، هذا الانفتاح يمكن تلخيصه في الآتي[1]:

---

(١) من أفضل ما كتب في هذا الباب بتوسع:

ـ جميل حمداوي: التداوليات وتحليل الخطاب، شبكة الألوكة، على الإنترنت، وقد نشر في مواقع عديدة بعنوان: المقاربة التداولية في الأدب والنقد، ٢٠١٢، ص٩ وما بعدها.

CamScanner

١ـ قَوْلُ النَّصِّ الْأَدَبِيِّ نَوْعٌ مِنَ التَّخَاطُبِ:

إن الجانبين التركيبي والدلالي في النص الأدبي لا يفيدان معناهما المخصوص من ذلك النص إلا إذا كانا في ضمن خطاب، وبهذا يكون النص الأدبي في صورته الحية المستعملة خطابًا داخلًا في عملية تخاطب يشترك فيها المتلقي بحمله والمتكلم باستعماله، وهذا يعني أن من شروط التأويل السيميائي للنص الأدبي أن تُراعى الأبعاد الخِطابية فيه، بل إن الجانبين التركيبي والدلالي يظلّانِ في حالة من التأثير والتأثر بالضلع التداولي في عملية التَّدلال، ولا يستطيع التداولي القيام بتحليل نص أدبي؛ لأن التداولي لا يحلل النصوص، لكنه يحلل عناصر التخاطب في موقف تخاطبي، وهذا يعني أن النص الأدبي خطاب مُتَلَفَّظٌ به في مقام.

ثم إن الدراسة المثلى للعمل الأدبي وَفقًا للنظرة السيميائية هي الدراسة النصية، التي تعد النص كلَّه وَحدة واحدة، كالجملة الواحدة، لها محتوًى قضويٌّ عامٌّ واحد، يُعَدُّ التوصل إليه إحدى ثمرات الدرس ونتائج التحليل[1]، وقد اعتنى التداوليون كذلك بالتحليل الأمثل للخطاب من حيث هو وَحدة واحدة، واستخراج الأوعية المعنوية الموجِّهة للدلالة من شَتَّى أرجاء عملية التخاطب، وعلى هذا فإن درجة صلاحية تعريض العمل الأدبي للدرس التداولي تظل في ازدياد من هذا البعد النظري.

٢ـ النَّصُّ الْأَدَبِيُّ وَالْفِعْلُ الْكَلَامِيُّ:

ثم من حيث إنَّ الخطابَ الأدبي يُعَدُّ متلفَّظًا به في موقف تخاطبي، فإن فرصته في أن يشكل فعلًا كلاميًّا تزداد كذلك من هذا المنظور، فإنه لا ينجح لِيُنْقَل إلينا غالبًا إلا إن كان مؤثرًا في جمهوره، هذا التأثير يجعل منه فعلًا كلاميًّا كبيرًا، يحتوي أحيانًا أفعالًا

---

(١) مما اعتني ببيان ذلك على سبيل المثال:

ـ فان دايك: النص والسياق ـ استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قينيني، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ٢٠٠٠، ط١، القسم الأول من الكتاب خاصة.

CS CamScanner

كلاميَّةً أصغرَ في داخله، ومعنى أدبية النص، أنه ينتقل من كونه مطلقَ نَصٍّ إلى كونه خطابًا، وينتقل من كونه مطلقَ خطاب إلى كونه خطابًا أدبيًّا، فهو نقطة التقاء بين النص والخطاب، ولا يكون القول أدبيًّا حتى يكون تأثيره لا كتأثير الكلام العادي اليومي، بل يكون تأثيره متجاوزًا مقامه إلى مقامات أبعد؛ فتمتد به الحياة إلى آمادٍ أرحبَ في عوالِمَ متشابهة وأعصارٍ متشاكِلة مع المقام الأوَّل.

وتلك الخصيصة إذن من أمارات أدبية الخطاب، أما كُنْه كونه أدبيًّا فتتمثل في قدرته على نقل المتلقي إلى عوالم أخرى غير العالم الذي هو فيه، أي: تغيير الظرف ومن ثَم المظروف عن طريق الكلام ولا شيء إلا الكلام، وهذه القدرة هي عينُ ما يجعل الأدبَ أدبًا[1]، وبهذا يكون التأثير الأدبي فردًا من أفراد التأثير الذي ينتج عن فعل الكلامَ، ويمكن أن يقال: إن كل تأثير ينقل المتلقي من عالمه إلى عالم الْحُلُم يعد جزئيًّا من جزئيات مطلق التأثير الذي هو شرطُ جَعْلِ القول من أفعالِ الكلام، وهذا التأثير المخصوص هو نوع - باصطلاح المناطقة - ينتظم أفرادًا أي: أجزاءً هي الخطابات الأدبيةُ نفسُها.

وعن هذا المعنى عبر بعض الباحثين قائلا: «فالنص الشعري - مثلًا - ليس لعب ألفاظ، وليس نقل تجربة ذاتية وحسْب، وإنَّما يهدف - فوق ذلك كلِّه - إلى الْحَثِّ والتَّحْريضِ، وبهذا المفهوم الأخير تشمله نظرية: (الكلام فعل) أو التداوُلية، وتعني هذه النظرية: أن التحدث يقصد به تبادل الأخبار، وفي نفس الوقت يهدف إلى تغيير وضع المتلقي، وتغيير نظام معتقداته أو تغيير موقفه السلوكي»[2].

---

(١) حول هذه الفكرة وفكرة التأثر والتأثير راجع:

- صلاح رزق: أدبية النص، محاولة لتأسيس منهج نقدي عربي، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٩، ط١، ص١١٥-١٢٢.

(٢) محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٩٨٩، ط١، ص٥٥. والصواب لغةً أن يقول: «وفي الوقت نفسه...» وقد أحال الكاتب في هذا الموضع على كتاب فرنسي هذا هو كما نقله:

- Catherine Kerbrat-Orecchion: l. Enonciation de la subjectivite dans le langag, Paris, Armond Calin, 1980, p.181.

٣ـ النَّصُّ الْأَدَبِيُّ وَحُصُولُ التَّأْثِيرِ الْوَاقِعِيِّ:

النص الأدبي إذن العنصر الأبرز من عناصر الخطاب الأدبي، وهذا الخطاب يحدث أثرًا واقعيًّا، ويمكن تقسيم هذا الأثر إلى نوعين، الأول: أثرٌ في عقل المتلقي ونفسه، كإقناعِ سامع بتغيير دينه، أو إهانةِ شريف بذكر ما لا يدفعه عن نفسه أمام الناس، أو إبلاغ ابنٍ بموتِ أمِّه، أو غيرِ هذا، والنوع الآخر: أثرٌ في الواقع مباشرةً لا في نفس المتلقي وعقله، كألفاظ العقود أجمعِها من إبرام بيع أو إعطاء هبة أو وقف عَقَار أو عِتْق عبد أو زواج امرأة أو طلاقها أو غير هذا.

والتلفظ بالنص الأدبي لتحقيق الأثر الأول يُعَدُّ تأثيرًا تداوليًّا له نتيجة، وتتبع هذا التأثير في ظهوره على المتلقي وفي مكامن قوته التي أدت إليه هو من صميم عمل التداولي، وجزءٌ من هذا التأثير الحجاج والإقناع، وهو باب واسع في قراءة الخطاب تداوليًّا مما يجعل القصيدة كلَّها محلًّا للدرس التداولي من هذه الجهة، وفي الشعر الجاهلي «ألم تكن حربُ البَسُوسِ التي دامت قرابة أربعين سنةً حربًا بالسيوف والشعر [معًا جميعًا]؟ ألم يكن لِتَغْلِبَ شاعرُها المقاتلُ بالشعر عمرو بن كلثوم ولِبَكْرٍ شاعرُها الحارثُ بنُ حِلِّزَة؟»[١].

أما قراءة النص الأدبي بوصفه مؤديًا إلى النوع الآخر من التأثير، من تغيير الحالة الاجتماعية والسياسية وغير ذلك فإنه يكون نصًّا وظيفيًّا، والتداولية معنية بالمتلفظ به الوظيفي الذي ينجز وظيفةً بعينها، وهذا وإن كان قليلًا في الأدب عامَّةً والشعر خاصة لكنه موجود.

٤ـ اللُّغَةُ الْأَدَبِيَّةُ وَظَاهِرَةُ الْإِحَالَةِ:

من أبرز الظواهر التي تشد الباحث التداولي إليها هي الإشاريَّات[٢]، فكل ما

---

(١) عمر بالخير: عن جدوى دراسة الشعر بالوقوف على إجراءات التداولية، وما بين المعقوفين زيادة من الباحث، وليس منقولا.

(٢) مما أنجز دراسة تداولية لنص أدبي من خلال تحليل هذه الظاهرة:

يشير ويحيل ويعود على غيره فهو محلُّ تحليلٍ تداولي؛ لأنه مَظِنَّة الخروج بمعنى العبارة عن معناها الوضعي الصفري إلى قرائن أخرى خارج النص تشارك في تحديد المعنى المقصود، ومن الْمُثُل الواضحة لهذه الإحالات في اللغة العربية أسماء الإشارة والأسماء الموصولة، وليس إغرابًا أن يقال بأن الحروف تعطي إحالة داخلية، خاصةً لو تَبَنَّى التداوليُّ نظريةَ تضمين الفعل معنى غيره حين يستعمل مع حرف لم يَعْتَدِ الاقتران به، وهو الاختيار الأقرب لطريقة تفكير التداوليين، لأنه يوجه كل فعل بحسَب نصه، ولا يعمم الأحكام على الحروف بالقول باشتراكها في معان عديدة أو القول بأنها وضعت لمعنى أصلي وتنقل منه لغيره، كما هي الآراء الجمهورية لدى أكثر النحاة لا سيما المتأخرون منهم.

ففي قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾[1] يكون التوجيه النحوي القديم الأنسب لكلام التداوليين المعاصرين أن الفعل «نَصَر» قد ضمن معنى الفعل «نَجَّى» لأنه استعمل مع الحرف «من» لا الحرف «على» وكأن المقصود غير المتلفظ به في الآية هو قوله: «ونجيناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا» والمتلفظ به هو ما ورد، وكلاهما مقصود المتكلم، ولا يناسب التداولي أن يقول بأن «مِن» نُقل من معناه الأصلي إلى معنى «على» ولا أن «مِن» وضع للمعنيين معًا بالاشتراك لا لأحدهما أصالةً.

ولو كانت التداولية ضاربة إلى هذا العمق - من حيث المفهوم - في تحليل النص الأدبي العالي، فإن النص الأدبي العالي نفسه من شعر أو قرآن تتجلى فيه ظاهرة الإحالة بما يغري الباحث التداولي ويحثه على درسه، خاصة أن الشعر يستعمل هذه الإحالات الداخلية أو الخارجية بطريقة تحتمل تعدد القراءات وتحتم محاولة الترجيح بينها في

= - عمار لعويجي: تداولية الخطاب الشعري - ديوان أبي فراس الحمداني أنموذجا، رسالة ماجستير بقسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر ٢٠١٢، ص٧٣، وما بعدها.

(١) سورة الأنبياء، جزء من الآية ٧٧.

ضوء السياق، وتعد هذه الظاهرة من أثرى أدوات الشعر في تحقيق المخاتلة الأدبية والانفتاح الدلالي في التفسيرات السيميائية.

بل إنك لتجد ذلك الانفتاح الدلالي في كثير من الآيات القرآنية، في معرِض تقرير الأحكام الذي يتصف غالبًا بواحدية الدلالة، وهو ما يسميه علماء الأصول «نصًّا» وفقًا لاصطلاحهم المخالف لاصطلاح النقاد، ولكنك تجد في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾[1] فضمير التثنية في الفعل «يريدا» يحتمل العود على الْحَكَمَين والزَّوْجين، وفي ترجيح أحد الاختيارين أفاض المفسرون، وهذا من قبيل الإحالة الداخلية.

ومن هذا يظهر أن اللغة العالية بستان يانع للجاني التداولي من جهة ظاهرة الإحالة سواء كانت اللغة العالية تقرير أحكام وقوانين، أو كانت أدبًا مكتظًّا بالتخييلات والتصاوير[2]، والمتوقع نظريًّا أن التخييلات والتصاوير هي الأحفل بهذه الظاهرة لما فيها من الغموض المقصود أو التعددية الدلالية، لكننا وقفنا كذلك على تلكم الخصيصة بعينها في اللغة القانونية بالقرآن، وهذا أدعى للعناية بالتحليل التداولي للغة العالية، لكن من غير أن نتوهم أن التحليل التداولي سيكون بديلًا عن التحليل التركيبي والدلالي لانفكاك الجهة.

٥ـ الْمَعْنَى الْأَدَبِيُّ مَقَامِيٌّ اسْتِعْمَالِيٌّ لَا صِفْرِيٌّ وَضْعِيٌّ:

ومن هنا يضح أن المعنى الأدبي الذي يحدث الأثر، وينجح في برنامجه الشعري؛ لينقل المتلقي إلى عوالم أُخَر، هذا المعنى لا يمكنه أن يمارس هيمنته وسطوته لو كان

---

(١) سورة النساء، جزء من الآية ٣٥.

(٢) انظر في ذلك:

ـ حسين عمران محمد: تداولية الحدث الكلامي شعر أبي نواس أنموذجًا، بحث مستل من أطروحة دكتوراه، مجلة ديالي، العدد٦٧، ٢٠١٥، ص٤٠٣.

CamScanner

مقصورًا على ما تنتجه اللغة بالأوضاع الشخصية أو الأوضاع النوعية، بل لا بد له أن يكون متحركًا في حَلْبَة أرحب، كأنه يستمد أدبيته - أي: مفارقته للكلام العادي - من ذلك التأبي.

وهذا المعنى الأدبي هو الذي يستنفر من جسارة الشاعر القدر الذي يخاطر به بين ثنائية (موافقة الأوضاع اللغوية، وتجاوز الأوضاع اللغوية) حتى لا يميل إلى الطرف الأول فيستحيل نثرًا مبتذلًا ككلام البائعين في السوق، ولا يميل مع الطرف الآخَر فيستحيل غامضًا لا يمكن اكتشاف معناه من خلال محاولات التركيب والتلفيق بين الأوضاع اللغوية التي يحدس الحامل أن المتكلم جمعها معًا.

ولذلك كان من عمل البلاغي العربي أن يحسِب الفرقَ بين المعاني المتولدة من الأوضاع اللغوية، والمعاني المتولدة من مجموع استعمال عناصر الموقف الكلامي، كان البلاغي يمارس ذلك الحساب في علم المعاني في باب الحقيقة والمجاز، أو في باب الخبر والإنشاء، أو في علم البيان في باب المجاز العقلي والمجاز المرسل، أو باب الكناية، أو في تفرقته في علم المعاني بين ما هو حقيقي أو ما هو إضافي كالقَصْر أو الابتداء أو غيرهما[1]، وهذا الحساب عينه هو خلاصة ما يعرفه التداوليون باسم الاستلزام الحواري الناشئ عن خرق لأحد المبادئ التعاونية لجرايس.

---

(١) راجع في هذا المضمار:

- أم الخير سلفاوي: البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسكاكي، رسالة ماجستير بقسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب واللغات، بجامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر ٢٠٠٩.

CamScanner

الْبَابُ الثَّانِي

الدِّرَاسَةُ التَّطْبِيقِيَّةُ

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ
التَّوْظِيفُ الْقَانُونِيُّ لِلْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ

الخطابُ القانونيُّ ووظائِـفُهُ من أهمِّ المجالاتِ التي استفادَتْ مِنَ الدَّرْسِ التداوُليِّ في العصر الحديث[1]؛ لأن التداولية مَعْنِيَّةٌ بوظيفَةِ الخطابِ بالْمَقَامِ الأوَّل، مما يَعْتني بالكشف عن هُوِيَّةِ المتكلم والمخاطَب، وصِفَتِهِما، والإجراءِ القانوني المحقَّقَ بمجرد إصدارِ الخطاب، كَـرَفْعِ دعوى، وقضاءِ القاضي، وشهادةِ شاهدٍ إلى آخرِ ذلك.

وليس غريبًا أن نرى سلطانًا للخطاب الشعري في بَنِي هُذَيْلٍ يَجعلُ من توظيفِه في الاستعمالاتِ القانونية أمرًا عاديًا كلَّ العَادِيَّةِ، حيث يَقِفُنَا الرواةُ بِأسانيدِهم عَلَى واقعةٍ حصَلَتْ في خلافة عمرَ بنِ الخطابِ ـ رضي الله عنه ـ لا نعرف من أبطال القصة أحدًا بعينِه إلا أميرَ المؤمنين، أما من حيثُ القبيلةُ فكلُّهم هُذَلِيٌّ إلا الخليفةَ العَدَوِيَّ القُرَشِيَّ. في هذه الواقعة يأتي مدَّعٍ رافعًا دعواه بشِعْرٍ؛ فيستدعي الخليفة ـ بوصفه قاضيًا ـ المدَّعَى عليه، ويسألُه عن أقواله؛ فَيُجِيبُه بكلامٍ فيه شعرٌ؛ فيحكم الخليفة بقضائه؛ فيُوَلْوِلُ المحكومُ عليه بشعرٍ أيضًا!

---

(١) واستفادت من البُعد التداولي في الدرس الأصولي في القرون الخالية في الحضارة العربية الإسلامية، كدراسة ما تتحقق به العقود كبيع وإجارة ووكالة ونكاح وطلاق وهِبة، إلى آخر ذلك وما يعتريه من أوعية معنوية وأحوال مصاحبة تشارك في صناعة الفائدة التداولية المستنتجة من حيث هو إنشاء غير طلبي.

الْأَثَرُ الْمَرْوِيُّ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَدِيثُ رَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ

حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَهُوَ جَالِسٌ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ:

١ـ أَتَيْتُكَ فِي وَالِدٍ قَاطِعٍ ... كَثِيرِ الشَّتِيمَةِ لَا يُغْلَبُ

٢ـ فَكُنْ لِي ظَهِيرًا وَلَا أُظْلَمَنْ ... فَلَيْسَ وَرَاءَكَ لِي مَذْهَبُ

٣ـ نَفَانِي، وَكُنْتُ ابْنَهُ حِقْبَةً ... إِلَيْهِ أَؤُولُ إِذَا أُنْسَبُ

٤ـ لِزَوْجَةِ سَوْءٍ فَشَا شَرُّهَا ... عَلَيَّ جِهَارًا فَهِيَ تَضْرِبُ

٥ـ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ قُضَاعِيَّةٍ ... لَهَا وَالِدٌ فَوْقَهُ أَحْدَبُ

أَيْ: فَوْقَ زَوْجِهَا.

فَبَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ إِلَى أَبِيهِ؛ فَدَعَاهُ؛ فَقَالَ: مَا يَقُولُ ابْنُكَ؟ زَعَمَ أَنَّكَ نَفَيْتَهُ؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ غَذَوْتُهُ صَغِيرًا، وعَقَّنِي كَبِيرًا، أَنْكَحْتُهُ الْحَرَائِرَ، وكَفَيْتُهُ الْجَرَائِرَ؛ فَأَخَذَ بِلِمَّتِي، وَأَظْهَرَ مَشْتَمَتِي.

١ـ شَاهِدُ ذَاكَ مِنْ هُذَيْلٍ أَرْبَعَةْ

٢ـ مُسَافِعٌ وَعَمُّهُ ومَشْجَعَهْ

٣ـ وَسَيِّدُ الْحَيِّ جَمِيعًا مَالِكُ

٤ـ وَمَالِكٌ مَحْضُ الْعُرُوقِ نَاسِكُ

فَأَمَرَ عُمَرُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ بِالْغُلَامِ فَضُرِبَ بِالدِّرَّةِ؛ فَطَفِقَ يُنَادِي وَهُوَ يَجُرُّ وَيَقُولُ:

CamScanner

١ـ شَكَوْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظُلَامَتِي فَكَانَ حِبَائِي أَنْ أُجَرَّ عَلَى فَمِي[١]

التَّحْلِيلُ:

تعاونتْ عواملُ تداوليةٌ عديدةٌ على جَعْل هذا الخطابِ الشعريِّ ذَا سُلْطَةٍ وتأثيرٍ في المتلقين؛ حتى اعتنوا به، ونقلوه إلينا، مُزِيلِينَ عنه بعض علاماته الْمُهمة، في إشارة منهم في أثناء النَّقْل إلى تَفَاعُلٍ حيٍّ مع الأثر الشعري، في ذلك الخطاب المعبِّر عن حادثة قضائيةٍ شهدَتْها المدينة المنورةُ في عهد عُمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، ولكل خطاب عَتَبَةٌ، فكيف قَدَّمَ لَنَا الرَّاوِي عتبةَ الخطابِ؟ وما قيمةُ الوقوفِ عند العَتَبَة؟

تَرْجَمَةُ الْمَوْقِفِ التَّخَاطُبِيِّ:

ليستْ دراسةُ عتباتِ الخطاب الشعريِّ بديلًا عن تحليل الخطاب نفسه؛ لأن العتبات بل «كل النصوص الموازية إنما هي في جميع الأحوال خطابٌ تابع، بمعنى أنه غالبًا يكون في خدمة النص الأساسي»[٢] بيد أنها ضرورةٌ من ضرورات الفَهْم، وتجاوُزُها يُعَدُّ إخلالًا غيرَ مُغْتَفَرٍ في محاولة الاهتداء للمعنى المستنتَج من الخطاب، ومن ثَمَّ استجلاء مكامن القوة التي صنعَتْ سلطة الخطاب.

والعنوان تحديدًا يخاطب جمهورًا أوسعَ من القُرَّاء؛ إذ يمكن أن يتصفح العنوان أضعاف من يقرؤون ما تحت العنوان، فإذا أدركنا أن عنوان الكتاب أو الباب «يمكن أن يرتحل على ألسنة أشخاصٍ لم يقرَؤُوا الكِتَاب»[٣] أو الباب أَدْرَكْنَا عظيمَ الخطر الذي

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٩٣-٨٩٤.

(٢) راجع في ذلك تعليقًا على كتاب جِيرَارْ جِينِيتْ الذي نشره في الفرنسية بعنوان «عتبات» بفرنسا ١٩٨٧:
ـ حميد لحمداني: عتبات النص الأدبي (بحث نظري) مجلة علامات، ج٤٦، م١٢، شوال ١٤٢٣هـ ديسمبر ٢٠٠٢م، ص١٠.

(٣) انظر في العلاقة بين مفهومَي الجمهور والقراء، وكذلك في وظيفة العنوان: =

CamScanner

يشارك به المصنِّف مستعملًا هذه الترجمة، وههنا تأتي خطورة فهمِ الفلسفة التي يُعَنْوِنُ بها الكاتِب، لمعرفة الوظيفة التي تُؤَدِّيها.

مَنَاهِجُ التَّدْوِينِ السَّابِقَةُ وَالْمُصَاحِبَةُ عَامِلًا فِي تَرَاجِمِ السُّكَّرِيِّ:

والسكريُّ له مَهْيَعٌ لَاحِبٌ في تقديم تراجِمِه لأبوابه داخل الكتاب، كأنَّ كلَّ بابٍ منها يمثِّلُ كتابًا مستقلًّا، له بَسْمَلَتُه الخاصة به، ومُصَدَّرٌ بِسَنَدِهِ الخاصِّ به؛ كما هو الأمر في كتب الحديث والتاريخ والأخبار والسِّيَر واللغة والشعر التي في هذه الحقبة الزمنية؛ مما يقود القارئ تدريجيًّا إلى محتوى البابِ بلا كثيرِ تعويلٍ على مذكور آخر داخل الكتاب بالمفهوم الواسع الذي هو شرح أشعار الهذليين.

كما أنَّ عصرَ السُّكَّرِيِّ شَهِدَ عنايةً فائقةً بالتراجم الداخلية في الكتب، واستعمالًا حسَّاسًا لها في الدلالة على فُهومٍ ولَفَتَات خاصة بالمصنف، يوجه بها المتلقين إلى مفاتيح مستصحَبة في عملية التأويل الشاملة لكل الباب، ولو لم يكن المصنِّف واضعًا للعلم أو منشئًا للكتاب بل مجردَ جامعٍ أو مرتِّب.

ومن أشهرِ الأمثلةِ المقارِنةِ لأبي سعيدٍ السكريِّ الإمامُ أبو عبدِ الله محمدُ بنُ إسماعيلَ البُخَارِيُّ، الذي عاش في القرن الثالث من ١٩٤ إلى ٢٥٦ للهجرة، حيث عاش السكري من ٢١٢ إلى ٢٧٥ للهجرة، وقد اشتهر بين العلماء أنَّ فِقْهَ البخاري في تراجمه(١).

= ـ عبد الحق بلعابد: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص) تقديم: سعيد يقطين، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ٢٠٠٨، ومنشورات الاختلاف، بالجزائر العاصمة، ط١، ص٧٣، وما بعدها.

(١) راجع لزاما في عناية العلماء بالترجمة ودلالتها ومناسبتها لما تحتها:

ـ أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني المعروف بابن حجر: هَدْيُ السَّاري مقدمة فتح الباري بشرح صحيح البخاري، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، وأشرف على طبعه: قصي محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، بلا تاريخ نشر، ص١٤..

CamScanner

بل استقرَّت عادةُ العلماء في هذه الإشارات بالتراجم إلى المعاني الدقيقة في فهم المنقول قبل ذلك، أيْ في القرن الأول الهجري حيث عاش رواة ديوان الهذليين أنفسُهم، ولا شكَّ أن السكريَّ متأثرٌ بهم، وبما سبقه من كتب عظيمة، ككتاب سيبويه، المتوفى ١٨٠ للهجرة، الذي شاع عنه أيضًا أن فقهه في تراجمه؛ فقد نَقَلَ ابنُ الْمُنَيِّرِ عن جَدِّهِ: «كِتَابَانِ فِقْهُهُمَا فِي تراجمهما: كتاب البُخَارِيِّ فِي الحَدِيث، وَكتاب سِيبَوَيْه فِي النَّحْو»[١].

الظِّلَالُ التَّدَاوُلِيَّةُ لِتَرَاجِمِ السُّكَّرِيِّ:

افتتح السكريُّ بابَه هذا بَعْدَ البسملةِ بترجمةٍ نادرةٍ في شرحِهِ كُلِّه؛ إذ قال: «حَدِيثُ رَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ» وهنا يبدأ السكريُّ ترجمته بكلمةِ «حديث» لا «شعر» فهل لهذا دلالة خاصة؟ تشير إلى شيء فَطِنَ إليه ذَوْقُ السكريِّ وأراد أن يشير إليه بإشارة عابرة؟ وما عادةُ السكريِّ في تراجمه؟ وما مشاركة ذلك في تكوين المعنى، وقوة هذا المعنى في التأثير في عالَم المتلقي؟

صِنَاعَةُ عَتَبَةِ الْخِطَابِ:

اعتاد السكريُّ أشكالًا أربعةً في صناعة الترجمة في شرحه هذا لأشعار الهذليين، وهاكَ بيانُها:

الشكل الأول: أن تكون الترجمة مبتدَأةً بكلمة «شِعْر» مضافة لاسم شاعر واحد أو كنيتِه، بحسَب الشُّهرة، وهذا الشاعر هو الذي يُذكَر في الباب شعرُه، وهذا أكثر صنيع المصنِّف؛ فيكون الباب خالصًا لشعر صاحب الترجمة، ومثاله: «شِعْرُ مُلَيْحِ بْنِ الْحَكَمِ»[٢]،

---

(١) ناصر الدين أحمد بن محمد السَّكَنْدَرِي المعروف بابن المنيِّر: المتواري على تراجم أبواب البخاري، تحقيق: صلاح الدين مقبول أحمد، مكتبة المعلا، الكويت، ج١، ص٣٧.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص٩٩٧، الباب: ٦٢.

و«شِعْرُ رَبِيعَةَ بْنِ الْكَوْدَنِ»[1]، و«شِعْرُ عَبْدِ بْنِ حَبِيبٍ»[2]، والْمُثُل على ذا كثيرةٌ جدًّا.
وقد يَذكُر السُّكري شعرًا قليلًا لغير صاحب الترجمة مَعَه؛ لملابسةٍ ما، نحوُ: «شِعْرُ مَعْقِلِ بْنِ خُوَيْلِدٍ»[3] وقد ذكَر فيه ثلاثةَ أبيات لأمِّ عَمْرٍو امْرَأَةِ خِذَامِ الْخُزَاعِيِّ[4]، ومثله صنيعه في بابِ «شِعْرُ أَبِي عُمَارَةَ بْنِ أَبِي طَرَفَةَ»[5] وقد ذكَرَ فيه مِن أشعارِ أربعةٍ غيرِه.

الشكل الثاني: أن يجمع في الترجمة بين شاعرين أو أكثر، مع تكرار كلمة «شعر» قبل كل منهما أو عدم التكرار، ومع التعليل لجمع شعرهما معًا أو لا، نحوُ: «شِعْرُ صَخْرِ الْغَيِّ وشِعْرُ أَبِي الْمُثَلَّم، وجُعِلَ شعرُهما في باب واحد؛ لأن بينهما نقائضَ»[6] وقوله: «شِعْرُ أَبِي الْعِيَالِ وَبَدْرِ بْنِ عَامِرٍ»[7]، ومثال الجمع بين شعراءٍ في الترجمة صنيعُه في باب: «شِعْرُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي عَائِذٍ، وَشِعْرُ سَهْمِ بْنِ أُسَامَةَ، وَإِيَاسِ بْنِ سَهْمِ بْنِ أُسَامَةَ مَعَ شِعْرِ أُمَيَّةَ فِي بَابٍ وَاحِدٍ»[8].

الشكل الثالث: أن تكون الترجمة كلمة «أَيَّامُ» ليسرد بعدها قصصَ أيامٍ عديدةٍ وما كان في تلكم الحروب من شعر، بغض الطرف عن كون الأشعار لشاعر واحد

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ٦٥٣، الباب: ١٩.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٦٧، الباب: ٣٠.
(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣٧٠، الباب: ٧.
(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣٩٦، وقد عَدَّهَا المحقق في قوة قصيدة مستقلة في الباب؛ فأعطاها رقمًا، هو ١٥، وهذا الصنيع من المحقق يجعل عَدَّ المحقق للقصائد والمقطوعات التي في الباب الواحد ليس معبرًا عن عددِ قصائد المترجَم له في الباب، فليُتَنَبَّهْ!
(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٧٥، الباب: ٥٥.
(٦) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢٤٣، الباب: ٣، وعُلِمَ أن التعليل من الترجمة؛ لأنه سبق البسملة الخاصة بالباب.
(٧) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٠٥، الباب: ٨.
(٨) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٤٨٥، الباب: ١٠.

CamScanner

أو لا، وبقطع النظر عن كونها لهذلي أو غير هذلي[1]، وجِهَةُ تصنيف المادة هنا هي اليوم لا الشاعر بخلاف الشكلين الأوّلَيْن، لكن هذا الاختلاف بين الجهتين لم يحدث تداخلا في عرض المادة.

الشكل الرابع الأخير: أن تكون الترجمة لرجلٍ غيرِ مسمّى من هذيل، ويكون ذلك استثناءً نادرًا بالقياس إلى سائر الشرح، وسنقف عند حالاته بالتفصيل لمزيد استبانة.

أما الرواة فلا يُذْكَـرُون إلا إذا انْفَرَدَ واحدٌ منهم أو أكثر أو استثني واحدٌ منهم أو أكثر؛ ولهذا احتمالان: أن يَذْكُرَ السكريُّ اسم الرواي في الترجمة حينما يكون كل ما تحتها من روايته هو، أو أن يقتصر على ذكره عند أول الشعر الذي رواه بحسَب القَدْر الذي انفرَدَ به أو انفرَدَ غيرُه به عنه، وفي كل هذه الحالات على تنوعها يذكر كلمة «شعر».

صِيَاغَاتُ التَّرْجَمَةِ لِمُبْهَمٍ وَدِلَالَاتُهَا التَّدَاوُلِيَّةُ:

ولِكَيْ نفهمَ مقصديةَ القائل من هذا السلوك اللغويِّ ـ الإبهامِ ـ نقفُ على الحالات التي ورد فيها وكانت مشابِهة لبابنا هذا، وذا بَسْطُها:

الحالة الأولى: نحو قوله في الترجمة: «شعر أبي المورِّق ورجلٍ آخرَ من هذيل»[2] وقد اشتمل الباب على شعرٍ لأبي المورِّق يهجو بني بكرٍ على إثر غدرهم بصاحب له يوم الْمُغَمَّس، وشعر لحسان بن ثابت يهجو بني بكر وقد استفاد فيه من هجاء أبي المورِّق لهم، وهذه قضية، ثم انتقل إلى شعر عباس بن مرداس يشاكل طريقة حسان في هجائه، يهجو به عباسٌ بني لحيان، وهو حيٌّ من هذيل، وخُؤُولَة عباسٍ فيهم، ثم

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٤١، الأبواب: ٤٢-٥٤. وفيها بعض أشعار تأبط شرًّا وأمِّهِ، ص٨٤٦-٨٥٧.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٧٥، الباب ٣١.

قال المصنف: «فَأَجَابَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي لِحْيَانَ»[1] وهي أربعة أبيات فحسْب، لرجل لا نعرف عنه الشعر، ولا تنبئ أبياته بعظيمِ شاعريةٍ، وهنا يشير المصنف بكلمة «رجل» لا «شاعر» إلى معنى، وهو أنه رجل من أوساط هذيل، وليس فارسًا ولا شاعرًا ولا صَمَدًا، ولكن الشعر يجري على ألسنة هذيل إذا ما احتاجوا إليه؛ لشريف فضل الشعر في قضاء الحوائج، كالانتصافِ إقذاعًا وهجاءً أو احتكامًا وقضاءً، فإذا دعاه رجلٌ - أيُّ رجلٍ - من أوساطهم لَبَّاهُ الشعر، وليس الرجل بشاعر، وبلا ريب فإن ما في أيدينا من شعر الهذليين لا يبلغ معشار ما قالوه من شعر.

وحاصل تحليل هذه الحالة الأولى أن السكريَّ متنبه معتنٍ بثنائية وصفية في تقديم القائل في ترجمته هي (رجل / شاعر).

الحالة الثانية: وتَمَثَّلُ في قول أبي سعيدٍ: «يوم نُمَارٍ لبني قُرَيْمٍ، فيه شعر رجل من بني قريم عن الجمحي»[2] وأكثر ما في الباب قصٌّ بلسان المصنف لِمَا وقع وأشعار لتأبط شرا وأمه ترثيه، ثم قال: «فأجابه شاعر من بني قُرَيْمٍ»[3] وذكر له خمسة أبيات فقط، يتوَعَّدُ فيها تأبطَ شرًّا، ويَبْشُرُه بِهَلَاكِهِ؛ فكأن المصنِّفَ ساق خمس صفحات بأشعارها لغير الهذليين من أجل التمهيد لشعر هذا الهذلي المبهم، وأهم ما يعنينا هنا أنه سماه شاعرًا من بني قُرَيمٍ في الترجمة وعند ذكر شعره، ولم يقل رجلًا من بني قريم.

وبهذا الصنيع يكون أبو سعيد قد ضرب المثال على الطرف الثاني من الثنائية، ويدل على شاعرية المبهم هنا، أن المصنف قدَّم خبر قتل هذيلٍ لتأبط شرا وما رثته به أمه، قبل أن يقول المصنف: «وكان تأبط يقول قبل ذلك» ليعود إلى حدث تاريخي أسبق، فيه شعر لتأبط يستدعي شعرا لذلك الهذلي، فإنما أراد أن يؤخر شعر الهذلي

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٨٣.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٤٣، الباب: ٤٢.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٤٨.

CamScanner

لأنه به أعنى، وخالف في ترتيبِ العرض ترتيبَ التاريخ؛ حتى إذا جاء شعر الهذلي أدرك القارئ أنه شعرٌ فاعل، إذ قيل لفظًا وحصل واقعًا، لا أن يقرأه القارئ ـ وقتَ يقرَؤُه ـ توعُّدًا مذرورًا في الهواء بلا صدى في الواقع، سواء علم بعد ذلك بحصوله أو لا، فالترتيب الذِّكْرِيُّ هنا لخدمة استصحاب معنى تداولي نَاجِزٍ[1] في فهم الخطاب الشعري المتأخر.

الحالة الثالثة: قوله في الترجمة: «شِعْرُ رَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ لَمْ يُسَمَّ»[2] جاء تحته ثلاثة أبيات في عد المصنف وستة في عد المحقق، وقد حَرَص أبو سعيد هنا على إثبات جملة النعت «لم يُسَمَّ» كأنه يشير بذلك إلى أنه كان يحب أن يسميَه الرواة باسمه، لكنهم ـ وا أسفاه! ـ لم يفعلوا، يدعم هذا الفهمَ ذِكْرُ كلمةِ «جميع» في قوله بعد الأبيات: «هذا جميع ما روي لهذا الرجل» وكأنه يريد أن يقول: وليتهم رَوَوْا له شيئا آخر لنتبين شخصيته الشعرية، فهذا شعر، لكنه لا يكفي قلةً لإثبات قيام صفة الشاعرية بنفسه، فقلتُ «شِعْرُ رَجُلٍ».

ويدل بذلك على أنه لا يرى «هذا الرجل» مستحقا للقب شاعر، لكن الأبيات التي جاءت يغلب عليها معنى الشعر الذي لم يحقق تغييرا في الواقع، لأنها قيلت ولم نقف على أثر لها؛ فهي حوار النفس مع النفس، فكأن السكري تلقى حمولة دلالية من الأبيات فيها معنى الشعر أكثر من معنى الحدث والخبر والقصة، فآثر وصفه بشعر رجل على حديث رجل؛ فكيف قرأ أبو سعيد ذاك؟

يقول ذاك الرجل من هذيل:

١ ـ أَرَيْتَ إِنْ جَاءَتْ بِهِ أُمْلُودَا

---

(١) ناجز هنا بمعنى حاضرٍ متحقِّقٍ حاصِلٍ في الفعل الكلامي، انظر في دوران الكلمة دلاليًّا: اللسان، مادة (ن.ج.ز).

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٤٩، الباب: ١٨.

CS CamScanner

٢ـ مُرَجَّلًا وَيَلْبَسُ الْبُرُودَا

٣ـ وَلَا يَرَى مَالًا لَهُ مَعْدُودَا

٤ـ أَقَائِلُونَ أَعْجِلِي الشُّهُودَا؟

٥ـ فَظِلْتُ فِي شَرٍّ مِنَ اللَّذْ كِيدَا

٦ـ كَاللَّذْ تَزَبَّى زُبْيَةً فَاصْطِيدَا

وهذا كلام رجل قد فَرَغَ لِتَوِّهِ مِن مُوَاقَعَةِ ذَاتِ بَعْلٍ أراد أن يكيدَه؛ فانقلَبَ عليه تدبيرُه حين أتى الولَدُ مَلِكًا كريمًا وجيهًا؛ فَنَدِمَ.

وشرح الأبيات على ترتيبها أنه يقول لنفسه(١):

١ـ أَرَيْتَ إن جاءت تلك المرأة بالولد ملكًا أملودًا أملس ناعِما من النَّعمة.

٢ـ مرجَّلًا أي: شَعره ممشط جميل، ويلبس البرود المتنوعة الفارهة مما يدل على وجاهته ومنزلته من الغنى ومن الناس.

٣ـ ولا يرى مالا له معدودا محصورا من كثرة جوده فهو كريم معطاء.

٤ـ الحال الآن أن قوم المرأة وبعلها يتهمونها بأنها ألحقت بالفراش ولدًا ليس له، ويتبرؤون منه، وهذا متمثل في مطالبتهم لها أن تقيم البينة على أن الولد من بعلها، بل يبالغون في تعنيتها بقولهم أعجلي الشهود أي: استعجليهم في الحضور، وهم يعلمون ألا شهود على ذلك ليقينهم بان الولد ليس لهم، فلو جاء الولد رجلا على هذه الصفة الرفيعة من الملك والوجاهة والكرم أكان قومه ينفونه عنهم أو يفتخرون به في مآثرهم؟! بل كانوا يفتخرون به في مآثرهم ويتقربون إليه بكل وسيلة ليصيبهم بعض خيره.

---

(١) لم يجد الباحث أحدًا شرح الأبيات من عصر السكري إلى الآن إلا ما علقه السكري من ومضات تحتاج إلى شرح، ولعل هذا التفسير للشعر يكون سديدا إن شاء الله تعالى.

٥ـ فلو حصل هذا لظَلَلْتُ أنا في شَرٍّ وحقد على بَعْلِ المرأة الذي كيد أي: كِدتُه بأن نَزَوتُ على امرأته، لأنه سينعم بأبوة ذلك الملِك الكريم الوجيه دوني، وأنا أبوه الحق محرومٌ من انتسابه إلي، أو بالأحرى انتفاعي بأبوتي له فخرًا ورِفْدًا.

٦ـ ولصرتُ كالذي تَزَبَّى أي: حَفَر زُبْيَةً أي: حُفْرَة، صائدًا أي: يحاول أن يصيد بها ويوقع فيها فريسة، لكنه اصطيد أو صيد بها، فوقع في شر عمله.

ولذلك جاءت الأبيات كلها كالطائف الخاطر الذي يستشرف فيه المرءُ المستقبل في لحظة؛ فيرى سوء مآل فعله في الماضي، وبهذا يضح في الأبيات غلبة المعنى الشعري الداخلي ـ داخل الشاعر ـ على معنى قص القصة والإخبار بالحدث، فاختار السكري في الترجمة كلمة «شعر» لا حديث.

وحاصل تحليل هذه الحالة الترجمية أن المصنف متنبه إلى ثنائية وصفية محلها الترجمة تعبر عن المروي في الباب، هي (شعر / حديث).

وقد احتجنا إلى هذا البيان في هذه الحالة الترجمية؛ لأنها شديدة الشبه بترجمة بابنا الذي نحن بصدده، والفارق بينهما هي استبدال «حديث» بـ«شعر».

الحالة الرابعة: هي ترجمة بابنا: «حَدِيثُ رَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ» وبعد الإطلال على الحالات السابقة يمكن استكشاف الدلالات السياقية في ضوء ما تجلى من قيام الثنائيات الوصفية المتغايرة في عقل المصنف ومراعاته لها، ويمكن أن يستفيد البحث التداولي هنا من البحث الأصولي في قاعدة: إعمال الكلام أولى من إهماله.

ظهر مما سبق ذكره أن كلمة «حديث» عدل بها عن كلمة «شعر»، وكلمة «رجل» عدل بها عن كلمة «شاعر» وهذا يوضح نظرة السكري إلى ما ورد تحت الترجمة بوصفه خطابا غلب فيه معنى الحدث والقصة معنى الشعر والقصيدة؛ مما يستدعي طبيعية أوضح في الخطاب، وقلة احتفال بعوامل التخييل والتصوير، والاقتصار من

CamScanner

ذلك على بلغة المتبلغ، ليقيم الدعوى أو ينكر الاتهام، دون أن تحتمل في أطوائها عميقَ غَوْر أو سامِقَ بناء.

كأن السكري بقوله لنا في الترجمة: «حَدِيثُ رَجُلٍ» لا «شعر شاعر» يلتفت إلى الأخلق بالمروي في الباب، وإلى أي الطرفين هو أقرب:

الطرَف الأول: الشعر والشاعرية بمفهوميهما المجردين عن الوظيفية العملية الإجرائية التداولية، وهو مفهوم الأدب من حيث هو أدب.

والطرَف الآخر: الحديث والمخبَر عنه أي: الرجل، بمفهوميها المتمحضين للوظيفية العملية الإجرائية، وهو مفهوم التأريخ من حيث هو أثر لأفعال كلامية.

وكل خطاب يصيب من الناحيتين قِسْطًا ما، فهو مقترب من كلا الطرفين بمسافةٍ ما، وإنما يكون التصنيف ـ ومنه الترجمة ـ بذكر أي المسافتين أقصر، كأنه يقدم لك قبل البدء خلاصة بحثه هو وتدبره هو؛ فليس السكري بمحض ناقل، بل رائز صيرفي متذوق.

وبهذا يضح أن الثنائيتين الوصفيتين ليستا بضديتين، ولكنهما تعبران عن الالتفات إلى الحمولة الدلالية الغالبة على الموصوف في سياق بعينه وفق مقصدية مخصوصة.

وهنا ينقلنا ما استعمله المصنف في الترجمة من كلمتين نكرتين مبهمتين، هما «حديث» و«رجل» إلى الوظائف التداولية للإبهام في شعر الوارد في الباب.

وَظِيفَةُ انْبِهَامِ الْخِطَابِ:

ينزل الإبهام منزلا وسطا بين الذكر والحذف؛ فهو ذكر أشبه بالحذف، ففيه من الذكر شَغْلُ الْحَيِّزِ الصوتي والموقع النحوي، وفيه من الحذف عدمُ انكشاف المذكور، وكل ذاك مصحوبٌ بدرايةٍ، هي أنه لا يتاح لك أن تتعرف إلى الموصوفين إلا بأوصافهم

لا بذواتهم، كأنكَ تعرِفُهم ولا تعرفهم في آنٍ[1]، أي كأنك تدرك وجودا مجردا عن التشخصات، فهذا ابنٌ مدع وذاك أب مدعًى عليه، مع تعمد الناقل أن يطمس ملامح وجه كل منهما حتى تظل محصورا في الفكرة الشعرية حقيقتها دون الواقعة القضائية وملابساتها.

الْإِبْهَامُ الْأَوَّلُ: إِغْفَالُ اسْمَيِ الْوَلَدِ وَوَالِدِهِ فِي كَامِلِ الرِّوَايَةِ:

مَنِ الْمُبْهِم؟

لا يشك الباحث في أن رجلا كالسكري لو عرف اسم الابن والأب لنقلهما، لأنه ـ وإن كان ذائقا ـ ناقلٌ أمين عن رواة الشعر، وعمله العلمي يشغل حيزا كبيرا من تركيزه في صناعة المجموعات الشعرية، ومذهب العلماء: «رب مبلغ أوعى من سامع» ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وقد صار الحفاظ على شعر الجاهليين والإسلاميين جزءا من العمل العلمي الثقافي الديني في القرن الثالث الهجري.

وما يقال في حق السكري يقال في حق رواة الديوان من العلماء، الذين ورد ذكرهم في مقدمة المحقق[2]، وهم خمسة عشر راويًا أكثرهم أو كلهم من أبناء القرن الأول الهجري.

بقي أن يكون الإبهام قد فعله الراوي المباشر للحدث، الذي كان في مجلس عمر بن الخطاب ذاك، فلماذا فعل ذلك؟ الاحتمال الأول: أن يكون المهم هو قضاء سيدنا عمر، كما تروى أحاديث قضاء الصحابة من أجل الحكم الشرعي لا القصة

---

(١) اقرأ شرح هذه الحالة الإدراكية باستفاضة في:

ـ أبو حامد محمد الغزالي: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة القرآن، القاهرة، بلا تاريخ نشر، والمقدمة ممضاة بتاريخ ١٩٨٤، ورقم الإيداع يدل على عام ١٩٨٥، ص٤٨-٤٩، لا سيما قوله: «بل لو عَرَضْتَ خَطًّا مَنْظُومًا عَلَى عاقل...»

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١٠-١١ من المقدمة لا من شرح السكري نفسه.

نفسها، وهذا احتمال بعيد؛ لأن حكم سيدنا عمر هنا ليس مادة فقهية مميزة أو يعني الفقهاء كثيرا التعويل عليها.

والاحتمال الآخر: أن يكون المعنى من طمس الأسماء أن هذيلا هكذا شأنها في حياتها، تتكلم بالشعر في أسهل الأمور لفرط اقتدارهم وسهولته عليهم؛ مما يجعل من الخطاب الشعري فيهم أداة لقضاء حوائجهم تكافئ النمط المعتاد في الخطاب القضائي عند غيرهم، وهو رفع الدعوى وإقامة البينة بكلام منثور، وهو الأقرب.

الْإِبْهَامُ الثَّانِي: التَّلْقِيبُ بِـ«وَالِدٍ قَاطِعٍ» بَدَلًا مِنَ الْعَلَمِ أَوِ الْكُنْيَةِ:

تقديم ذكر صفته أنه والد نفى ابنه لإرضاء زوجةٍ حديثة يرفده أبوها قبل ذكر اسم أبيه الذي يتميز به، يجعل في القضية عموما يستميل القاضي لصفه، كما لو قال قائل لقد عدا علي قاطع طريق، وهنا تتعاطف معه؛ لأنه مطلق ضحية، وتمتلئ بغضا للقاطع؛ لأنه مطلق جانٍ، لا بصفتيهما ضحيةً مخصوصةً متشخصةً اسمُها كذا، وجانيًا مخصوصًا متشخصًا اسمُه كذا، ويتمادى به هذا التعاطف إلى أن تشرع في تنفيذ القانون لإقامة الحد والقصاص فبدأت في السؤال عن تشخصات الواقعة ومن الذي فعل ذلك.

وكأن هذا الإبهام يجعل المتلقي في حيز القاعدة لا التطبيق، والكلي لا الأجزاء؛ لأن القاعدة تقضي بالانحياز للمظلوم ضد الظالم، بخلام التطبيق الذي تدخل فيه عوامل أخرى في صناعة الانحياز النفسي بسبب انضمام قرائن تحدد الشخوص والظروف.

الْأَفْعَالُ الْكَلَامِيَّةُ الظَّاهِرَةُ:

ويكأن الفتى يهدف إلى غرض واحد مضمن في فعل الكلام، فالظاهر صوتيا من الخطاب الشعري للفتى هو فعل كلام كبير، الذي هو رفع الدعوى، وهو إنشاء غير طلبي مفاده «أن الدعوى رفعت بأني قلت هذه الأبيات الخمسة في هذا المقام»، وهذا بالنظر إلى مستوى بلاغة النص كله لا الجملة، أي بلاغة هذه المقطعة الشعرية.

CamScanner

وفي أثناء رفع الدعوى فعلٌ كلامي آخر ظاهر أيضًا، وهو طلب الحكم من القاضي، وهو إنشاء طلبي، وهذا الفعل الكلامي مدلول عليه بدالين، الأول: معنوي، وهو قيام قرينة المقام التخاطبي؛ إذ يلزم من رفع الدعوى عند القاضي طلب الحكم منه في الخصومة، وهذا الأعم منهما، والآخر: لغوي وهو قوله: «أتيتك» و«فكُن»، وهو الأخص منهما، ووجه الدلالة فيه هو مفهومه لا منطوقه بالاعتماد على المعنى ال، بخلاف الأول فوجه الدلالة فيه مفهومُ الخطاب كله بوصفه فعل كلام لا بالاعتماد على دلالات الكلمات والتراكيب والمجازات القريبة التي تفهم من هذه الألفاظ تحديدا؛ إذ يمكن استفادة هذا الوجه من الدلالة لو استعمل شعرا أو نثرا، ولو استعملت هذه الكلمات أو غيرها، لأنه يمكن التعبير بعبارات عديدة أخرى عن اختصام الوالد من بدوي وافد على مسجد المدينة بين يدي أمير المؤمنين عمر، وهذه العبارات الأخرى العديدة كلها في هذا المقام أفعال كلامية تفيد هذا المفهوم من طلب القاضي أن يحكم، أي: هذا الإنشاء الطلبي المباشر.

الْأَفْعَالُ الْكَلَامِيَّةُ الْمُضْمَرَةُ:

ومن الأفعال الكلامية المضمرة في الخطاب استعطاف الفتى للقاضي، واستجداء عطفه وشفقته، وقد اجتهد الفتى بعدد من الأدوات متوسلا بها لتحقيق الغرض التداولي، وهي:

الأداة الأولى: التعبير عن المدَّعَى عليه بالتركيب الوصفي الاشتقاقي «والد قاطع» وهذه العبارة مؤذنة بتحريك نفس القاضي إلى الفتى لا بوصفه قاضيا، بل بوصفه أبًا والدا مشكوا إليه، بحيث يعادل عمر بن الخطاب لا القاضي في والديته المجازية المستجداة الوالدية المفقودة للوالد الصلبي، فيعوض بوصله الحاني المأمول القطع العاتي المرذول الذي يعاني منه الفتى، والملتفت إليه في استعمال كلمة «والد» بدلا من «أب» بقطع النظر عن المناسبة العروضية أن الولادة فعل الأم لا الأب، وهي محل الرحمة والحنان، وكل تذكرة بها تحمل رياح الحنو والرقة، وإنما سمي الأم والأب

بالتغليب، فإن غُلِّبت الأم فالوالدان، وإن غُلب الأب فالأبوان، ثم يمكن إفراد الأب بالوالد والأب، ولا يمكن إفراد الأم إلا بالأم، ولا تعرف العربية «أَبَة» مطلقا على الأم، فكان استعمال الامتياز اللغوي للأب بالوالد دالا دلالة مغايرة لمعنى الأب؛ فأيُّما كلمتين أو أكثرَ دلتا على ذات واحد فاستعمال إحداهما دليل على قصد ما به انفرادها عن الأخرى من المعاني الملموحة لا سيما لو كان الملموح هو ما منه الاشتقاق.

الأداة الثانية: زيادة وصف ثالث للمدَّعَى عليه بالتركيب الإضافي «كثير الشتيمة» فالظاهر هو بيان سبب الدعوى، أما المضمر ـ وهو الأخطر ـ فهو استحضار معنى حسن الخلق عند هذا الصحابي الورع التقي وما يقتضيه دينيا من بغض للسب والشتم ونبذ للبذاءة والفحش، لا سيما في رابطة تنال كل عناية الإسلام وتقديره وهي رابطة البنوة والأبوة، والهدي النبوي في ذلك أوضح من أن يذكَّر به، من نحو حديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيْسَ بِاللَّعَّانِ، وَلَا الطَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ»[1] وعمر هنا هو المثل الأعلى لعفة اللسان المستعداة المثل الأدني لكثرة الشتم. وهذا تجييش ديني بجوار التجييش الإنساني الاجتماعي بالأداة الأولى.

الأداة الثالثة: الوصف الرابع للمدعى عليه بجملة «لا يغلب» والظاهر فيها إظهار شدة البطش وضراوة الفتك التي يتعرض لها الفتى ولا يسعه مجابهتها، أما المضمر فيها أنه خطاب لقلب عمر بن الخطاب بوصفه حاميًا مُلتاذًا بجنابه وجَدِّه، مدخولا في جوارِه وَحده، ومن الخلفيات المرعية في مفهوم السيادة العربية والفحولة القبلية ناهيك عن كونها شرعًا دينيًّا إسلاميًّا أن العرب لا تخفر الجوار، وأن الأكارم الأماجد يُمتدَحون بإزجاء العاني وحماية المستضعف، وشواهد ذلك من أدب الجاهلية والإسلام لا تحصى وَفْرَةً، منها وصف السيدةِ خديجةَ بنتِ خُوَيلدٍ الرسولَ صلى الله عليه وسلم قبل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، وهو برقم: ٣٩٤٨، في تحقيق: شعيب الأرناؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت ٢٠٠١، وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة.

البعثة[1]، ووصف السيدةِ عائشةَ لعبد الله بن جُدْعَان في الجاهلية[2]، وحلف الفضول الذي كان في الجاهلية[3] وغير ذلك.

الأداة الثالثة: استعمال الفتى للطلب في صورة صيغة فعل الدعاء في قوله: «كن لي ظهيرًا» ولا يقال فُعل الأمر، ولو مشينا على مذهب البصريين، فصيغة «افعل» إن كانت من الأدنى للأعلى كانت دعاء عندهم، فالفتى صارخ مستنجد، وهذا المعنى مفهوم في غير التقاضي، أما فيه فينصرف إلى معنى الإنصاف، وأبيات الفتى لم تستدع هذا الإنصاف إلا بعد أن حددت له اتجاهًا واحدًا، وهو مظاهَرة القاضي للفتى على أبيه. والمضمَر هنا أن الخطاب ـ وإن توَجَّه لعُمَرَ ـ يحمِلُ معنى إضافةِ صفة خامسة إلى المدَّعَى عليه، وهي أنه كان عليَّ؛ فكن أنت لي، أو كان هو عليَّ عدوًّا؛ فكن أنت لي ظهيرًا.

الأداة الرابعة: جملة الجزاء في قوله: «ولا أُظْلَمَنْ» فتكون الواو لعطف جملة الجزاء على جملة الطلب؛ فيتمنع كونها حالًا صاحبُها ضميرُ المتكلم في «لي» لو قلنا بتمام كان؛ لأنها جملة منفية، والطلب هو أن يكون له ظهيرًا؛ لكيلا يظلم، لا أن يكون ظهيره حال كونه لا يُظلم، ويمتنع أيضًا كونها استئنافًا لو قلنا بنقصان كان؛ لاختلال النَّظْم بعزل السبب عن النتيجة. والظاهر هنا هو طلب الإنصاف، وهو لازم الجملة

---

(١) من كلامها رضي الله عنها: «...فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ...» من حديث أخرجه أحمد في مسنده، وهو برقم: ٢٥٨٦٥، ٢٥٩٥٩، والبخاري في صحيحة مرارًا، وهو برقم: ٣، ٤٩٥٣، ٦٩٨٢، ومسلم في صحيحه، وهو برقم: ٢٥٢.

(٢) من كلامها رضي الله عنها: «...إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقْرِي الضَّيْفَ، وَيَفُكُّ الْعَانِيَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُحْسِنُ الْجِوَارَ...» من حديث أخرجه أحمد في مسنده، وهو برقم: ٢٤٨٩٢.

(٣) في الحديث: «شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ، وَأَنِّي أَنْكُثُهُ» أخرجه أحمد في مسنده، وهو برقم: ١٦٥٥.

CamScanner

الخبرية، لكن المضمر هو الاسترحام وإظهار غاية التشبث وكمال التعلق، وهناك فعل كلامي مضمر آخر أعمق من ذلك هو وضع عمر بن الخطاب في مقارنة نفسية مع الوالد الجبار العتي، فإن كان الوالد ظالما فكن أنت يا عُمَرُ عادلًا، وكأن سلسلة الاحتباك تكتمل بالحلقة السادسة، ليقول: هو يظلمني، فلا تظلمني أنت.

الأداة الخامسة: جملة التعليل «فليس وراءك لي مذهبُ» وهي تؤكد ما سبق من معنى الالتجاء والاحتماء، وتمده إلى منتهاه.

والأداة السادسة الأخيرة: وصفه لزوجة أبيه بقوله: «فهِيْ تَضْرِبُ» فالظاهر أنه يقصد بيانَ الظلم الواقع عليه؛ إذ تعدَّى شتم أبيه ونفيه، إلى إساءةِ زوجة أبيه المعنوية والمادية، فالمعنوية بأن الاعتداء عليه جهارا في قوله: «فَشَا شَرُّهَا عَلَيَّ جِهَارًا» والمادية بضربه، والمضمر في الخطاب طلب آخر إلى عمر، مفاده: هي تضربني فلا تضربني أنت، والمعهود عن عمر أنه يضرب بدرته كثيرًا، وأن كثيرًا من الناس نالوا نصيبًا من دِرَّةِ عُمَرَ؛ فكأن الفتى يعبر عن خشيته أن يكون كمثلهم.

وهذه الأدوات الستة المستميلة ـ بكل هذا التضرع ـ لقلب عمر تشي بفكرتين، هما:

الفكرة الأولى: أن الفتى كان يعلم ضُعْف موقفه في القضية، وقوة بينة والده، فالتجأ إلى هذه الطريق الملتوية ليحاول دفع القاضي لتبني زاويته هو في الرؤية، فإنه وإن عدم البينة الدامغة فلم يعدم لحن القول.

والفكرة الأخرى: أن الفتى كان في موقف المستنصِح للخبير الاجتماعي، والمستفسر للمستشار التربوي، والشاكي إلى ذي قوة؛ لأنه خاطب عُمَرَ ـ في الكم والكيف الأغلبين في كلامه ـ بوصفه إنسانًا عربيًّا مسلمًا حكيمًا قويًّا أكثر من كونه أمير المؤمنين أو القاضي، ولعل أثر فعل الكلام من التعزير بالدرة كان مناسبًا لتقويم نفسه تلك، كما دل على ذلك أثر أثر فعل الكلام، وهو قوله عند التأديب: «شَكَوتُ ... ظُلامتي»

الاسْتِلْزَامُ الِاحْتِبَاكِيُّ:

ويمكن مما سبق بيانُه أن تنتظم الصفات الضدية وفقا لما رسمَتْه الأبيات من صورة، تعاون على إكمالها تقنية الاحتباك، والاحتباك: **أن يُحذَف من طَرَف الكلام ما يَدُلُّ عليه مَذكورٌ في الطَّرَف الآخَر مع العَكْس**[1]، ومدار الاحتباك على الذكر والحذف، ومن عجبٍ أن المتأخرين من البلاغيين العرب جعلوه من البديع لا المعاني! وأعجب منه أن عَدُّوهُ في الجِنَاس![2] إلا إنْ قصدوا بالجناس شرفًا في المعنى[3] بقطع الطَّرْف عن اللفظ؛ فيعود للاشتقاق[4]، ويمكن كسر الاحتباك على قسمين من حيث علاقة

(١) مسندا كان المحذوف أو مسندًا إليه، هذا التعريف من وضع الباحث، وللعلماء تعريفات متعددة للاحتباك، فقد قيل في تعريفه:

ـ هو أن يجتمع في الكلام متقابلان؛ فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه.

ـ أن يؤتى بكلامين يحذف منهما شيء إيجازا يدل ما ذكر على حذف من الآخر.

ـ أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول.

ـ أن يحذف من الأول ما أثبت في الثاني ومن الثاني ما أثبت في الأول.

ويمكن مراجعتها في:

ـ أحمد فتحي رمضان وعدنان عبد السلام أسعد: الاحتباك في القرآن الكريم رؤية بلاغية، بحث منشور في: مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد٤، العدد٢، ص٤٥-٤٦، وقد أحسن الباحثان في جمع تعريفاته مع إساءة بالغة في وضع تعريف صحيح له.

(٢) أحمد الدمنهوري: إيضاح المبهم من معاني السلم في المنطق، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٨٤، ص٦.

(٣) والمقصود بالشرف هنا قوة المعنى وسموقه لا كونه دينيا أو تربويا؛ لأنه شرف فني لا أخلاقي.

(٤) راجع في هذا التنبه الرفيع:

ـ أكمل الدين محمد بن محمد البَابَرْتي: شرح التلخيص، تحقيق: محمد مصطفى رمضان صوفيه، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس بليبيا ١٩٨٣، ط١، ص٦٧٢-٦٧٣.

ـ أبو الفتح نصر الله الملقب بضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانه، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، بلا تاريخ نشر، ج٣، ص١٩٥.

CamScanner

دلالة المفهوم بدلالة المنطوق: هما احتباك وفاقي واحتباك خلافي[1]، فالوفاقي: احتباكٌ فُهم مِن مذكوره محذوفٌ يوافق منطوقَ مذكوره، والخلافي: احتباك فُهِمَ من مذكوره محذوفٌ يخالف منطوق مذكوره. والأول من أمارته أن يتعلق طرفاه بموصوف واحد، والآخر من أمارته أن يتعلق طرفاه بموصوفين[2]، وهي الحال هنا.

علاقة دلالة المفهوم بالمنطوق	(المفهوم) المستنتج من الاستلزام الاحتباكي في صفات عمر والأب		المنصوص عليه	رقم البيت
	الأوصاف المرجوة من عمر	الأوصاف القائمة بالأب	المنطوق	
المخالفة	فكن والدي وإن لم تكن أبي	أب ليس بوالد	والد	١
المخالفة	فصلني أنت	قطعني هو	قاطع	١

(١) ولا بأس أن يُسَمَّيَا: ضديًا واتفاقيًا، فالضد خلاف الشيء، وانقسام دلالة المفهوم إلى موافق ومخالف هي لغة الأصوليين، وأَلْيَقُ بها هنا، انظر:
- أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن السِّكِّيت: إصلاح المنطق، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٩، ط٤، ص٢٨.

(٢) لم يقف الباحث على هذا التقسيم في كتب البلاغيين ولا الأصوليين، أما الموجود عند بعض المعاصرين فتقسيم للاحتباك من حيث أمثلتُه في القرآن الكريم لا الاحتباك من حيث هو، أي: سواء كان في القرآن أو غيره، وهذا التقسيم الذي قدمه بعض الباحثين له في القرآن هو: (الاحتباك الضدي، والاحتباك المتشابه، والاحتباك المتناظر، الاحتباك المنفي المثبت، الاحتباك المشترك) وهو تقسيم مَعِيبٌ منطقيًا؛ لدخول بعض أقسامه تحت ما هو قسيم له، تجد ذلك في:
أحمد فتحي رمضان وعدنان عبد السلام أسعد: الاحتباك في القرآن الكريم رؤية بلاغية، ص٥٢-٧٦.

CamScanner

المخالفة	فلا تزجرني ـ أنت صالح الدين والخلق	فاسد الدين ـ سيء الخلق ـ أنا مظلوم	كثير الشتيمة	١
الموافقة	فكن أغلب منه ـ انتصر لي	جبار باطش ـ إني مغلوب	لا يغلب	١
المخالفة	فكن لي	هو عليّ	فكن لي	٢
المخالفة	كن ظهيري	هو عدوي	ظهيرا	٢
المخالفة	أنت عادل	هو يظلمني	لا أظلمن	٢
المخالفة	أنت ملاذي الوحيد	منه أهرب	فليس وراءك لي مذهب	٢

أَفْعَالُ الْكَلَامِ وَبِنَاءُ سُلْطَةِ الْخِطَابِ:

يظهر مما سبق ذكره أن أفعال الكلام شاركت بقوة في تكوين سلطة الخطاب الشعري حيث مكنت الفتى من استعمال مستويات دلالية متعددة، ما كانت للتتاح له لولا الشعر، ويمكن استعراض هذه المستويات فيما يلي:

المستوى الأول: هو المستوى التداولي الوظيفي، ويمثله رفع الدعوى، أو تقديم الشكوى، وليس هذا المستوى من مزية الخطاب الشعري؛ لأنه يمكن أن يتحقق يسيرًا بغير الشعر.

المستوى الثاني: هو المستوى السيميائي الانزياحي القريب، ويمثله استعطاف القاضي لا بصفته قاضيا، وهو من مزية الخطاب الشعري، ويمكن أن نطلق عليه مستوى بلاغة الجملة.

المستوى الثالث: هو المستوى السيميائي الانزياحي العميق، ويمثله بناء السلسلة الاحتباكية في وصف الثنائية الضدية (عمر في المأمول / الوالد في الواقع) من حلقات متنتظمة معا، وهو من مزية الخطاب الشعري تمام الامتياز، ويمكن أن نطلق عليه مستوى بلاغة الخطاب.

ويعلم من ذلك أن تداولية الخطاب قامت في الموقف التخاطبي نفسه، وكان يكفي لقيامها المستوى الأول من الاستعمال اللغوي أو مشاركة المتكلم ولو بغير الكلام، لكن سلطة هذا الخطاب نشأَتْ وهيمَنَتْ ونفذت في صدور المتلقين جيلًا بعد جيل من استعمال المستوى الثاني والمستوى الثالث، وأن هذه الْمَزِيَّة ما كان لها أن تطغى ولا تستعبِد الذوق الجمعي لنَقَلَة الأخبار والأشعار لولا الشعر، أي: الشعرية.

حَمْلُ الْخِطَابِ بَيْنَ أَوْعِيَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ مَكْفُوفَةٍ وَأُخْرَى عَامِلَةٍ:

مِن بين الأوعية العديدة المكتنفة لهذا الخطاب الشعريِّ انمازَ بعضُها لِيعملَ في تكوين سُلْطَة الخطاب، بأن يكون مؤثرًا في توجيه عملية الفهم لدى المتلقي للملفوظ اللغوي المنظوم في صورة شعر، ويمكن أن نقسم هذه الأوعية الْمُطِيفَة إلى مكفوفة وعاملة.

أما المكفوفة، فهي أوعية لم تحضر للزوم ذهني ولا عادي، ولم تستحضر لغويًّا ولا مقاميًّا، فظلَّتْ خامدة غير مرعية في حمل المتلقين للخطاب على مراده؛ في محاولتهم لمعرفة مقصدية المتكلم، ولا كانت حاكمة على المتكلم في صياغة مشاركته بجانبيها اللغوي وغير اللغوي في الحدث التخاطبي.

ومن تلك الأوعية المكفوفة: وعاءُ النَّسَبِ الأعلى؛ إذ أن هذيلًا وقريشًا كلتاهما لعدنان، والخصمان هذليَّان والقاضي قرشيٌّ، ولم يعوَّل على شيء من ذلك. ومنها أيضا: وعاء الزمن الأخص؛ إذ لم يحتج أحد للنص على أي وقت حوى تلك الحادثة من خلافة عمر على طول سنين خلافته رضي الله عنه؛ فقد تنفس به العمر حتى ربت

CamScanner

خلافته على عقدٍ من الزمان، واقتُصِرَ على ذِكْرِ الزمن الأعم، وهو مدة خلافة عمر، دل على ذلك قول الفتى: «يا أمير المؤمنين».

أَوْعِيَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ مُشَارِكَةٌ فِي بِنَاءِ سُلْطَةِ الْخِطَابِ:

وأما الأوعية العاملة فمنها:

الْأَوَّلُ: مُخَالَفَةُ الْعَادَةِ:

إن الأبيات الخمسة للابن تحكي عن عقوق الأب لابنه لا العكس، والعكس هو المتوقع في شأن العقوق، حتى أَلَّفَ أبو عبيدةَ مَعْمَرُ بنُ المثَنَّى كتابه العَقَقَة والبَرَرَة[1]، أما حين يأتي الولد مدعيًا على أبيه العقوق، مقدِّمًا بين يدي دعواه ما يثبت كلامَه، فإنه يحوز قدرًا من الدهشة عند المتلقي، ولو كان قضاءُ الخليفة بضده في آخر القصة، لكن حبكتها في الأبيات الخمسة فقط، وكأن القصة لو انتهت بعد تلك الأبيات، لكانت قصة مستقلة لا تحتاج لباقيها من حيث تحقيق سلطة الحكي منعكسة في دهشة المحكي له، وكأن باقي السرد بعد الأبيات هو الأمر المتوقع الجاري على عادات الناس، وقد ذكر تتمة لا أكثر، ولكن القصة اكتسبت دهشة أخرى حين قلب الأبُ السِّحْر على الساحر، وجاء بنثره وشعره فطوَّق حجج الابن وقوضها، فكان الحكم لصالحه.

الثَّانِي: الْبَدَاوَةُ:

ترشدنا بعض العلامات إلى وعاء معنوي مهم في المقام هو بدوية الفتى وأسرته، من هذه العلامات عادة هذيل في الحياة حول المدينة المنورة، وهي خلفية تاريخية جغرافية معروفة؛ فممن حكى ذلك عن الهذليين ابن خلدون حين قال: «... وذلك مما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن، حملتهم عليها الضرورة

---

(١) أبو عبيدة معمر بن المثنى: العققة والبررة، منشور ضمن: نوادر المخطوطات، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت ١٩٩١، ط١، ج٢، ص٣٧٧-٣٩٧.

CamScanner

التي عينت لهم تلك القسمة، وهي لما كان معاشهم من القيام على الإبل ونِتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها من شجره ونِتاجها في رماله كما تقدم، والقفر مكان الشَّظَف والسَّغَب [أي: التعب والجوع]، فصار لهم إلفًا وعادة، ورُبِيَتْ فيه أجيالهم، حتى تمكَّنَت خُلُقًا وجبلةً ... واعتُبِرَ ذلك في مُضَرَ من قريش وكنانة وثَقِيف وبني أسد وهذيل ...»(١).

ويستأنس لهاته البداوة بقول الراوي في أول القصة: «أقبل رجل من هذيل...» أي جاء من خارج البلد، وليس مألوفًا أن تُساكِنَ هذيلٌ الأوسَ والخزرج مدينتَهم، وهذيل عدنانية واليثربيون قحطانيون، خلا بعض مَن له اختصاص كعالِم معروف كابن مسعود أو ذي أَرَب. ويُستأنس كذلك بقول الرواي: «فبعث عمر ... إلى أبيه فدعاه». والثاني: أن الأب استشهد أناسًا من هذيل على وقائع مع ابنه، فدَلَّ على أنهم في مضاربهم لا في المدينة، يعضد ذلك أن واحدا من الشهداء كان سيد الحي جميعا؛ إذ قال:

وَسَـيِّـدُ الْحَـيِّ جَمِيعًـا مَـالِـكُ وَمَالِـكٌ مَحْضُ الْعُرُوقِ نَاسِـكُ

وهذا وصف لا يطلق عند العرب إلا على من في حماه وبين أهله، ولفظ «سيد» ظل مصونا في هذه العصور عن الابتذال لكل مذكور، بخلاف ما صارت إليه الحال الاستعمالية بعد ذلك.

وللبداوة آثار في الطباع، منها التوحش كما ذكره ابن خَلدون، وقد جاء في الحديث الشريف: «مَنْ بَدَا جَفَا»(٢) والقصة عن شكوى قسوة الأب مع ابنه، وغلظته عليه، فكأن

---

(١) ممن حكاها عن هذيل متأمِّلاً ثمراتها:

ـ عبد الرحمن بن محمد بن خَلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر، القاهرة ٢٠١٤، ط٧، ج٢، ص٤٨٣.

وانظر أيضًا ما جاء في:

ـ أحمد كمال زكي: شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، ص٤ وما بعدها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده مِرارًا، بأرقام: ٨٨٣٦، ٩٦٨٣، ١٨٦١٩.

CamScanner

هذه الخلفية الذهنية جعلت إمكانية تصديق القاضي لفحوى الدعوى أكبر، وجعلت السامعين أرأف حالا بالفتى، وألين لحجته.

الثَّالِثُ: عَلاقَةُ زَوْجَةِ الْأَبِ:

جرت العادة الاجتماعية في العرب على وجود قلق جِبِلّيٍّ في بعض العلاقات، منها ما يكون بين الضرائر، وعادة العرب تَعداد الأزواج، فلا يخلو مجتمع عربي من قصة أو نادرة أو مثل أو شعر يتناول ذلك، ومن غيرة المرأة ما يكون عابرا موسميًّا، وهي حال أكثرهن، ومنه ما يكون جامحا طامحا، فيشمل ضرتها وأبناءها، وهنا اجتمعت عناصر مختلفة لجعل هذه الخَصلة تبرز وتطغى:

١ـ أنها أجنبية عن بني هذيل؛ فهي قُضَاعية.

٢ـ أن أباها يعطف على والد الفتى، ويعطيه، مما يسوق الوالد لغض طرفه عن إساءتها للفتى، بل تنفيذ مراد زوجته في نفيه.

٣ـ أنها زوجة حديثة، ومعلوم أن للزوجة الحديثة دلالًا على زوجها لا يكون لغيرها. دل على ذلك قوله: «وَكُنْتُ ابْنَهُ حِقْبَةً» أي قبل أن يتزوجها على بَأَخَرَةٍ، وأن الفتى كبِر وتزوج واستوى على عوده، كما ذكر أبوه بعد ذلك، ولو كانت زوجةً قديمة لما كان الفتى في الماضي ابنا مستريحا إلى أبيه، يؤول إليه إذا يُنسبُ.

عَوَامِلُ لُغَوِيَّةٌ فِي سُلْطَةِ الْخِطَابِ:

شاركت عوامل لغوية أخرى في صناعة سلطة الخطاب الشعري، فجاء أهم بيت حوى فحوى مقصدية القائل أوسطَ الأبيات الخمسة، إذ جاء بعد تمهيد ببيتين، وجاء بعده تعقيب ببيتين، قال الفتى نائحًا أو مُستَنِيحًا:

نَفَانِي، وَكُنْتُ ابْنَهُ حِقْبَةً　　　إِلَيْـهِ أَؤُولُ إِذَا أُنْـسَـبُ

فاستعمال الفعل: «نفى» يختلف في دلالته بحسب المقام، فالنفي أنواع، منها:

النوع الأول: فمنه ما يكون القبيلة لأحد أبنائها، وقد يعبر عنه بالخلع أحيانا، وقد يكون لجرم اقترفه المنفي في حق قبيلة أخرى فشاءت الأولى السلامة بعدم تحمل تبعات تلك الجريرة؛ لأنهم عاقلة الجاني وعُصبتُه، الذين يتحملون الديات، أو يقاتلون دونه، فتخلصت من حمايتها لذلك الفرد، وهذا سلوك قليل في العرب؛ لأن الأصل في القبيلة أنها تحتاج لسواعد أبنائها في طلب الرزق وفي الذود عن الذمار، ويعد المخلوع نوعا من الصعاليك بعد ذلك.

والنوع الثاني: بأن يكون النفي من الأمير أو القاضي لأحد الرعية إذا طرده من البلد إلى أخرى تكون تحت سلطانه أو لا بهدف التعزير أو العقاب، وهنا تظهر خلفية شرعية فقهية قضائية، وهو حد من حدود الله يقتضي النفي، ويعبر عنه بالتغريب أحيانًا، وهو حد الزاني غير المحصَن، وقد جاء في الحديث: «...الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ...»[1] والمفهوم من النفي الزجر والعقوبة.

---

(١) جزء حديث أخرجه أحمد في مسنده مرارًا، وهو برقم: ١٥٩١٠، ٢٢٦٦٦، ٢٢٧٨٠، ومسلم في صحيحه، وهو برقم: ١٦٩٠. وفي غير هذا الخبر أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا، فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، وَإِنِّي افْتَدَيْت مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ، فَسَأَلْت رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَقَالُوا: إِنَّمَا عَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَالرَّجْمُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ. وَجَلَدَ ابْنَهُ مِائَةً، وَغَرَّبَهُ عَامًا وَأَمَرَ أُنَيْسًا الْأَسْلَمِيَّ أَنْ يَأْتِيَ امْرَأَةَ الْآخَرِ، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ رَجَمَهَا، فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا» والعَسِيف أي: الأجير، وقد أخرجه أحمد في مسنده أكثر من مرة، وهو برقم: ١٧٠٣٨، ١٧٠٤٢، وأخرجه البخاري في صحيحه أكثر من مرة، وهو برقم: ٢٦٩٥، ٢٧٢٤، في طبعة دار طوق النجاة مصورة عن السلطانية، بترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي. وأخرجه مسلم في صحيحه، وهو برقم: ١٦٩٧، في نشرة: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

CS CamScanner

والنوع الثالث الأخير: نفي الأب لمن تُلحقه به حَالُه[1] أو أَمَتُه على أنه ابنه، وهذا حين يعلم أنها زانية، وهو نفي تبرُّؤٍ، وقد تصحبه ملاعنة؛ حتى لا يُنسب إليه، ويكون بُعيد الولادة، وهو من متقرر في الإسلام أيضًا[2]، أما نفي الأب لابنه الكبير، فهو نفي غضبٍ عليه وإبعادٍ له، وربما كان لسوء خلق الابن أو فحش جرائره.

ويتبادر إلى الذهن أن النفي في البيت هو الثالثُ، وبالأخصِّ هو نفي الابن الكبير دون الصغير، بَيْدَ أنه يشتمل على ظلال من الأنواع الثلاثة أيضًا، ففيه من النوع الأول عدم النصرة، وهي مفهومة من كلام الابن، بل مصرح بها في كلام الأب، حين قال: «وعَقَّنِي كَبِيرًا» وقال: «وكَفَيْتُهُ الْجَرَائِرَ» وفيه من النوع الثاني التعزير والعقاب، وفيه من النوع الثالث نفي الابن الكبير على الأصل، بل كأن فيه من الثالث معنى نفي الابن الصغير؛ ودليل ذلك الجملة التفسيرية: «وكنت ابنه حقبة» فكأن كان ابنه، ثم انقطعت البنوة، حين صار منفيا، بل تعدى ذلك إلى أن صار الفتى يشعر أن نسبة اسمه إلى أبيه انقطعت أيضًا، وصار بلا نَسَبٍ في العَرَب، فواخِزْيَاهُ! وواعَارَاهُ!

---

(1) حال الرجل عند الهذليين زوجه، نَصَّ الجمحي على ذلك، راجع:
- السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج1، ص329، 460.

(2) في الحديث «أَنَّ رَجُلاً لاَعَنَ امْرَأَتَهُ وَانْتَفَى مِنْ وَلَدِهَا، فَفَرَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُمَا، وَأَلْحَقَ الْوَلَدَ بِأُمِّهِ» أخرجه أحمد في مسنده، وهو برقم: 5312، 5400، ومسلم في صحيحه، وهو برقم: 1494.

الْفَصْلُ الثَّانِي

الْخِطَابُ الشِّعْرِيُّ رِسَالَةَ اسْتِغَاثَةٍ

مِنَ الوظائفِ التي وَفَى بها الخطابُ الشعريُّ عندَ الْهُذَلِيِّينَ رسالةُ الإِستغاثةِ، وليس معتادًا في الرسائلِ أن تكونَ شعرًا، حتى عدَّ كثيرٌ من علماءِ الأدبِ فَنَّ الرسائِلِ من فنونِ النثرِ لِغَلَبَتِهِ عليهِ فِيمَا هو موجودٌ بينَ أيدِينا مِن الأدبِ، لا لتقصيرِ الشِّعْرِ - حَاشَاهُ - عن القيامِ بهاتِهِ الوظيفة.

الْأَثَرُ الْمَرْوِيُّ:

وَقَالَ أَبُو الْعِيَالِ، وَكَانَ مَحْصُورًا هُوَ وَأَصْحَابٌ لَهُ، فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ، بِأَرْضِ الرُّومِ، فَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِكِتَابٍ؛ فَقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ؛ فَقَالَ:

١- مِنْ أَبِي الْعِيَالِ أَخِي هُذَيْلٍ فَاسْمَعُوا ... قَوْلِي، وَلَا تَتَجَمْجَمُوا مَا أُرْسِلُ

٢- أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ صَخْرٍ آيَةً ... يَهْوِي إِلَيْهِ بِهَا الْبَرِيدُ الْأَعْجَلُ

٣- وَالْمَرْءَ عَمْرًا فَأْتِهِ بِصَحِيفَةٍ ... مِنِّي يَلُوحُ بِهَا كِتَابٌ مُنْمَلُ

«الْجَمْجَمَةُ»: أَنْ يُرَدِّدَ الشَّيْءَ فِي نَفْسِهِ وَلَا يُفْهِمُهُ. وَ«آيَةٌ»: عَلَامَةٌ. وَ«عَمْرًا»: أَظُنُّهُ عَمْرَو ابْنَ الْعَاصِ، وَ«مُنْمَلٌ»: مُتَقَارِبُ الْخَطِّ.

٤- وَإِلَى ابْنِ سَعْدٍ إِنْ أُوَخِّرْهُ فَقَدْ ... أَزْرَى بِنَا فِي قَسْمِهِ إِذْ يَعْدِلُ

٥- فِي الْقَسْمِ يَوْمَ الْقَسْمِ ثُمَّ تَرَكْتُهُ ... إِكْرَامَهُ، وَلَقَدْ أَرَى مَا يَفْعَلُ

CamScanner

٦ـ وَإِلَى أُولِي الْأَحْلَامِ حَيْثُ لَقِيتَهُمْ أَهْلِ الْبَقِيَّةِ، وَالْكِتَابُ وَالْمُنْزَلُ

«ابْنُ سَعْدٍ»: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، مِنْ قُرَيْشٍ. «إِذْ يَعْدِلُ» عَنِ الْحَقِّ. يَقُولُ: أَكْرَمْتُهُ فَلَمْ أَشْكُهُ وَلَمْ أَهْجُهُ، يُقَالُ: «تَرَكْتُكَ إِكْرَامَكَ، وَإِجْلَالَكَ، وَهَيْبَتَكَ». «الْبَقِيَّةُ»: الْمَرْجِعُ الْحَسَنُ فِي الْمُرُوءَةِ وَالدِّينِ. يُرِيدُ: «وَالْكِتَابُ الْمُنْزَلُ» فِيهِمْ.

٧ـ أَنَّا لَقِينَا بَعْدَكُمْ بِدِيَارِنَا مِنْ جَانِبِ الْأَمْرَاجِ يَوْمًا يُسْأَلُ

٨ـ أَمْرًا تَضِيقُ بِهِ الصُّدُورُ وَدُونَهُ مُهَجُ النُّفُوسِ، وَلَيْسَ عَنْهُ مَعْدِلُ

٩ـ فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ تَرَى مِنَّا فَتًى يَهْوِي كَعَزْلَاءِ الْمَزَادَةِ تُزْغِلُ

«يُسْأَلُ» أَيْ: يُسْأَلُ عَنْهُ لِشِدَّتِهِ. وَيُرْوَى: «يَبْسُلُ» أَيْ: كَرِيهُ الْمَنْظَرِ. «مُهْجَةُ النَّفْسِ» خَالِصُهَا وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ. «مُعْتَرَكٌ»: حَيْثُ الْتَقَى النَّاسُ لِلْحَرْبِ. «يَهْوِي»: يَمُوتُ. وَ«الْعَزْلَاءُ»: فَمُ الْمَزَادَةِ. «تُزْغِلُ»: تَدْفَعُ بِالدَّمِ، «الزُّغْلَةُ» الدُّفْعَةُ، «أَزْغَلَتْ بِبَوْلِهَا»: رَمَتْ بِهِ دُفْعَةً وَاحِدَةً، وَ«أَشَاعَتْ بِبَوْلِهَا»: رَمَتْ بِهِ مُتَفَرِّقًا.

١٠ـ أَوْ سَيِّدًا كَهْلًا يَمُورُ دِمَاغُهُ أَوْ جَانِحًا فِي صَدْرِ رُمْحٍ يَسْعُلُ

١١ـ حَتَّى إِذَا رَجَبٌ تَجَلَّى؛ فَانْقَضَى وَجُمَادَيَانِ، وَجَاءَ شَهْرٌ مُقْبِلُ

١٢ـ شَعْبَانُ، قَدَّرْنَا لِوَقْتِ رَحِيلِهِمْ تِسْعًا نَعُدُّ لَهَا الْوَفَاءَ فَتَكْمُلُ

١٣ـ وَتَجَرَّدَتْ حَرْبٌ يَكُونُ حِلَابُهَا عَلَقًا وَيَمْرِيهَا الْغَوِيُّ الْمُبْطِلُ

«يَمُورُ»: يَذْهَبُ وَيَجِيءُ. «جَانِحٌ»: دَانِي الصَّدْرِ مِنَ الْأَرْضِ. «يَسْعُلُ» لِأَنَّهُ يَشْرَقُ بِالدَّمِ. «تِسْعًا» أَيْ: تِسْعَ لَيَالٍ. «عَلَقٌ»: دَمٌ. «يَمْرِيهَا»: يُدِرُّهَا حَتَّى تَحَلَّبَ.

١٤ـ فَاسْتَقْبَلُوا طَرَفَ الصَّعِيدِ إِقَامَةً طَوْرًا وَطَوْرًا رِحْلَةً؛ فَتَنَقَّلُوا

١٥ـ فَتَرَى النِّبَالَ تَعِيرُ فِي أَقْطَارِنَا شُمْسًا كَأَنَّ نِصَالَهُنَّ السُّنْبُلُ

١٦ـ وَتَرَى الرِّمَاحَ كَأَنَّمَا هِيَ بَيْنَنَا أَشْطَانُ بِئْرٍ، يُوغِلُونَ وَنُوغِلُ

CamScanner

«الصَّعِيدُ»: التُّرَابُ، وَكُلُّ خَارِجِ قَرْيَةٍ إِذَا بَرَزْتَ مِنْهَا فَهُو صَعِيدٌ. «تَعِيرُ»: تَذْهَبُ كَذَا وَكَذَا. «شُمْسًا»: لَيْسَتْ عَلَى طُمَأْنِينَةٍ. «أَقْطَارُنَا»: نَوَاحِينَا، كَأَنَّها «السُّنْبُلُ» فِي الدِّقَّةِ. «أَشْطَانٌ» حِبَالٌ. «يُوغِلُونَ [وَنُوغِلُ]»: يَدْخُلُونَ وَنَدْخُلُ، أَيْ: نُنْفِذُ الطَّعْنَ وَيُنْفِذُونَهُ.(1)

التَّحْلِيلُ:

أَنْشَأَ أَبُو الْعِيَالِ الْهُذَلِيُّ هذه القصيدةَ في ظُروفٍ قاسيةٍ كالحِجَارةِ أو أشدَّ قسوةً، فهي قصيدةٌ جاءتْ على عَجَلٍ، فكأنه مِن بَيْنِ مَعْمَعَانِ الْمَعْرَكَةِ وَغَلَيَانِهَا يُبَادِرُ طِرْسًا بأبياتها؛ فتَأْتِي رَاجِفَةَ الْحُرُوفِ، مُنْمَلَةَ الْمَشْقِ، حَارَّةَ الوَقْعِ فِي النفوس؛ حتى تستنفرَ عروقَ أميرِ المؤمنينَ معاويةَ؛ لِيُرسلَ مَدَدَهُ، ويُنْقِذَ جُنْدَهُ.

تَقْدِيمُ الْمَوْقِفِ التَّخَاطُبِيِّ:

قدَّم أبو سعيدٍ السُّكَّرِيُّ بين يَدَيِ الْقَصِيدَةِ بما يُعَبِّد لها الطريقَ في نَفْسِ الْمُتلَقِّي، واشتَمَل تقديمُه لها على توجيهَيْنِ للمتلقِّي في أَثْناءِ حَمْل الخطابِ الشعريِّ القادمِ: التوجيهُ الأولُ: وَصْفُ فِعْلٍ كلامِيٍّ قامَ به الشاعرُ، والتوجيهُ الآخَرُ: ذِكْرُ تَوظِيفِ الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ في الْمَوْقِفِ التَّخَاطُبِيِّ.

التَّوْجِيهُ الْأَوَّلُ فِي التَّقْدِيمِ:

وعَبَّرَ السُّكَّرِيُّ عن التوجيهِ الأوَّلِ بذِكْرِ عناصِرِ هَذَا الفِعْلِ الْكَلَامِيِّ، وهي:

العُنْصُرُ الْأَوَّلُ: حدوثُ التَّلَفُّظِ بالْقَوْلِ، هذا على المجاز في العبارة موافقةً للاصطلاح، وإلا فالحقيقةُ أَنْ يُقال: حدوثُ إنفاذُ الكلام النفسيِّ الْمُزَوَّر، وذلك بقوله: «وَقَالَ أَبُو الْعِيَالِ...» وقد اعتنى بهذا الحدوث بأن جعله في الجملة الاستئنافية للأثَرِ الْمَرْوِيِّ، وكان في وسعه أن يبدأَ بالجملة الاعتراضيةِ التفسيريةِ التي بعدها؛ فيكون

---

(1) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج1، ص433-435.

الْبَدْءُ: «كَانَ أبو العيال مَحْصُورًا هُوَ وَأَصْحَابٌ لَهُ، فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ بِأَرْضِ الرُّومِ؛ فَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ...» بَيْدَ أنَّ أبَا سِعيدٍ لم يَفْعَل، وآثَرَ التَّكْرَارَ على تأخيرِ الإِشارَةِ لحدوثِ إنفاذِ الْقَولِ، ولو كانَ كلامًا نَفْسيًّا، أي: أَنْشَأَهُ أبو العيالِ في نفْسِه ولم يَجْهَرْ به لَافِظًا بِفِيهِ، بل كتبه بيدَيه، وأن الذي تَلَفَّظَ به كَانَ غيرُه.

والعُنْصُرُ الثَّانِي: قُوَّةُ التَّلَفُّظِ بالقَوْلِ. أو بالأحرى: قُوَّةُ إنفاذِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْه، وقد عني هنا الرَّاوي بتعيين ثلاثة أوعية تَخاطبية تؤثرُ دلالاتُها الْمَعْنَوِيَّةُ في التأويل، وهي:

١ـ الزمانُ، فقال: «فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ» والمقصودُ في خلافة سيدِنا معاويةَ بنِ أبي سفيانَ رضي الله عنه، لا في زمن عَمَلِهِ على الشَّأْمِ لِعُمَرَ أو لِعُثْمَانَ، أو إِمَارتِهِ لها في النِّزاع المعروف مع سيدِنا عليٍّ رضي الله عنه، وقد فُهِمَ هذا مِن الإضافة اللفظيةِ المطلَقَةِ إليه من كل قَيْدٍ، الدالَّةِ بِخُلُوصِهَا له مِنَ القُيودِ على خُلُوصِ الزَّمَنِ له مِن كلِّ منازعٍ أو حاكِمٍ فوقَهُ؛ فَدَلَّ الإطلاقُ على الإطلاقِ، وهذا لم يكن إلا من وَقْتِ تسليمِ الْحَسَنِ بنِ عليٍّ له سنة إحدى وأربعين إلى موته في سنةِ ستينَ للهجرة[1].

٢ـ والمكانُ، فقال: «بِأَرْضِ الرُّومِ» وهو بهذا لفظ عام يَدُلُّ دلالةً مُطَابَقِيَّةً مباشِرَةً على أرضٍ واسعةٍ جدًّا، ويدُلُّ دلالةً الْتِزَامِيَّةً غيرَ مباشرةٍ على أن أبا العيالِ كانَ في غزوةٍ من غَزَوَاتِ المسلمين فِيها؛ فيَزْدَادُ بهذا التحديدُ بالأماكن التي غزاها المسلمونَ في بلادِ الرومِ في عهدِ معاويةَ.

٣ـ والهيئةُ التي كان عليها الشاعرُ، بقولِه: «وَكَانَ مَحْصُورًا هُوَ وَأَصْحَابٌ لَهُ» وهَذَا وَصْفٌ للظَّرْفِ الخطيرِ الذي كانوا فيه، وهذا ما يُوَجِّهُ الذِّهنَ للانتقال إلى مُلابساتِ المعركة والقتالِ في صورةِ حصارٍ مِن جَيْشِ الرومانِ لجيشِ المسلمين في حِصْنٍ أو قَلْعَةٍ.

---

(١) راجع مثلا:

ـ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الرياض ١٩٩٧، ط١، ج١١، ص١٣٥، ٣٩١.

CS CamScanner

تَعْيِينُ الْأَوْعِيَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ بِالْمَقَامِ الْأَعَمِّ: مُشَارَكَةُ الْهُذَلِيِّينَ فِي الْجِهَادِ

ومما تحسُنُ الإشارةُ إليه أن كثيرًا من الهذليينَ بعد الإسلامِ شاركوا في فُتُوحاتِ المسلمين بعمومٍ، وشاركوا في غزواتهم ضد الرومِ بخصوصٍ، وقد دَلَّ على ذلك علاماتٌ متنوعةٌ مِن خارجِ شِعرهم ومن داخلِه، ومن هذه العلامات:

العلامةُ الأُولى: ما بصَّرَنا به الأصفهانيُّ بسَنَدِهِ الْمُتَّصِلِ عن أبي سعيدٍ الأصمَعِيِّ أنه قال: «هاجرَ ابنُ أبي خِراشٍ الهذليُّ في أيامِ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، وغزَا مع المسلمين؛ فَأَوْغَل في أرضِ العَدُوِّ؛ فقَدِمَ أبو خِراشٍ المدينةَ؛ فَجَلَسَ بين يَدَيْ عُمرَ وشَكَا إليه شَوْقَهُ إلى ابنِه، وأنه رَجُلٌ قد انقرضَ أهلهُ وقُتل إخوتُه، ولم يَبقَ له ناصرٌ وَلَا مُعِينٌ غيرُ ابنِه خِراشٍ، وَقَدْ غزَا، وَتركَه، وأَنْشأَ يَقُولُ:

أَلَا مَـنْ مُبْلِـغٌ عَنِّـي خِرَاشًـا وَقَـدْ يَأْتِيكَ بِالنَّبَـإِ البَعِيدِ»[1]

وقد روى السُّكَّرِيُّ القصيدةَ وشَرَحَها، وأشارَ إلى هجرةِ الفَتى دون أن يَذْكر أنه في جِهادٍ أو غَزْوٍ مع جيشِ المسلمينَ[2].

العلَامة الثانية: ما يُوقِفُنا عليه صاحبُ معاهدِ التنصيصِ من خروجِ ثلاثةٍ من الهُذَلِيِّينَ لجهادِ الرُّومِ في الجزءِ الْمُتَّفَقِ عليه بين الرواةِ في خَبَرِ موت أبي ذُؤَيْبٍ، قال: «وَعَن أبي عَمْرِو عبدِ الله بنِ الْحَارِث الْهُذلِيِّ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ المنورةِ قَالَ خرج أَبُو ذُؤَيْبٍ مَعَ ابْنه وَابْنِ أَخ لَهُ يُقَال لَهُ أَبُو عُبَيْدٍ حَتَّى قَدِمُوا على عُمَرَ بْنِ الْخطَّابِ رَضِي الله عَنهُ فَقَالَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضلُ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ بِاللَّه وَرَسُولِهِ. قَالَ: قد فَعَلْتُ فَأَيُّهُ أَفْضَلُ بَعْدَهُ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله. قَالَ: ذَلِكَ كَانَ عَمَلي وَلَا أَرْجُو جنَّةَ

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني: الأغاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٥٢، ط٢، ج٢١، ص٦٨.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٤٢.

وَلَا أَخَافُ نَارًا، ثُمَّ خَرَجَ؛ فَغَزَا أَرْضَ الرُّومِ مَعَ الْمُسلِمِينَ...»[1].

ثم نَصَّ على خُروجِ أبي ذُؤَيْبٍ في عصر عثمانَ لحربِ الرُّومِ أيْضًا؛ فقال: «وَعَن الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ قَالَ حَدثنِي عَمِّي قَالَ كَانَ أَبُو ذُؤَيْب الْهُذلِيُّ خَرَجَ فِي جُنْدِ عَبْدِ الله بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ أَحَدِ بَنِي عَامِرِ بنِ لُؤَيٍّ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ سنة سِتٍّ وَعشْرِين غازيًا فِي زَمَنِ عُثْمَانَ بن عَفَّانَ رَضِيَ الله عَنهُ»[2].

العلَامَةُ الثالثةُ: كَانَتْ أُمْنِيَّةً جاءَتْ في شِعر أبي صَخْرٍ الْهُذَلِيِّ، وقد عاش في عَصْرِ بَنِي أُمَيَّةَ، وافتتح أبو سعيدِ السكريُّ شعرَهُ بقصيدتِه في رثاء ابْنَيْه محمدٍ وداودَ، وفي أَواخِرِ القصيدةِ يقول أبو صَخْرٍ:

سَـأَلْتُ مَلِيكِـي إِذْ بَلَانِـي بِفَقْـدِهِ ... وَفَاةً بِأَيْدِي الرُّومِ بَيْنَ الْمَقَانِبِ[3]

تَعْيِينُ الْأَوْعِيَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ بِالْمَقَامِ الْأَخَصِّ: رِثَاءُ أَبِي الْعِيَالِ لِابْنِ عَمِّهِ

ولا شَكَّ أن الحاملَ ينتفعُ بهذا التعيينِ لأوعيةِ الموقِفِ التخاطبي نوعَ انتفاعٍ، ويَبقى عليه أن يجدَ مُعَيِّناتٍ أخرى تُساعد على مزيدِ استبانةٍ لهذه الأوعيةِ، ومِن ذلك أنَّ أبَا العِيالِ قد رَثَى في قصيدةٍ أخرى ابنَ عَمٍّ له اسمُه: عَبْدُ بْنُ زُهْرَةَ الْهُذَلِيُّ، وذَكَرَ السُّكَّرِيُّ في تمهيده لتلك القصيدة عن الْمَرْثِيِّ أنه: «قُتِلَ بِالْقُسْطَنْطِينَةِ[4]، قتَلَتْهُ الرُّومُ

(١) عبد الرحيم بن أحمد العباسي: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٦٧هـ-١٩٤٧م، المجلد الثاني، ص١٦٩-١٧٠.

(٢) عَبْدُ الرَّحِيمِ الْعَبَّاسِيُّ: مَعَاهِدُ التَّنْصِيصِ، المجلد الثاني، ص١٦٩.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩٢٣.

(٤) هكذا عند السُّكري، وهي نفسها قُسْطَنْطِينِيَّةُ؛ فقد جاء في معجم البلدان: «قُسْطَنْطِينَةُ وَيُقَالُ: قُسْطَنْطِينَةُ بِإِسْقَاطِ يَاءِ النِّسْبَةِ» انظر:

- أبو عَبْدِ الله شِهَابُ الدِّينِ يَاقُوتُ بْنُ عَبْدِ الله الْحَمَوِيُّ الرُّومِيُّ الْبَغْدَادِيُّ: معجم البُلدان، دار صادر، بيروت ١٣٩٧-١٩٧٧، ج٤، ص٣٤٧.

فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ»[1] وهذه القصيدةُ هي الرثائيةُ الوحيدةُ التي لأبي العيالِ، وكلُّ ما وصل إلينا من شِعْرِهِ سَبْعَةُ أشعارٍ بين قصائدَ ومُقَطَّعَاتٍ، فيها ٩٨ بيتًا، خَمسةٌ منها في تجاذُبٍ مع بَدْرِ بنِ عَامِرٍ الهذليِّ، وقصيدةٌ في رثاءِ ابنِ عَمِّه هذا، والأخيرةُ في الاستغاثة بمعاوية.

يقول أبو العيالِ في المرثيةِ عنِ ابْنِ عَمِّه:

أَقَامَ لَدَى مَدِينَةِ آلِ قُسْطَنْطِينَ، وَانْقَلَبُوا[2]

وهذا يحتملُ وُجُوهًا، الأولُ: أن أبَا العيالِ كانَ مع عَبْدِ بنِ زُهْرَةَ في الغَزْوَة، وأنه شَهِدَ موتَه، والثاني: أنه عاش إلى ما بعد ذلك، وبَلَغَتْهُ وفاةُ ابنِ عمه؛ فرَثَاهُ، ثم غَزَا الرُّومَ؛ فكَتَب ما كتبهُ لمعاوِيَة.

وينضم إلى ذلك احتمالٌ ثالثٌ أخير: هو أن المكان الذي كان محاصِرًا فيه كان في مصرَ؛ حيث ذَكَرَ عنه السكريُّ عن الجُمَحِيِّ أنه كان يَسْكُن مِصْرَ[3]، وقال أبو العيالِ في قصيدته في البيت السابع:

أَنَّـا لَـقِينَـا بَعْـدَكُـمْ بِـدِيَارِنَـا   مِنْ جَانِبِ الْأَمْرَاجِ يَوْمًا يُسْـأَلُ

ولم يَقِفْنَا أحدٌ على موضعِ الأمراجِ من مصرَ ولا غيرِ مصرَ[4]، وما يُقوِّي هذا الاحتمالَ هو أن الشاعرَ كانَ محصورًا لا حاصِرًا، كما نصَّ السُّكَّرِيُّ، والمسلمونَ كانوا في القسطنطينيةَ حاصِرين لا محصورِينَ، لكن هل مصر في عهد معاوية كانت من بلاد الرُّومِ لتَتَّفِقَ الوصوفُ جميعًا؟!

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٢٣. وذُكر هُنا الاسم: عبد بن زهرة بضم الزاء وفتحها، والصواب: الضم فقط، نَبَّه عليه المحقق في الهامش١، وهو في البيت رقم: ٤٥، في: ج١، ص٤٣١.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٢٦، البيت: ١٤.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٠٧.

(٤) راجع: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٥٢.

CS CamScanner

هَذَا مَا يعودُ بِنَا للاحْتِمَالِ الأوَّلِ تارةً أُخرَى، على تَأْوِيلِ أن الحاصِرَ الضَّعيفَ يكون محصورًا أمَامَ أسوارِ القسطنطينة المنيعة.

على أنه يمكن الاستئناسُ بأوصافٍ في المرثيةِ تقوّي الاحتمالَ الأوّلَ، حيث يصِفُ فيها أبو العيالِ حوادثَ من شجاعةِ ابنِ عمِّه في الجند، يصعب أن يأتيَ بتفاصيلِها غيرُ شاهدٍ للمعركة، يقول أبو العيال بعد البيت السابق ذكرُه:

أَلَا للهِ دَرُّكَ مِـنْ فَـتَى قَـوْمٍ إِذَا رَهِـبُوا
وَقَالُوا: مَنْ فَـتَى لِلثَّغْرِ يَرْقُـبُنَا وَيَرْتَقِبُ
فَلَمْ يُوجَدْ لِشُرْطَتِهِمْ فَتًى فِيهِمْ وَقَدْ نُدِبُوا
فَكُنْتَ فَتَاهُمُ فِيهَا إِذَا تُدْعَى لَهَا تَـثِبُ[1]

فكأنه يقصُّ بذلك حادثةَ هلاكِهِ مراقبًا مرابطًا في جندِ الغزوة الصَّعبة، التي لم تتمَّ بالنصرِ.

بل يمكن الاستئناسُ بغيرِ ذلكَ أيضًا على ما هو أكثرُ من ذلك، فالشاعر مُجيدٌ مُفْلِقٌ، ولم يصل إلينا من شعره إلا القليلُ، ولو عاشَ لِمَا بَعْدَ هذه الغزوةِ لكَانَ أَغْلَبُ الظنِّ أن يَأْتيَ شعرُه، بعد أن رأى شعرَه أكابرُ الناس من الخليفة وبِطانَتِه، فلَعَلَّهُ استُشْهِدَ في الغزوة، لا أنَّ شعرَه ضَاع، أما شعرُه السابق على الغزوة، فهذا مَظِنَّةُ الضيَاع.

ومما يَجمعُ بين حالِ أبي العيالِ وحالِ عَبْدِ بنِ زُهرَةَ أن الأوَّل كان «مَحْصُورًا هُوَ وَأَصْحَابٌ لَهُ» كما قال السُّكَّرِيُّ، ودام ذلك أشْهُرًا كما ذكر في البيتين ١١، و١٢ من الاستغاثة، فقال:

حَتَّـى إِذَا رَجَبٌ تَجَلَّـى؛ فَانْقَضَى وَجُمَادَيَـانِ، وَجَـاءَ شَـهْرٌ مُقْبِـلُ
شَـعْبَانُ، قَدَّرْنَـا لِوَقْـتِ رَحِيلِهِـمْ تِسْـعًا نَعُدُّ لَهَـا الْوَفَـاءَ فَتَكْمُـلُ

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٢٦.

CamScanner

وأن عَبْدًا ابنَ عمِّه أقام «أَقَامَ لَدَى مَدِينَةِ آلِ قُسْطَنْطِينَ» والإقامة والحصارُ هنا لفظان لمعنًى واحد.

وقد يقوِّي ذاك الاستئناسَ أنَّ أجواءَ الغزو وطُولَ الحصارِ وتَهَاوي المسلمين رَجُلًا بعد آخر كما في قصيدة الاستغاثة مؤذنةٌ باقتراب الأَجَل، وأَشَدُّ ما يملك جَنَانَ المرءِ ساعتَئِذٍ فكرةُ الْخُلُود؛ ولذا يُحَبَّبُ للجُنْد بُعيد الغزو الزواج طَلَبًا لِلْوَلَدِ الذي هو تِمْثَالُ الخلود، ومن تجليات الخُلود للشاعر كتابةُ قصيدةٍ تَبقَى بعدَه في الناس، تحملُ اسمَه، وتُذَكِّر برسمه، وتُصان برَقْمِه، ولعل هذا الباعث كان حافزًا له على كتابةِ استغاثَتِه شعرًا لا نثرًا.

أما سَنَةُ الغزو بالتحديدِ فإنَّ كُتُبَ التاريخ تقدِّم لنا بعضَ المعلوماتِ عنها، فقد بَلَغَتْ جيوشُ المسلمينِ قسطنطينيةَ سنةَ ثلاثٍ وأربعين للهجرةِ بقيادة بُسْرِ بْنِ أَرْطَاةَ، ولم تذكر الكتبُ أنها حاصَرَتْها[1] في تلك السنة، ثم كانتْ غزوةُ المسلمينَ الأُولَى للقسطنطينية في عهد الخليفة معاوية بقيادةِ يَزيدَ ابنِه[2] إمَّا سنةَ تِسعٍ وأربعينَ أو خمسينَ أو إحدى وخمسين أو ثِنْتَيْنِ وخميسن[3]. فلو افترضنا أنهم تحركوا آخِرَ سنةِ تِسعٍ وأربعين، وبلَغُوا القسطنطينيةَ في سنة خمسين، وحاصَرُوا وحُوصِروا زُهَاءَ سَنَةٍ، قبل أن ينقَلِبُوا راجعين، فالقصيدةُ قِيلَتْ عَامَ واحدٍ وخمسين على التقريب.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١، ص١٥٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١، ص٢٥٢. وأخرج ذلك أحمد في مسنده، وهو برقم: ٢٣٥٢٣.

(٣) راجع كلا من:

- أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، ومراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢، ط١، ج٥، ص٢٢٤.
- أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧، ط١، ج٣، ص٥٦.
- ابن كثير: البداية والنهاية، ج٩، ص٢١٧. وأيضًا: ج١١، ص١٨٠، ٣١٠، ٦٤٢.

CamScanner

وبالعودة إلى قُوَّةِ التلفُّظِ بالقَوْل، فإنَّ وَصْفَ السكريِّ لأبي العيالِ بقوله: «وَكَانَ مَحْصُورًا هُوَ وَأَصْحَابٌ لَهُ» يلفتنا إلى تأمُّلٍ في النظريَّةِ الأُوسْتِنِيَّةِ، أتكون قُوَّةُ التلفظ بالقول وصفًا قائِمًا بالْمُنْفِذِ للقَوْل حالَ كَوْنِه مُنْفِذًا له متعلِّقًا بالتلَفُّظِ، أم وَصْفًا قائِمًا به حالَ كَوْنِهِ كذلك ولو لم يَتَعَلَّقْ بالمقول، بل تَعَلَّقَ به المقولُ؟ أي: أَهَذِهِ القُوَّة هي كَوْنُه مَحصورًا؟ أو طريقَتُه في الأداء المتعلِّقَةُ بكَوْنِهِ محصورًا؟ أي: التي حَصَلَتْ لِكَوْنِهِ محصورًا هو أصحابُه؟ وكَأَنَّ الأدقَّ الثاني، والذي الْتَفَتَ إليه أُوستن الأوَّلُ، على ما سبق بيانه في البَابِ النَّظَرِي.

والعنصر الثالث: أَثَرُ التلفُّظ بالقول، أو بالأحرى أَثَرُ إنفاذِه، فقد قال السكريُّ أن معاوية حين أتاه الكتاب: «فَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِكِتَابٍ؛ فَقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ؛ فَقَالَ...» وكان من الممكن أن يقرأه معاويةُ وحدَه، وهنا لا نقف على أثرٍ مرصودٍ، لكن اهتم الراوي بذكر هذا المشهد الجماعي الذي يُنْشِدُ فيه معاويةُ شعرَ أبي العيال على الناس، أي على بَيَاضِ الناسِ والْمَلَإِ منهم، وهم بِطَانَةُ معاويةَ، وأَرْفَعُ بهم مِنْ قَوْمٍ.

وليس من نافِلَةِ القولِ أَنَّ السكريَّ قد عُنِيَ ببيانِ مُفْرَدَةٍ في البيتِ الأوَّلِ، تُوَضِّحُ هذا الأثرَ، حين قال أبو العيال في مطلع القصيدة:

مِنَ ابِي الْعِيَالِ أَخِي هُذَيْلٍ فَاسْمَعُوا قَوْلِـي، وَلَا تَتَجَمْجَمُـوا مَـا أُرْسِـلُ

قال السكريُّ شارحًا الجمجمةَ: «أَنْ يُرَدِّدَ الشَّيْءَ فِي نَفْسِهِ وَلَا يُفْهِمُهُ»، ولو اقتصَرَ على ذِكْرِ التَّرَدُّدِ في الأمرِ لَدَلَّ على معنًى لازمٍ لفعلِ الجمجمةِ الماضي، لكنَّ جملة «وَلَا يُفْهِمُهُ» دلَّتْ على أن معاويةَ بقراءَتِه الجهريَّةِ للقصيدةِ على الناس قد استجاب لِطَلَبِ أبي العيال؛ فإنه لم يحتفظْ بالكتاب لنفسه، ويردِّدْهُ في نفسه كاتِمًا له عن الناس أن يُفْهِمَهُمْ ما فيه، بل أجاب الشاعر لِطَلَبَتِهِ، وأَنْشَدَ شعرَه الناسَ، وهذا أثرٌ له ما بَعْدَه.

فكأن السكريَّ في التمهيد قال: (قال أبو العيال؛ فكَتَبَ، فقرأ معاويةُ؛ فقال)

فكرر الفعل «قال» في طَرَفَي التمهيد، مسنِدًا الأولَ للمُخَاطِب، والآخَرَ للمخاطَب، والخطاب ـ الذي هو المخاطَب به ـ واحدٌ في الفِعْلَيْن، فكأن السكريَّ يَلْفِتُ انتباهَنَا إلى الفعلِ الكلاميِّ الكبيرِ من أَوَّلِ رِحْلَتِهِ إلى آخِرِها.

التَّوْجِيهُ الثَّانِي فِي الْمُقَدِّمَةِ:

والتوجيهُ الآخرُ الذي اشتملت عليه مقدِّمةُ السكريِّ للقصيدةِ كان ذِكْرُهُ لتوظيفِ الخطابِ الشِّعْرِيِّ في الموقف التَّخاطبي، حين نَصَّ على هذا التوظيفِ الذي هو الرسالةُ، حتى يَدْفَعَ التوهُّمَ بأن القولَ كان كِفَاحًا، هذا هو ظاهرُ قولِ الراوي: «فَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِكِتَابٍ».

غير أن معنًى كامنًا في قوله «كتاب» يختَلِفُ عن دَفْعِ التوهُّم هذا، هذا المعنى القائم في نَفْسِ السكريِّ هو الذي حَمَلَهُ على قوله: «فَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِكِتَابٍ» بدلًا من أن يقول: «فَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِقَصِيدَةٍ» وهو تصنيفٌ مِن السكريِّ المصنِّف لهذه القصيدةِ في الديوان، فإن معنَى الرسالةِ ـ الذي ليس يَدور مع الشعر في الأغلب ـ هو المقصود هنا أكثر من معنى القصيدة ـ الذي يدور مع الشعر دائمًا ـ فكأنه ينبه المتلقي أنه سيجدُ شعرًا في قالَبِ رسالة، وأن القالَبَ قد شكَّلَه وغيَّرَ من طبيعته الحُرَّةِ الوَثَّابة للبيانِ الْمُطْلَق عن نَفْسٍ شَعَرَتْ فَفَاضَتْ فَأَلْقَتْ ما فيها وتَخَلَّتْ، إلى بيانٍ مقيَّدٍ بالتحديدَاتِ الْمَرْعِيَّةِ في الرسالَةِ، والسِّماتِ الأسلوبيَّةِ لها، والضوابطِ الخِطابية في إرسالها، والعلاقاتِ الجامعةِ لطَرَفَيْهَا من خَلْفِيَّاتٍ مُتعدِّدَةٍ، وعدمِ اتحادِ الأَوعِيَةِ التداولية المنتظمة لمقامَيْنِ، هما: الأولُ: التأليفُ والإنشاءُ والإِدلَاء، والآخر: التَّحَمُّلُ والقراءَةُ والإِصْغَاء.

ولعل مما ألقى هذا في رَوْعِ الرَّاوِي أن الشاعر قال في البيت الثالث:

وَالْمَـرْءَ عَمْـرًا فَأْتِـهِ بِصَحِيفَةٍ   مِنِّـي يَلُـوحُ بِهَـا كِتَـابٌ مُنْمَلُ

فما سمات الرسالة تلك التي تفارق سماتِ القصيدة وتُقيِّدُها؟

سِمَاتٌ رِسَالِيَّةٌ حَائِطَةٌ:

تعددت السماتُ الحائطةُ التي غَلَبَتْ الخطاب الشعري، حتى حدَّدَتْ حركتَه، وضَيَّقَتْ عليه فضاءَه الشعريَّ الواسِعَ، حتى يُنْجِزَ الْمَهَمَّةَ الوظيفِيَّةَ الْمَنْدُوبَ إليها، ومن هذه السمات:

السمةُ الأولى: ذكر المرسِل والمستقْبِل في صَدْرِهَا؛ فالرسالة المكتوبة نصٌّ قابلٌ لأَنْ يقرَأَهُ كثيرٌ من الناس، فلا بُدَّ فيه من بيان جِهَةِ الصدورِ وجهةِ الوُرُودِ؛ وهذه السمة ظاهرةٌ متبَعَةٌ إلى يومِ الناس هذا، وقد استغرق ذلك من الشاعر ستةَ أبياتٍ، استغلَّ بعضها في مَدْحِ المخاطَبِينَ؛ ليستميل قلوبهم إليه، وقد بدأ بمعاوية ثم ظَلَّ يُضيفُ للمخاطبين فردًا بعد فردٍ كعَمْرِو بنَ العَاصِ وابنَ سَعْدٍ وكلُّهم قُرَشِيٌّ، حتى جعلَ الخطابَ موجهًا لكل من يلقاهم الخليفةُ من أولي الأحلام وأهل الفضل وَمَن نَزَلَ فيهم الكتابُ العزيزُ.

وقد فَوَّتَتْ هذه السمةُ الرساليَّة الضروريةُ على الشاعر أن يبدأ أَوَّلَ ما يبدأ شاقًّا فراغَ الصَّمتِ بصيحةِ مقاتِلٍ، أو صرخَةِ شهيدٍ، أو ما أشبه مما يُضَمِّخُ به فرسانُ الشعراء قصائدَ الحماسة من أَمْوَاهِ النفوس.

والسمة الثانية: الوَجَازَة؛ فنَقْلُ الرسالةِ ليس هَيِّنًا، ولو بالبريد كما جاء في البيت الثاني، بل إن هَوَيَانَ البريدِ الأعجلِ بالرسالةِ أَحْمَلُ للمرسلِ على اختصارِها ما وَجَدَ إلى ذلك سبيلًا، فكيف والحالُ حربٌ وضربٌ، ومَن تَصَفَّحَ مجموعَ الرسائل التي بَقِيَتْ في الأدب العربي من عصر خلافة معاويةَ ـ بل ما بقي من الجاهلية إلى وفاةِ معاوية ـ وَجَدَ هذه السمة مُهَيْمِنَةً على جميع الرسائلِ، حتى لَتَشْتَمِلُ الصفحةُ الواحدةُ على رسالتينِ أو أكثرَ أحيانًا[1].

---

(١) يظهر هذا جليًّا من نظرةٍ عَجْلَى على رسائلِ عهد معاويةَ، مثلاً في:

ـ أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ـ العصر الأموي، المكتبة العلمية، بيروت، بلا تاريخ نشر، لكن المقدمة ممهورة بإمضاء عام ١٩٣٧، ج٢، ص٨-٦٨.

CS CamScanner

وعلى رَحَابَةِ الموضوع الذي يَـئِـنُّ منه الشاعر، نجد الشاعرَ قد اقتصَرَ مضطرًا على ستةَ عَشَرَ بَيْتًا، ذهبَتْ ستتُها الأُولى في السِّمَةِ الأُولَى، وبَقِيَتْ عشرةٌ، تتوزَّعُها السماتُ الباقيةُ، حتى إنَّ الشاعر لَيَسْتَنْقِذُ لِفَنِّه وروحِه الْمُنْهَكَةِ من بين أقطارِ القصيدة الستةَ عشرَ خمسَةَ أبياتٍ أو ستةً على الأَكْثَر، بيد أنه يجعل بها من الرسالة سَيِّدَةَ الرسائل، في طُغْيانِها وسُلْطَتِها وتصريفِها لقلوبِ الْمُتلقِّين كتصريفِ الرِّيَاح.

والسمة الثالثة الأخيرة: تَضَمُّنُ البياناتِ؛ فالرسالة تقوم بمهمة إجرائية إخبارية، خاصة حينما تكون العلاقة بين طرفيها هي علاقةُ الجهةِ الإداريةِ العُلْيَا بجهةٍ إداريةٍ أدنى، وحينما تكون أيضًا تَبَصُّرُ القائدَ العسكريَّ الأكبرَ بحالةِ قطعةٍ من الجيشِ تجالِدُ العدوَّ على ثَغر من ثغور الدَّوْلَة.

وقد اشتَمَلَتْ الرسالةُ على ثلاثةِ أنواعٍ من البيانات:

١ـ بيانات رقْمِية، وهي بيانَاتٌ يصعبُ عادةً التآمُها على أَقْرَاءِ الْعَرُوضِ الشِّعْرِيِّ، مِن ذلكَ قولُ أَبي العيالِ في تحديدِ مدةِ الحصارِ:

حَتَّى إِذَا رَجَـبٌ تَجَلَّى؛ فَانْقَضَى ... وَجُمَادَيَـانِ، وَجَـاءَ شَـهْرٌ مُقْبِـلُ
شَـعْبَانُ، قَدَّرْنَـا لِوَقْـتِ رَحِيلِهِمْ ... تِسْـعًا نَعُـدُّ لَهَـا الْوَفَـاءَ فَتَكْمُـلُ

٢ـ بيانات مكانية: وكانت عن موقع المعركة، وهو ديارهم من جانب الأَمْرَاجِ، ويبدو أنه موضعٌ كانَ معروفًا عند القوم حينَئِذٍ؛ يَدُلُّ على ذا أنَّ بعضَ الشعراء ذكروه في شعرهم(١).

٣ـ بيانات عن حركة العَدُوِّ: وقد استعرض ذلك الشاعرُ في البيت الرابع عشر حين قال:

فَاسْـتَقْبَلُوا طَرَفَ الصَّعِيـدِ إِقَامَةً ... طَـوْرًا، وَطَـوْرًا رِحْلَـةً؛ فَتَنَقَّلُـوا

(١) من هؤلاء الشعراء: الأسود بن يَعْفُر، نَقَلَ شعره يَاقوت، ولم يَعْرِفْ أينَ الأَمْرَاج:
ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٥٢.

الْمُعْتَادُ فِي عَلَاقَةِ الرَّسَائِلِ بِالشِّعْرِ:

في هذا العصر كانتِ الرسائل النثريةُ لا تتلبس بالشعر إلى فيما شَذَّ ونَدر، وهذا التلبس يتراوح بين أنواع:

النوع الأول: التمثيلُ بأبياتٍ من شاعر غير صاحب الرسالة، ومثال ذلك ما أرسله عبدُ الله بنُ عباسٍ إلى معاوية قائلًا:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ وَدَسَّكَ أخا بَنِي القَيْنِ إلى البَصْرَةِ تَلْتَمِسُ من غفلاتِ قُرَيشٍ مثلَ ما ظفِرْتَ به مِن يَمانِيَتِكَ لكما قال أميةُ بن الأَسْكَر:

١ـ لَعَمْرُكَ إِنِّـي وَالْخُزَاعِـيَّ طَارِقًا ... كَـنَعْجَـةِ غَـادَتْ حَـتْفَهَـا تَـتَحَفَّـرُ

٢ـ أَثَـارَتْ عَلَيْهَـا شَـفْرَةً بِكُرَاعِهَـا ... فَظَلَّـتْ بِهَـا مِـنْ آخِـرِ اللَّيْـلِ تُنْحَـرُ

٣ـ شَمِتَّ بِقَوْمٍ هُمْ صَدِيقُكَ أُهْلِكُوا ... أَصَابَهَـمُ يَـوْمٌ مِنَ الدَّهْرِ أَعْسَـرُ»[1]

ومنه رَدُّ معاويةَ عليه[2]، وردُّ معاويةَ على الحسنِ بن عَلِيٍّ[3].

النوع الثاني: تذييل الرسالة بأبيات من صِنَاعةِ الْمُرْسِلِ، وهذا الصنيع لم يَشْغَلْ مساحةً كبيرةً من رسائلهم، لشدة اختصار الرسائل، وتقصيرِها عن معاني التَّفَنُّنِ في الصياغة، ومن ذلك ما رَدَّ به معاويةُ على الحسينِ بنِ عليٍّ حين وَجَدَ الحسينُ عِيرًا تحمل مالًا وحُلَلًا وعَنْبَرًا وطِيبًا جاءت من اليمن إلى دمشق، ومَرَّتْ به؛ فأَخَذَها، وكتب لمعاوية بذلك في غِلْظَةٍ؛ فكتبَ معاويةُ ـ وهو الخليفة ـ له يُؤَنِّـبُه ويَنْزِلُ عنها لَهُ، ثم بَعْدَ أن أَتَمَّ مرادَهُ نثرًا، أردَفَهُ بأبياتٍ هو صانعها، قال فيها:

١ـ يَـا حُسَـيْنُ بْنَ عَلِـيٍّ: لَيْسَ مَا ... جِئْـتَ بِالسَّـائِغِ يَوْمًـا فِـي الْعِلَلْ

---

(١) أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب، ج٢، ص١١.

(٢) أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب، ج٢، ص١١-١٢.

(٣) أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب، ج٢، ص١٠.

CS CamScanner

٢ـ أَخْذُكَ الْمَالَ وَلَمْ تُؤْمَرْ بِهِ ... إِنَّ هَذَا مِنْ حُسَيْنٍ لَعَجَلْ

٣ـ قَدْ أَجَزْنَاهَا وَلَمْ نَغْضَبْ لَهَا ... وَاحْتَمَلْنَا مِنْ حُسَيْنٍ مَا فَعَلْ

٤ـ يَا حُسَيْنُ بنَ عَلِيٍّ ذَا الْأَمَلْ ... لَكَ بَعْدِي وَثْبَةٌ لَا تُحْتَمَلْ

٥ـ وَبِوُدِّي أَنَّنِي شَاهِدُهَا ... فَأُلِيهَا مِنْكَ بِالْخُلُقِ الْأَجَلْ

٦ـ إِنَّنِي أَرْهَبُ أَنْ تَصْلَى بِمَنْ ... عِنْدَهُ قَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلْ[1]

وتَتَّضحُ هنا قيمةُ الاعتمادِ على الشِّعر في الرسالة، حيث جاء مع النثر لا مستقلًّا بها، وجاءَ آخِرًا لا أَوَّلًا، وجاء بَعْدَ تمام البيانِ مؤكدًا لا مُؤَسِّسًا، فَهو في قُوَّةِ النَّفْلِ، وَمِثلُ هذه الرسالةِ ما أرسله زيادُ بن أبيه إلى معاويةَ[2]، وما رد به معاويةُ على زيادٍ[3].

النوع الثالث الأخير: أن تكون الرسالةُ كلُّها شِعْرًا، وهذا أَنْدَرُ من الأَوَّلَيْن، كرسالة معاوية إلى عبدِ الله بنِ الزبير:

١ـ رَأَيْتُ كِرَامَ النَّاسِ إِنْ كُفَّ عَنْهُمُ ... بِحِلْمٍ رَأَوْا فَضْلًا لِمَنْ قَدْ تَحَلَّمَا

٢ـ وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ عَفْوًا بِقُدْرَةٍ ... فَذَلِكَ أَحْرَى أَنْ يَجِلَّ وَيَعْظُمَا

٣ـ وَلَسْتَ بِذِي لُؤْمٍ فَتُعْذَرَ بِالَّذِي ... أَتَاهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ مَنْ كَانَ أَلْأَمَا

٤ـ وَلَكِنَّ غِشًّا لَسْتَ تَعْرِفُ غَيْرَهُ ... وَقَدْ غَشَّ قَبْلَ الْيَوْمِ إِبْلِيسُ آدَمَا

٥ـ فَمَا غَشَّ إِلَّا نَفْسَهُ فِي فِعَالِهِ ... فَأَصْبَحَ مَلْعُونًا وَقَدْ كَانَ مُكْرَمَا

٦ـ وَإِنِّي لَأَخْشَى أَنْ أَنَالَكَ بِالَّذِي ... أَرَدْتَ؛ فَيُخْزِي اللهُ مَنْ كَانَ أَظْلَمَا[4]

---

(١) أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب، ج٢، ص٢٦.

(٢) أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب، ج٢، ص٣٥-٣٦.

(٣) أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب، ج٢، ص٣٨-٣٩.

(٤) أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب، ج٢، ص٥٦.

CamScanner

هذه حال الرسائل مع الشعر عمومًا، أما في بني هذيلٍ فالأمر مختلفٌ؛ إذ تكثر النقائض والمعاتبات التي تدور بينهم، وما أَجْرَى القريضَ على ألسنَتِهم! فتقف على ثمانيةِ نصوصٍ شعريةٍ بين أبي العيالِ وبدرِ بن عامرٍ كلُّها على رَوِيِّ النونِ المكسورة المردَفِ بالياءِ أو الواو متعاقبتين على الرِّدْفِ، من بَحْرِ الكامل[1]، وحَدِّثْ ولا حَرَجَ عمَّا كان بين صَخْرِ الغَيِّ وأبي الْمُثَلَّم اللذَيْن جعلَ السكريُّ شعرَهما في بابٍ واحدٍ؛ «لأن بينهما نقائض»[2] وأبي ذَرَّةَ الهذليِّ، ورسالة التهديد عند أبي جُنْدَبٍ[3]، والْمُثُل على ذلك جَمَّةٌ وافرةٌ.

ومِن هذا يتضح لنا أن الشعريةَ مَزِيَّةٌ اختصت بها هذه الرسالة على نَدرة في ذلك؛ مما كَسَبَهَا سُلْطَةً أفْعَلَ في المتلقين، ومن ذي السلطة أنَّ في المتلقين ـ وعلى رأسهم معاوية ـ مَن كان يكاتب بالشعر أيضًا؛ فهو رجل يَقْدُرُ لذلك قَدْرَه الرفيعَ، وهو أحرى أن يتأثر به، وهذا يَدُل ابتداءً على أن الشاعر بوصفه مشاركًا في الموقف التخاطبي قد نجح في تحقيق الغرض الإنجازي من مشاركته الخِطابية في ضوء مقصديته.

الْغَرَضَانِ: التَّدَاوُلِيِّ الْوَظِيفِيِّ، وَالتَّدَاوُلِيِّ الْأَدَبِيِّ:

تَظهر مزيةُ أن يكون الخطاب شعريًا حين يتخيرُ المتكلم من طاقاتِ الشعر المتاحة ما ينقُل به عاطفتَه محمولةً فوق المتلفَّظ الذي ينقُل فكرته من حيث هي فكرة، مع الانتظام العروضي الذي بُطِّنَتْ به ألفاظ الرسالة[4].

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٠٥، الباب: ٨، وقد قدمت باحثةٌ قراءةً مهمة نافعة لنموذج الرسالة في بعض هذه الأشعار، راجع إن شئتَ:

ـ أسماء عبد المطلوب نوري السيد: النزعة القصصية في شعر الهذليين، رسالة ماجستير في قسم الأدب بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، بإشراف: حبيب حنش الزهراني، ١٤٢٤ه، ص١٤١-١٤٥.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢٤٣، الباب: ٣.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣٨٩.

(٤) يَلُوحُ بالاستقراء الأول للديوان بلا تَعَمُّقٍ حادثةٌ رُوِيَتْ لسيدنا عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه =

فيكون الفعلُ الكلاميُّ الكبير ـ الذي هو هنا إرسالُ الرسالة ـ له معنًى كلّي وظيفي، مفاده: أَدْرِكْنا بمَدَدِ الجندِ يَا أميرَ المؤمنين! ويكون في داخل بنيته اللغوية ما يستكمل أركانَ الرسالةِ التي سَبَقَ بيان أن أركانها تُناسِبُ النثرَ أكثرَ من مناسبتها الشعرَ، مصحوبًا بمقصدية أعمقَ للقائل، فيها يَبُوح بما يحزِبُه، وينادي مناداةً يقصد بها البثَّ من جهة، ويقصد بها الرغبةَ في أن يَستمع إليه أحد وأن يصلَ كلامُه لأذنٍ أيِّ أذنٍ من جهة أخرى، فضلًا عن أن يقصد بها الاستغاثة التي تجر نفعًا ماديًّا.

فتحقيق الغرضين الأَوَّلَيْنِ وحدهما يعد إنجازًا تداوليًّا أدبيًّا، طريقه الأول هو الشعر، وقد آثره المتكلِّمُ؛ لأن الشعرَ يحملُ عنه، ويؤدي عنه، ويقوم به، بخلاف النثر الرِّسَالِيِّ، وهذا هو السببُ الذي جعل الناس ـ الذي هم أهلُ العلم بالشعر ـ يَرْوُونَ القصيدةَ في شعر أبي العيال، وهذا هو السببُ الذي جعل القصيدة تُرْوَى في غير معرِض غزوةٍ، فقد صارت أصلًا، وصار ذِكْرُ الموقِف وملابساته تَبَعًا لها، وهذا سببُ أنها لم تصل إلينا ـ فيما نعلم ـ القصيدةُ في كتب التاريخ أو كتب الرسائل الأدبية، بل في مجموع شعري هو أَقْدَمُ مجموع شعريٍّ وصل إلينا لِقبيلة.

وهذا نظر إجمالي إلى سُلطةِ الخطاب من حيث كونُه شعريًّا، يستدعي نظرًا تفصيليًّا في اختصاصات هذا الشعرِ، التي شاركتِ اختصاصاتِ الرسالةِ في قصيدة واحدة، فكيف وَزَّعَ أبو العيال قصيدتَه الرسالةَ بينهما؟ وهل استقل كلٌّ منهما بأَحَدِ طرفيها: الأوّل والآخِرِ؟

يظهر مِنَ استعراضِ السِّماتِ الرسالية الحائطة أن الغرضَ التداوليَّ الوظيفيَّ للرسالة شاركتْ في تحقيقه الأبياتُ التالية:

(١-٢-٣-٤-٥-٦-٧-١١-١٢-١٤)

= في مجلسه تمثل الاستغاثة الدعائية بالشعر وأثرها العاجل، وهي أبيات دعائية قليلة لشعراء أربعة كلهم من هذيل منهم عِيَاض بن خُوَيْلِد وقَيْسِ بن العَجْوَة، وانظر: السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩٠٣-٩٠٦.

CamScanner

وأن الغرضَ التداوليَّ الأدبي شاركتْ في تحقيقه الأبياتُ التالية:

(٨-٩-١٠-١٣-١٥-١٦)

هذا على الجملة، وإلا فعلى التفصيل نجدُ البيتَ الثاني عشر قد اشتملَ في أكثره ذكرًا لتوقيتَاتٍ مفيدةٍ عسكريًّا، لكنَّ فيها لفظًا هو: «نَعُدُّ» وهو فعل مضارع مسندٌ لضميرٍ هو الفاعل، تقديره «نحن» ويدُلُّ على طول زمن العَدِّ على العَادِّين، وانتظارهم المرير لانجلاء المعركة وانتهاء الحرب القاسية، يقول الرجل:

شَـعْبَانُ، قَدَّرْنَـا لِوَقْـتِ رَحِيلِهِـمْ   تِسْـعًا نَعُـدُّ لَهَـا الْوَفَـاءَ فتكْمُـلُ

وبهذا يَبِينُ أن الغرضَيْنِ التداوليَّين تقسَّمَا القصيدةَ، ولم يستقلَّ كلٌّ بطَرَفٍ، ولكن غَلَبَ كلٌّ منهما على طَرَفٍ، وقَدَّمَ أبو العيال الغرضَ الوظيفيَّ على الأدبي، وانتقل من الأول إلى الثاني بالتدريج، حتى خرج من القصيدة مع انتهاء أبيات الغرض الأدبي.

الْحُمُولَةُ الِانْزِيَاحِيَّةُ الْمُسْتَلْزَمَةُ:

هذا الغرضُ الأدبيُّ المصطَحَب في القصيدة هو إِذَنْ سِرُّ حُسْنِها وتميُّزِها على سائر أفرادِ جنسِ الرسائل، فالرسالة البارعةُ بها أركانُ الرسالةِ ككلِّ رسالةٍ، ولها تميُّـزٌ مصدَرُه الشعر، تفوق بها كلَّ رسالة.

وَمِنْ أجل ذلك عَمِدَ أبو العيالِ إلى إحداثِ الفَرْقِ بين المنصوصِ عليه والمعنى المستنتَج؛ فبعد أن كانَا مُتَّحِدَيْنِ في قوله: «أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ صَخْرٍ ... وَالْمَرْءَ عَمْرًا ... وَإِلَى ابْنِ سَعْدٍ...» في أوائل الرسالةِ، صارَا مُفْتَرِقَيْنِ في أواخرها، كقوله: «حَرْبٌ يَكُونُ حِلَابُها عَلَقًا» وهذا الانزياح هو الذي أضافَ للخطاب الشعري سُلْطَةً أخرى؛ لأنه هو المعبِّر عن الحمولة الدلالية الموافقة للمقصدية الأدبية من حيث هي أدبية.

وفي تتبع الانزياحَات ومَا وَلَّدَتْهُ من معانٍ مستلزَمةٍ لها، تِلكَ الحمولةُ الدلالية

CamScanner

الأدبيةُ غيرُ المباشرةِ تُظْهِرُ ما أنجزَهُ الشاعر باستعمال الأدواتِ الشعرية البيانية لتحقيق غَرَضِهِ، وهاتيكَ مواضِعُ الانزياحِ الدلاليِّ المحدِث للاسْتِلْزَام:

قال أبو العيال:

فِـي كُلِّ مُعْتَـرَكٍ تَـرَى مِنَّـا فَتًـى ... يَهْـوِي كَعَـزْلَاءِ الْمَـزَادَةِ تُزْغِـلُ

المعنى الصفري: في كل مُنَازَلَةٍ حربيةٍ بيننا وبين الأعداد، يَسقُط منَّا جُندِيٌّ، كما ترى فَمَ قِرْبَةِ الْمَاءِ[1] تَمُجُّ دُفعَةً دُفعَةً[2].

ويتولَّدُ الاستلزامُ مِن كَوْنِ هذه الحمولةِ الدلاليةِ الصريحَةِ لا تناسبُ مقامَ القصيدة بأيِّ وَجْهٍ، فَيَنْتَقِلُ وجوبًا استنتاجُ معنى المشاركةِ الخِطابية إلى حمولةٍ دلاليةٍ انزياحية، هي: أنَّ تَشْبيهًا قام بين طرفين، الأول: هو حالة تَكرار التساقط السريعة التي تحصل في صفوف جنودنا بل في فِتيَان جنودنا دونَ غيرِهم، وهو عَصَبُ الجيشِ وأقوى ما فيه. والآخَر: هو حالةُ إخراجِ القِرْبَةِ لما فيها من ماءٍ على دُفُعَاتٍ مُتَتَابِعَة.

ولأنه تشبيهُ حالةٍ بحالةٍ فهو تشبيهُ تمثيلٍ؛ إذْ كانَ وجهُ الشبهِ فيه مُنْتَزَعًا من متعدِّدٍ، فهو تشبيهُ مشهدٍ متحرِّكٍ بمشهدٍ متحرِّكٍ آخر، يتفق فيه وجهُ الشَّبَه من جوانِبَ متعدِّدَةٍ، بحيث لو أُنْشِئَ معْتَمِدًا على أحدِها مستقلًّا لكفاه وقام به، وهي:

١ـ الفتى ودُفعة الماء النازلة من عَزْلَاءِ الْمَزَادَة يَهوِيَان بسرعة إلى الأرض.

٢ـ وهُوِيُّ الفِتْيَانِ متكررٌ، دَلَّ على تَـكرُّرِه كلمةُ (كل) في قوله: «في كل معترك» وكذلك نزول زُغلات الماء من المزادة متكرر؛ لأنه لما ذَكَرَ أنها تُزغل دَلَّ على أنَّ

---

(١) جاء في اللسان عن المزادة أنها: «هِيَ الظَّرْفُ الَّذِي يُحْمَلُ فِيهِ الْمَاءُ كَالرَّاوِيَةِ وَالْقِرْبَةِ وَالسَّطِيحَةِ» مادة (ز.و.د).

(٢) جاء في اللسان: «زَغَل الشيءَ زَغْلاً وأَزْغَلَه: صَبَّهُ دُفَعاً ومَجَّهُ ... وزَغَلَت المَزادةُ مِنْ عَزْلائها: صَبَّتْ ... أَزْغَلَ مِنْ عَزْلاء المَزادة الماءَ إذا دَفَقَه». مادة (ز.غ.ل).

CamScanner

عَزْلاءَهَا هي فَتْحَتها التي تلي الأرضَ لا العُلْيَا، والعَزْلَاءُ هي فَمُ المزادة الأسفلُ[1]، ولو كان فَمُها الأعلى لتَتَحَتْ[2] ولم تُزْغِل إلا بِقَلْبِهَا، وليس كذلك، ودَلَّ أيضًا على أنها ممتلِئَةٌ ماءً، فلو شَوَّلَتِ المزادةُ[3] أو لم يَبْقَ بها سُوى رَفْضٍ[4] يسيرٍ أو فَضْلَةٍ[5] لَمَذَعَتْ به[6] سائلاً ولم تُزْغِل، ودَلَّ هذا الامتلاء على تكرر مَجِّها لدُفُعات الماء.

٣ـ اتجاهُ الْهَوَيَانِ وغايته في حالة الفِتيانِ هي الأرض حيث الموت وعدم الانتفاع بهم في الحرب، وكذلك اتجاه الْهَوَيَانِ وغايته في اندفاعات الماء إلى الأسفل، أي: الأرض حيث الضياع وعدم النفع أيضًا.

٤ـ إذا تكرر هُوِيُّ الفتيانِ في كلِّ معتركٍ يَكاد يفنَى الجندُ وإذا تكرر إزغال عزلاءِ المزادة تكاد تَفْرُغُ المزادةُ، فهو إيذانٌ بِدُنُوِّ النهاية.

٥ـ الْمُشَبَّهُ والْمُشَبَّهُ بِهِ كلاهما خَيْرُ جِنْسِه، فالفتيُّ في الجندِ هو أقواهم وخيرهم قتالًا وكذلك الماءُ في الموائع هي خيرُها بل هو الحياة عند العرب.

ويَدُلُّ على سلامةِ هذا الفهم للحمولة الانزياحية في هذا التمثيل أن السكريَّ نفسَه حين شرح لفظةَ (تُزْغِلُ) في البيت قال: «تَدْفَعُ بِالدَّمِ» ولم يقل تدفع بالماء، والمزادةُ إنما تُجْعَلُ للماءِ واللبَنِ والنَّبِيذِ[7] وما أشبه ذلك من الموائع التي يُنتفع بِشُرْبها، لا الدَّم،

---

(١) قاله في اللسان، والجمع عَزَالِي، مادة (ع.ز.ل).
(٢) جاء في اللسان: «ونَتَحَت المَزادةُ تَنْتِحُ نَتْحًا ونُتُوحًا، وَكَذَلِكَ خُرُوجُ العَرق» مادة (ن.ت.ح).
(٣) قال في اللسان: «يُقَالُ: شَوَّلَت المزادةُ إذا قَلَّ مَا بَقِيَ فِيهَا مِنَ الْمَاءِ». مادة (ش.و.ل).
(٤) جاء في اللسان: «الرَّفْضُ والرَّفَض مِنَ الْمَاءِ واللبَن: الشَّيْءُ الْقَلِيلُ يَبْقَى فِي القِرْبة أَو الْمَزادةِ وَهُوَ مِثْلُ الجُرْعةِ» مادة (ر.ف.ض).
(٥) في اللسان: «وَالْعَرَبُ تَقُولُ لبقيَّة الْمَاءِ فِي المَزادة فَضْلة» مادة (ف.ض.ل).
(٦) في اللسان: «الْمَذْعُ: سَيَلانُ المَزادةِ» مادة (م.ذ.ع).
(٧) ويكون الانْتِباذ فِي الْمَزادةِ الْمَجْبُوبةِ الَّتِي قُطِعَ رأسُها، وَلَيْسَ لَهَا عَزْلاءُ مِن أَسْفَلِها يَتنَفَّس مِنْهَا الشَّرابُ، راجع اللسان مادة (ج.ب.ب).

والرَّواية بحرف المضارعة التَاء لا اليَاء، ولعل السكريَّ لِفَرْطِ تأثُّرِه بالحمولة الدلالية الانزياحية في تشبيه التمثيل[1] تَوَهَّمَ المزادةَ تُزْغِلُ دمًا من دَمِ الفَتَى، وكأنه هو الذي يُزغِلُ دمًا، فتداخَلَتِ الصورتانِ عنده، فقال: «تَدْفَعُ بِالدَّمِ» ولم يقل: «تدفع بالماء».

ولكي يَستكملَ أبو العيال المشهدَ بالنظر إلى سائر الجندِ من غيرِ الفِتيَان كالكهول مثلًا، فإنه يَعُودُ إلى المشَبَّه مرةً أخرى ليأتي بسائر أقسام المشبهات، ويعتمد على أداة العطف «أو» مرتين، وهي للتنويع والتقسيم، فَيَعُمُّ بالأقسام جميع المشهد القتالي قائلًا:

أَوْ سَـيِّدًا كَهْـلًا يَمُـورُ دِمَاغُـهُ   أَوْ جَانِحًا فِي صَدْرِ رُمْحٍ يَسْـعُلُ

وهنا انصرفَ الشاعرُ في تعبيرِه عن صفاتِ القتل من التشبيه إلى التَّكْنِيَة، فكانت الكنايةُ عن صفةٍ، وهي كنايةٌ حقيقيةٌ لا مجازيةٌ[2]، لكنها كنايةٌ حقيقيةٌ ناطقةٌ بما هو أكثر

---

(١) انظر في اختلاف البلاغيين في معنى التشبيه والتمثيل مع النص الهذلي:
ـ محمد الحسن علي الأمين: الصورة البيانية في شعر الهذليين دراسة وتحليل ومقارنة، رسالة دكتوراه في البلاغة في كلية اللغة العربية، بجامعة أم القرى، بإشراف: عبد الفتاح لا شين، ١٤١٠هـ، ص٢٨-٣١.

(٢) اختلف البلاغيون في الكناية أهي حقيقة أم مجاز؟ على أربعة مذاهب:
ـ الأول: ليست منهما في شيء، وهو قول السكاكي وتبعه القزويني في التلخيص.
ـ والثاني: هي مجاز مطلقا، وهو مفهوم من تعريف الزمخشري لها.
ـ والثالث: هي حقيقة مطلقا، وهو قول الكوراني والعز بن عبد السلام وغيرهم.
ـ والرابع الأخير: هي حقيقة إن استعمل اللفظ في معناه الموضوع له أوّلًا مع إرادة لازمه، وتكون مجازا إن لم يرد المعنى الحقيقي وعبر بالملزوم عن اللازم، وهو قول المرداوي وابن النجار والحنابلة، وهو مذهب الباحث.
راجع في ذلك:
ـ أبو يعقوب يوسف السكاكي: مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، تصحيح: محمد كامل بن محمد الأسيوطي الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧، ص٤٠٣.
ـ أبو القاسم محمود جار الله بن عمرو الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧هـ ط٣، ج١، ص٢٨٢. =

من المعنى الصفري، فالمعنى الصِّفْرِيُّ للبيت هو: أنك تَرَى رَجُلًا شيخًا تَرَهْيَأُ[1] رَأْسُه؛ فَيَتَحَرَّكُ ذهابًا وجِيئَةً، وترى غيرَه مائلًا دَانيًا من الأرض في مقدمة رُمْحٍ يَسْعُلُ من فَمِهِ.

وبجوار هذا المعنى ـ وإن كان مقصودًا ـ معنًى آخر يمتدُّ إليه الإدراكُ المستخلَص من البيت، هو تنوُّع القتلِ الرائعِ المفزِعِ فيهم على كل شَتِيتٍ من الصُّوَر، فذاك قد انكسرت جُمْجُمَتُهُ؛ فأجزاؤها تتحرك في عدد من الاتجاهات معًا قبل أن تصل إلى الأرض، وهُوَ مَن هُو! سيِّدٌ في الناس، كان ذَا عِزٍّ ومَنَعَة؛ فأَسْلَمَتْهُ الحربُ للمنون والضَّعَة، فمِن بينِ قوله: «سيد كهل» وقوله: «يمور دماغُه» ينبجس معنى الشَّفقةِ والرحمة والعطف على ذلك العزيز المذلول، والمنيعِ المبذُول، في إحالةٍ على حديثِ سيدِنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم بَعْدُ أصحابه رواة أحاديثه: «ارْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ»[2].

أما الكناية الحقيقةُ الثانية، فهي عن الصفةِ عينِها، وهي المقتوليَّةُ، فإنها تشير

= ـ شيخ الإسلام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، دار الفكر، دمشق، ص٨٥.

ـ ابن النجار: شرح الكوكب المنير، ج١، ص١٩٩، ٢٠٠.

ـ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٣، ج١، ص٢٦٦.

ـ أبو الحسين أحمد بن فارس: الصاحبي، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت ١٩٦٣، ص٢٦٠.

ـ يحيى بن حمزة بن علي العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، القاهرة ١٩١٤، ج١، ص٣٦٤-٣٧٩.

(١) جاء في اللسان: «مَارَ الشيءُ يمورُ مَوْرًا: تَرَهْيأَ أي تَحَرَّكَ وَجَاءَ وَذَهَبَ» مادة (م.و.ر).

(٢) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: المدخل إلى السنن الكبرى، تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ص٣٩٤، برقم: ٦٩٩، وأسنده للفضيل بن عياض، وقال بعده: «وَرُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَوْجُهٍ كُلُّهَا ضَعِيفَةٌ» والمراد هنا إثبات الحديث للرسول صلى الله عليه وسلم ولا يعنينا حال سنده.

CamScanner

لطريقةٍ أخرى من القتل، وهي شَبَاةُ الرمحِ المذلَّقةُ قد اخترقَتْ صدْرَ جنديٍّ؛ فمَادَتْ به الأرضُ حتى آلَ جانِفًا جانِحًا والحال أن الدَّمَ قد مَلأَ مَرِيئَه وفَمَه، حتى صار يَسْعُلُ دمًا، ويدُلُّ على صحة هذا الفَهم أن السكريَّ قد فسر السُّعال في البيت قائلا: «يَسْعُلُ لِأَنَّهُ يَشْرَقُ بِالدَّمِ» والعادة أنه يفسر اللفظة بحسَب استعمالها في البيت أكثرَ من تفسيرِه لها من حيث هي في اللغة، والتداوليُّ لا يُسَلِّم أَصْلًا أن للفظة معنًى أو دلالةً من حيث هي في اللغة، أي: قبل الاستعمال، وإنما تفيد معناها بحسب الاستعمال والحملِ لا غيرُ.

ويلاحَظ في التشبيه والكِنايَتَين أنها جميعًا لحالات جندٍ حالَ قَتْلِهم وقبل ركودِ أجسادهم على الأرض، وإنما هي حالة الْخَـــرِّ من علوٍّ.

بُلُوغُ الذُّرْوَةِ فِي التَّخْيِيلِ:

وَضَحَ مما سبق من انزياحاتٍ أنها جميعًا انزياحاتٌ حِسِّيَّةٌ، فالتشبيهُ الأول طرفاه حِسِّيَّانِ لا عقلِيَّانِ، والكنايتان حقيقيتان حسيتان، والتخييل فيهما محدود بالانتقال بين الحسيات، وسيأتي في آخر القصيدة تشبيهُ نِصَالِ النِّبالِ بالسُّنْبُل، وتشبيه الرماح بأشطان البئر، وجميع ذلك أطرافه حسية، كما أنها جميعًا تشبيهاتٌ تحقيقية، أي: أن جميع وجوه الشبه فيها حقيقية في جميع أطرافها، بلا مجاز في قيام وجه الشبه بأحد الأطراف.

والبيت العروس المفارقُ لكل ذلك علوًّا وسموًّا هو البيت الثالث عشر، حيث يحتوي استعارتين تخييليتين تمثيليتين، وهما الذروةُ في بناءِ الخطاب الشعريِّ وتحصيلِ سُلطته، فَبَعْدَ أن ذَكَرَ أبو العيال طُولَ الحصارِ أشهرا عددًا تجاوزَتْ طاقتهم وما قَدَّرُوهُ له حتى ينجلي وينجاب قال:

وَتَجَـرَّدَتْ حَرْبٌ، يَكُونُ حِلَابُهَا عَلَقًـا، وَيَمْرِيهَـا الْغَـوِيُّ الْمُبْطِلُ

وقد اشتمل البيتُ على مفاجآت، منها أنهم بعد أن قدَّروا موعدًا لرحيل عدوِّهم، وانتظروه وعدُّوا الشهور شهرًا شهرًا والليالي ليلةً ليلةً، إذا العدو يغتُّهم بحربٍ لا

CamScanner

بانكسارٍ ولا بِسِلْم، فاحتملَتْ الواوُ في صدر البيت معنى استئناف الحرب من جديد، وكأنها عادت جَذَعَة طاحنةً، بعد أن ظنوها انتهت أو تكادُ، ومعنى العطفِ على بُؤسِ الانتظار والصبر النازف ببؤسِ تخلُّفِ المنتظَر وتبدله بضدِّه، والواو هنا تتقلب بين المعنيين حَيْرَى بلا هوادة؛ فلا تصفو لأحدهما من بؤْسِ ما حملته للسامع.

ثم جاءت الاستعارة الأولى، وقد يصفها البلاغيون المتأخرون بأنها استعارة بالكناية، في قوله: «وتجردت حرب» وهذه الكناية تعني أن الشاعر قدَّر في نفسه تشبيهَ الحرب بالمرأة الواضحة المتجرِّدة من ثيابها وسِترها، فأخفى المشبه به، وكنى عنه بلازمه وهو الفعل «تجردت» فالكناية هنا وصف لعلاقة لفظ الاستعارة «تجردت» بالمعنى المقدَّر في النفس «ذات اللباس المستورة»، وهذا لا يعدو انتقالًا متدرجًا، غايةُ ما فيه تناسي التشبيه من جهة الشاعر؛ ليترك للمتلقي اكتشافه واستدعاءَه بتأمل الحقول الدلالية المعجمية المتشابكة مع لازِمه، ويرى الباحث أن هذا الوصف «الاستعارة بالكناية» أو «الاستعارة المكنية» باخِسٌ لفضل الاستعارة كلَّ البَخْس، يسوؤها كل السُّوء، وإن ساعد تعليميًّا ضِعافَ المخيلة ممن يدركون بالحس دون الحدس، ويقتصرون على البصر دون البصيرة، فلا قدرة لهم على تذوق التخييل.

بينا يطلق عليها آخرون الاستعارة التخييلية، وهو بهذا يلحظ فيها إثبات لازم المستعار منه للمستعار له، وهو هنا مفارقٌ لمعنى التشبيه كلَّ المفارقة، فليس تشبيها متناسًى بل هو تخييل مباشر، يقطع الانتقال التدريجي بين الحرب والتجرد بواسطة المرأة ذات الستر واللباس، فيجعل التوهم أعلى فَوْرَة، والتخيلَ أَحَدَّ أَصْوَبَ أَرْفَعَ، من خلال المفاجأة التي تطالب السامع بملاحقتها والتخلي عن تصوره الوضعي للمستعار له بوصفه حقيقةً أو بوصفه مُشَبَّهًا بغيره، فهي إذن مطالبة من الشاعر للسامع أن يَلْحَقَ به في تَرَقِّيهِ إلى الأعلى في تكوين صورة جديدةٍ متخيلة، لا ترتكز على تقديرٍ مضمَرٍ للمشبَّهِ به؛ لأنه يعامل الطرَف الأول معاملة المستعار له لا المشبه ولا المسند إليه الحقيقي.

CamScanner

فالشاعر الصادق فنيًّا كأبي العيال يرى الحرب تتجرد ببصيرته، يدرك ذلك إدراكًا حقيقيًّا لا متكلفًا، إدراكًا ليس هو صانعُه، بل هو مقهورٌ فيه، مجبورٌ عليه، لا يستطيع رَدَّهُ عن نفسه، كإحساس المرءِ بالوجدانيات كالجوع والعطش، فهنا هو إحساسه بتجرد الحرب واضحةً عريانةً بارزةً كإحساس كلِّ مقاتل فيها بالخوف والذُّعْر والفَرَق، سواء بسواء، فما يسميه البلاغيون مجازًا هو حقيقة عند الشاعر، وعند من يحسِن تمثُّل الشعرِ وتَذَوُّقَهُ وتلقِّيه، ومن تمام ذلك أن توصف هذه الاستعارة بالتخييلية لا بالمكنية[1]، وإن وقع الوصفان على ذات واحدة، لكن تعددَتِ العباراتُ بتعددِ الاعتباراتِ مع اتحاد الذات، واعتبار التخييل فيها أشرف وأحق بها من كل اعتبار، بله المزِيَّةُ التي تتيه بها على سائر الكلام.

وكانت هذه الاستعارة «تجردت حربٌ» مفاجِئَةً من جهتين، الأولى: حين كانت على غير توقُّعٍ بل بضد التوقع، وهو أن تذوي الحرب وتنتهي، وهذه مفاجأة خارجية عنها، مَهَدَتْ لها فيها الواو، أما المفاجأة الأخرى فبما حوته من تخييل أسمقَ مما سبقها من تشبيهات وكنايات في القصيدة، وهذه مفاجأة داخلية فيها.

وهي بعد ذلك استعارة مفردة، أي: ليست بتمثيلية، لأن وجه الشبه فيها مفرد، وهو الجلاء والوضوح، وليس مركبًا، ولهذا عَلَتْ على كلِّ ما سبقها، لكن أفْسَحَتْ مكانًا للاستعارة التمثيلية التي لحقتها لتفوقها وتعلُوها، ويظل المتلقي متدرجًا في مراتب العلوِّ بارقَ البَصَرِ إلى الأعلى مَبْهُورَ الوِجدانِ بما تحمله إليه القصيدةُ من حُمولةٍ[2] أو

---

(١) وممن يقول بقريب من هذا أيضا:

ـ عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح في تلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٩، ط١٠، ج٣، ص١٣٦، حين أشار إلى وصف عبد القاهر الجرجاني لمثل ذلك بالتخيلل من غير تعرض لاستعارة مكنية ولا غيرها، ثم قال: «وإني أرى أن تقدير التخييل في ذلك ونحوه يغني عن تقدير الاستعارة المكنية».

(٢) بضم الحاء وهي المصدر دالا على اسم المفعول أي: المحمول إليه.

CamScanner

بالأحرى ما تحمله عليه القصيدة من حَمولة[1]، حتى يطالعَ سِدْرَةَ المنتهى في الاستعارة التي بعدها.

وكذلك جاءت «وتجردت حرب» استعارةً مطلقةً، أي: لم يُذكر معها ملائِمٌ لأيٍّ من طرفيها، فلا هي جُرِّدَتْ، ولا هي رُشِّحَت، وتكون بهذا قد جاءت في مكانها مستقرة بلا قلق قبل أن يفاجِئَ الشاعرُ سامعَه بالاستعارة المرشَّحَة التي بعدها قائلا: «يَكُونُ حِلَابُهَا عَلَقًا وَيَمْرِيهَا الْغَوِيُّ الْمُبْطِلُ».

فالترشيح فيها ذكر ما يلائِمُ المستعارَ منه، وهو جملة: «وَيَمْرِيهَا الْغَوِيُّ الْمُبْطِلُ» وهذه الجملة بذاتها كناية عن صفة، وبهذا يجيش الشاعرُ عوامل بيانية متعددةً في تأسيس سلطانه على وِجدان المتلقي بعد أن انسرب إليه من جهة عقله، فطَلَبُ المستضعَفِ المجالِدِ للنُّصرةِ من القويِّ المتمكن مشروعٌ عادةً، وهذا هو المدخل الذي دخله الشاعر.

ثم بَثَّ في تضاعيفِ الكلام أنَّاته وأخبارَ خوفه بما يستنفر قلبَ كلِّ سامع، وهذا البيت هو ذُروة تصوير الضعف، بلا خنوع، وهو نفسه ذروة قوة الشاعر وسيطرته على المنصِتِ إليه، حيث عمل بالتشبيه الأول والكنايتين الأوليَيْنِ على الإسراء بالمتلقي من دِمَشْقَ إلى جانب الأَمْرَاج، وحين اطمأن أنه استرعى انتباهه وَنَقَلَهُ إلى دياره هو، بَدَأَ به المعراجَ في سموات التخييل بالاستعارة الأولى خُطْوَةً وبالاستعارة الثانية كلَّ الخطوات، وههنا تظهر وظيفة الترشيح فيها، وهي التطويلُ والْمَدُّ، وتنميةُ المعنى الانزياحيِّ لاستكمال الجولة في العالم المتخلِّق في الخيال؛ لأنه عالَم آخر يعادل العالم الأرضي تمام المعادلة.

فصار معاويةُ وأصحابُه بهذا التشريح يعيشون ـ وأجسادُهم في دِمَشْقَ ـ أنفاسَ أبي العيال وأصحابِه ـ الذين أجسادهم بجانب الأمراج ـ والملكُ صاحبُ السلطانِ في

---

(١) بفتح الحاء وهي المركوب المحمول عليه.

هذه الدولة هو أبو العيال لا معاوية، والخطاب الشعري هو أداته القاهرة التي تتصرف في تكوين المملكة الشعرية المدركة بالتخييل عند معاوية وصحبه، وكل ذلك برضًا من معاوية ورِفاقه لا بغَضْب ولا تَعَنُّتٍ، وهذا عين سلطة الخطاب الشعري الهذلي.

أما كون الاستعارة تمثيلية فجاءها هذا من كونها كالْمَثَل يُضرب للناس يُراد منه مشابهة الحالةِ الحالةَ، فيكون وجه الشبه فيه مركبًا من متعدد، كلٌّ من أفراد هذا المتعدد حقيقي في نفسه، وإنما التخييل مختزن في التركيب فحسْب، أي في النَّظْم، وهاكه:

ليمكن الشرح فقط لا لبيان ما في الواقع والأمر نفسه نلجَأُ إلى العلاقة الكنائية في الاستعارة، فهذه الكناية علاقة بين المشبه ـ وهو الحرب ـ والمشبه به المقدر في نفس الشاعر ـ وهي الناقة ـ والهذليون أهل إِبِل، كما قال الأصمعي: «كانوا أصحاب جِمَال...»[1] وهي أقرب إلى أذهانهم من غيرها على الإجمال، وهذه الناقة المقدرة من لوازمها الحَلْب، والحلْبُ إنما يكون للبن، فإذا انقضى آخرُ غُبْرِها ولم يَحمِل الضَّرعُ شيئًا، يكون الواجب العاديُّ في عُرف الناس أن تترك الناقة، وينتهي الحلب، حتى يجتمع لها لبنٌ آخَر، لكن في المستحيل العادي وهو ما لا يقع من العاقل ذي الرأي بل من الغوي المبطِل الجهولِ الذي لا يرى حقائق الأشياء ولا يصدق أن اللبن قد نفِد من الضرع، في هذه الحالة يستمر الحالب في الحلب، فلا يجد إلا دمًا عَلَقًا يأتيه، وهذا مُنْبِئٌ بهلاكها، لكن الغواية تُعْمِي بصره؛ فيُصِر على أن يَمريَها بِفَرْكِ ضرعِهَا مرَّاتٍ ومراتٍ يظن أن يصادف لبنًا، ولا يجد إلا الدم، فلا هو انتفع بمجهوده في الحلْب والمرْي؛ لأن الناس لا تشرب الدم، ولا هو أبْقَى على ناقته علَّها تأتيه باللبن يومًا مَا.

هذا الموضَّحُ هو المعنى الصفري للتركيب اللغوي في ضوء أوعيته المعنوية التداولية، وهو عينه ما يلفِتُ إليه البلاغيون بكلمة: (كناية) في قولهم: (استعارة بالكناية) وهو هو ما يقصدونه بكلمة (مكنية) في قولهم: (استعارة مكنية)، وهو حال المستعار

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣٥.

CS CamScanner

منه من حيث هو مشبَّه به لا مستعارٌ منه، أي: من حيث كونُ هذه الحال لتلك الناقة لا من حيث كون هذه الحال للحرب نفسها، أما جعل هذه الحال للحرب نفسها فهو التخييل عينُه، وإليك مشابِهُهُمَا:

١ـ الحرب مستمرةٌ حيث يجب التوقف لاستيفائِها مقدارَها من الزمن وإهلاكِها الحرثَ والنسلَ بلا إحراز تقدُّمٍ لأحدِ طرفيها، والحلْب مستمرٌ حيث يجب توقفه لاستيفائه مقدارَه من اللبن وإهلاكِه الجهدَ بلا إحراز نفع جديد. دل على الاستمرار والاستقبال في كليهما استعمال الفعل المضارع في «يكون» و«يمريها».

٢ـ الْمُصِرُّ على الحرب غَوِيٌّ مُبْطِلٌ كما هو الْمُصِرُّ على الْحَلْبِ بعد نفاد اللبن.

٣ـ لم تعد تقدم الحرب نفعًا لأحد وإنما تقدم دمًا من دماء صَرْعَاهَا، ولم تَعُدْ تقدِّم الناقةُ نفعًا للحالب وإنما تقدم دمًا من عَلَقِها.

٤ـ دم الحرب الْمُهراق مُؤْذِنٌ بهلاكٍ عامٍّ، وعَلَقُ الناقة المحلوب مُؤْذِنٌ بهلاكها.

وعلى ما تقرر من كونها استعارة تخييلية تكون (أل) في قوله: «الغوي» وقوله: «المبطل» تحتمل أن تكون اسمًا موصولًا هو فاعل يمريها في التركيب، وعائد على حالبها في المعنى، وحالبُها هذا هو هو العدو المحارب أيضًا. وتحتمل أن تكون للعهد الحضوري فتدل ـ بالتخييل المباشر ـ على العدو المحاصِر، وتدل ـ بالتركيب النحوي ـ على العهد الذكري للحالب، الذي هو العدو المحاصِر نفسه، لا أن العدوَّ المحاصِرَ مشبَّهٌ به.

كما شارك في أداء الانزياح بالمفاجأة جَعْلُ الحربِ في الاستعارتين منكَّرَةً، لتعظيم هول المجهول اللائح البادي الهاجم، مما لم يُعْهَد قَبْلًا، ومما هو مغاير لما استمر في رجب والجمادَيَيْن وشعبان والليالي التسعة.

وموازاةً لحركة التخييل المتصاعد الذي يأخذ المتلقي إلى استحداث صور لم

CamScanner

يعهدها قَبْلًا ثم تأمُّلِ تفاصيل هذه الصورِ كما يعيش الإنسان في الحلُم معنى الحقيقة ويتأكد من كل جوانب الحلُم أنه حقيقة، وتمتلِئُ نفسه بذلك بلا أدنى شك، لذلك جاءت الاستعارتان تَبَعِيَّتَيْنِ لا أصليتَيْنِ، أي: اللفظ الذي جَرَتْ فيه كل منهما كان مشتقًا لا جامدًا، وهو: «تجردت» و«حلابها» لأن المشتق أطوع، وأسهل على التصور الفلسفي للغة أن يتداخل مع صورة متنامية تمثيلية جديدة تعادل الحقيقة الثابتة في دمشق ثباتًا مما يجعل المرء مطمئنًا حين ينتقل إليها، كأنه يخطو ويستبين ثبات الموضع الجديد، فما وجده مكينًا قارًّا وطِئَ وتقدم فيه مؤمِنًا به مستكشفًا لعالَمِه الجديد، والجمود اللغوي يصعِّبُ الْمَهَمَّة على العقل أن يفارق ما يعرفه حربًا حتى يحلِّق مع الشاعر في تخييله، أما المشتق لِليونَتِه ودَوَرَانه على الاستعمالات المتباعدة، مع تعاور المعاني المختلفة له، يمثل أداة أَخْلَقَ بالاستعارة، فهل يطرأُ عُرْفٌ بلاغي عربي جديد يرتكز على الأَخْلَقِ تداوليًّا في وظيفة الاستعارة لتكوين سُلطتها يطلق على الأصلية منها تبعية والعكس بالعكس بخلاف ما استقر في الجهاز المفهومي البلاغي عند المتأخرين؟!

سِيمِيَاءُ اخْتِتَامِ الْقَصِيدَةِ:

وبعد تَيْنِ الاستعارتَيْنِ فَصَلَ الشاعر ببيتٍ واحدٍ هو الرابع عشر، يَصِفُ حركة جندِ العدوِّ، وكما سبقت الإشارة كان هذا منجزًا تداوليًّا وظيفيًّا يَهُمُّ موقِعَ الخليفة من المشهد العسكري القائم ليحددَ الاحتياج ويتخذ القرار الأنسب، ومن جهة أخرى مثَّل البيت انطلاقًا مناسبًا يمهد للدخول إلى خاتمة القصيدة في وصف سماء المعركة، حيث ذكر الشاعر حركةَ العدوِّ في أطوار مختلفة محاصرين جندَ المسلمين، مما مكن العدو من السيطرة على سماء المعركة بنبالهم ورماحهم التي يرمونها فتصيب من المسلمين وتَدَع؛ فلذلك كان ترتيب تصوير السماء في التشبيهين الأخيرين مربوطًا بما قبله بحرف العطف «الفاء» لأنه يبني على ما وضحه، وهذه وظيفة مساعدة يقوم بها البيت الرابع عشر لخدمة الغرض الفني الأدبي.

CamScanner

يقول أبو العيال:

فَتَـرَى النِّبَـالَ تَعِيرُ فِـي أَقْطَارِنَا ... شُمْسًـا كَأَنَّ نِصَالَهُـنَّ السُّـنْبُلُ

وهنا حرَص الشاعر على نهاية أهدأ وأقل ارتفاعًا في التخييل من ذروة الاستعارتين، فاختار تصوير سماء المعركة؛ لأن الأعلى هو من له الهيمنة، ومن مَلَك السماء مَلَك أرضها بالتبعية إن آجلًا أو عاجلًا، وهو تحذير شديد من إهمال الموقف وعدم دعمه.

وجاء بتشبيه قريب الْمَدرَك فقد جعل نبال العدو في السماء كالسنبل، وهذا من وجهين:

١ـ شرودها وجموحها وعدم استقرارها على هيئة منتظمة، واستفيد من نص الشاعر على وجه الشبه بقوله: «شُمْسًا».

٢ـ وفي دقتها، واستفيد من شرح السكري حين قال: «كَأَنَّها «السُّنْبُلُ» فِي الدِّقَّةِ».

بينما كان التشبيه التالي له أعلى درجة يسيرة في التخييل، قال أبو العيال:

وَتَـرَى الرِّمَـاحَ كَأَنَّمَا هِـيَ بَيْنَنَا ... أَشْـطَانُ بِئْـرٍ، يُوغِلُـونَ وَنُوغِلُ

ويقصد أن الرماح التي يرميها الأعداء في الهواء فوقنا تشبه حبالَ البئر التي تلقى فيه لتصيب مما فيه من ماء، ويكون تمثيلا أيضا، ووجه الشبه فيه:

١ـ طول الرماح وطول الحبال.

٢ـ وصول كل منهما لغايته وهيمنته عليه، فلا يَنِدُّ عنه شيء.

٣ـ عشوائية الحركة في الحالين.

كأنه بذلك ينظر إلى بيت النابغة الذبياني في الجاهلية يصف قُدرة الملك النُّعمان عليه قائلًا:

خَطَاطِيفُ حُجْنٌ فِي حِبَالٍ مَتِينَةٍ ... تَمُـدُّ بِهَـا أَيْـدٍ إِلَيْـكَ نَـوَازِعُ[1]

---

(١) الخطاطيف: جمع خُطَّاف وهو من حديد، وحُجْن: جمع أَحْجَن وهو المعوج، والنوازع: الجواذب.

وهو يقول: ضاقت الدنيا عليَّ وكأني في بئر؛ فأنا أُجَرُّ بالخطاطيف إليك وأجذب، وهذا مثل ضربه لقوة سلطانه، وإدراكه لمطلوبه، فيقول كما أن ماء البئر ممكن لمن رامه أن يصل دلوا في حبال متينة على خطاطيف حُجْن، ثم يجذبها إلى نفسه، كذلك يمكنك إدراكي وإن بعدت عنك، لقوة سلطانك، وتمكن قدرتك على مطلوبك[1].

وهذان التمثيلان الخفيفان غير المعقدين صِيغَا مصحوبَيْنِ بكونهما حسيَّيْنِ تحقيقيَّيْنِ مفصلَيْنِ مرسلَيْن كسائر تشبيهات القصيدة، والتفصيل: ذكر وجه الشبه؛ مما يساعد على سهولة التصور، فيكون قريبًا أيضًا، ومقام الختام هنا لم تحتج إلى استتباع المتلقي لجهد كبير كالذي سبق في استغراقه في الاستعارتين، وأما إرساله فلذكر أداة التشبيه فيه، وفائدتها أن تجعل انتقال الذهن من المشبَّه إلى المشبَّه به أَسْلَسَ وأَمْكَنَ وَأَهْدَأَ وأَيْسَرَ، لأنها واسطة تقرِّب له وتهوِّن عليه، وكل واسطة بين شيئين من شأنها مساعدة المنتقِل بينهما، وتقصير مساحة النُّقلة الواحدة، وهذا يطلب في مقامه من الخطاب الواحد بحسَبه، أو في مقامه بحسَب اختلاف الأوعية المعنوية للموقف التخاطبي بحسَبه، وليس الجمال شيئًا مطلقًا ثابتًا، ولكن يحسن الاستعمال ويسوء بحسب ملاءمته لما يحتف به من أوعية معنوية، ويزجيه من باعث ويحدوه من غرض.

وبهذا يندفع الإيراد على البلاغيين العرب المتأخرين المدعِي أنهم لَمَّا قرروا أن بعض أنواع التشبيه أبلغُ من بعضها أخطؤوا؛ بذريعة أن النصوص العالية كالقرآن الكريم ضَمَّتْ كل الأنواع[2]، فإن مراد البلاغيين العرب أن كلاًّ يَحسُن في مقامه، وغاية

---

(١) راجع في البيت والشرح كلا من:

- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ص٣٨. وهو من رواية الأصمعي من نسخة الأعلم الشنتمري.

- ديوان النابغة الذبياني بتمامه صنعةُ ابن السِّكِّيت، تحقيق: شكري فيصل، دار الفكر، بلا تاريخ ولا وطن، والمقدمة ممهور بإمضاء: دمشق، عام ١٩٨٦، ص٥٢-٥٣.

(٢) ممن عبر عن هذا: =

CS CamScanner

ما هنالك أن بعضها يفضل بعضًا في مساحة النُّقلة العقلية التي تفاجئ المتلقي وتدهشه، ليتفطن الشاعر إلى ذلك ويوظف كلًّا في محله، وهذا معنى قول عبد القاهر الجرجاني: «النظم هو توخي معاني النحو في معاني الكلم»[1].

عِنَايَةٌ تَدَاوُلِيَّةٌ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ الْعَرَبِ:

كما قدم البلاغيون العرب برنامجًا تحليليًّا تداوليًّا لقياس مدى تحقيق الشاعر لمقصديته من خلال التشبيه في حال معينة للمخاطب، فقالوا ينقسم التشبيه من حيث الغرض إلى مقبول ومردود، والمقبول: الوافي بإفادة الغرض كأن يكون المشبه به أعرف شيء بوجه الشبه، أي: أعرف الطرفين بوجه الشبه؛ لأن الشرط الأَعْرَفية بالنسبة للمشبه فقط، والمراد أعرف عند السامع ولا يشترط أن يكون أعرف عند كل أحد، وذلك في التشبيه الذي يكون الغرض منه بيان حال المشبه بأنه على أي وصف من

= محمد النويهي: الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ج١، ص١٤، ١٦، وقد أسرف على نفسه إسرافا فاحشا في نقض ما لم يفهمه من علوم البلاغة العربية وما وقع له ذاك التخليط إلا بما قادته إليه عجمة التنظير الأجنبي النقدي الذي قاده إليه وزينه له أستاذه في ذلك طه حسين، كما نص هو على ذلك قائلا: «بل إن اطلاعنا على تلك الآداب [يقصد الأجنبية] هو الذي أفهمنا ما الأدب، وهنا نصل إلى أصل الداء، فالبلاغيون والنقاد القدامى لم يقصروا تقصيرهم ذاك ولم يقعوا في أخطائهم تلك إلا لأنهم أصلا لم يفهموا ما الأدب، ما كنهه، ما دوافعه، ما منشؤه من النفس الإنسانية، ما وظيفته، ماذا يحاول، لماذا تحتاج إليه الإنسانية...» ج١، ص٢١، على أنه شديد الافتخار بذلك التخليط النقدي بين طرائق العرب والغرب لا سيما الإنجليز، والفارق في الأخذ بين التطبيق في هذه الرسالة والتطبيق في كتبه أن هذه الرسالة تبني على مقررات البلاغة العربية وتحترمها، أما النويهي فأعلن إهدار ذلك بلا أدنى تردد.

(١) أبو بكر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، بلا تاريخ والمقدمة ممهورة بعام ١٩٨٤، ص٣٦١، وأحيانا يعبر بقوله: «توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم» ص٣٩٢، أو «توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم» ص٤٠٥، وهو يكرر ذلك كثيرا.

CamScanner

الأوصاف من جهة وجه الشبه، أو بيان مقدار تلك الصفة، فإن تساوى طرفا التشبيه في وجه الشبه فالتشبيه كامل في القبول، وإلا فكلما كان المشبه به أسلم من الزيادة والنقصان كان أقرب إلى الكمال[1].

ولو نظرنا إلى جميع تشبيهات القصيدة سنجدها تمتاح من عيون الواقع الذي يعرفه معاوية وأصحابه كل المعرفة، من المزادة وإزغالها، إلى مَوَرَان الدماغ وجنوح المصدور وهيئة السنابل وحبال البئر، فكل ذلك مشهور بما استعمل فيه من وصف على أتم درجات الوصف، وهذه خلفية اجتماعية مهمة تضمن للاتصال الخِطابي سلامة التأويل والتمكن من أداء مهامِّه على أكمل ما يكون.

(١) انظر: شروح التلخيص: ج٣، ص٤٦٧-٤٦٩، منقول بتصرف كثير جمعًا بين شرح القزويني على تلخيصه، وحاشية الدسوقي على شرح السعد على التلخيص.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

التَّرْتِيبُ التَّدَاوُلِيُّ لِشِعْرِ الْهُذَلِيِّينَ

إذا ما أعيد ترتيب قصائد الديوان تداوليًّا، بحيث يَعتمد على معيارِ الشيوع، فإنه يمكننا الاستدلال بهذا الترتيب إلى الأشعار والأصناف الشعرية الهُذَلِيَّة التي أثَّرَتْ أكثر من غيرها في الوسط الأدبي بخصوصه والذَّوْقِ العربيِّ بعمومه.

وهذا الترتيب إنما يكون وَفْقًا لما نُقل من أشعار الهذليين في غير ديوان الهذليين؛ لأن الديوان نقلَها كلَّها، أو حاول ذلك[1] على أقل تقدير؛ فالغرض فيه هو شعر الهذليين

---

(١) والحق أنه حاول ذلك ولم يستوفِ، وقد أفرد المحقق قسمًا للزيادات المنسوبة لهذليين وليست في الديوان، ج٣، ص١٣٠٣-١٣٥٢، ومع ذلك لم يستوفها أيضًا، والْمُثُل على ذلك كثيرة، منها ذكرُه الحائية المنسوبة لأبي ذؤيب في رثاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: ج٣، ص١٣٠٧-١٣٠٨، ولم يثبت البيت السابع، وهو:

وَزَجَرْتُ أَنْ نَعَبَ الْمُشَحَّجُ سَانِحًا ... مُتَفَائِلًا فِيهِ بِفَأْلٍ أَقْبَحِ

مع أنه في معاهد التنصيص في الطبعة التي يعتمد عليها المحقق، والمحقق ذكر أنه ينقُل عنه! انظر:

- عَبْدُ الرَّحِيمِ الْعَبَّاسِيُّ: مَعَاهِدُ التَّنْصِيصِ، المجلد الثاني، ص١٦٧.
- السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٦٩٨.

وعلى ذكر ذلك فقد سَهَا المحقق أيضًا عن أن يذكر الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فيما سماه «فهرس الأعلام ما عدا شعراء الهذليين» الذي في: ج٣، ص١٦٥٧-١٦٦٥، وقد ذُكر الرسول صلى الله عليه وسلم في شرح السكري وفي مِتَانِ أشعار الهذليين مرارًا، انظر المواضع التالية:

- ج٢، ص٥٤٩.
- ج٢، ص٦٢٧.

عينه، أما الكتب التي ضَمَّتْ مختاراتٍ من الشعر؛ فضُمِّنَتْ بعضَ أشعار الهذليين؛ فهي كُتُبٌ تدل بمجموعها على انبهار الذائقة الجمعية لجماهير المتلقين بمواضعَ مِن أشعار الهذليين، ولهذا استدعَتْها غالبًا.

نَعِمْ إن جَمَعَة الديوان كان من أعظم بواعثهم إلى جَمْعِه تأثرهم بجماله وسلطانه الشعري، وتجانسه العجيب الذي لم يقع في شعر قبيلة أخرى في الجاهلية والإسلام في زُعم الباحث، بَيْدَ أن هذا الباعث لم يكن الوحيدَ الذي يمكن استنباطه من صنيع الْجَمَعَة، بل تلبَّسَتْ عواملُ أخرى عديدةٌ به، جعلَتْ جَمْعَ أشعارهم مَهَمَّة ضرورية علمية في القرن الأول الهجري، منها كَوْنُ لسانِ هُذَيْلٍ عربيًّا قُحًّا لا رَيْبَ فيه، وهم أقرب الناس لأم القُرى المذكورِينَ في الآية: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1] ويُفَسَّرُ بكلامِهم القرآنُ، ويُعرف به معاني الغريب وما أشبه ذلك مما هو عَمَلُ اللغويين لا أهلِ العلم بالشعر، أي: النُّقَّادِ والذَّوَّاقَة.

فهذه الاحتمالات وغيرُها أعانَتْ على جمع شعرهم وشعر غيرهم، ولا نَحِيدُ عن الجادَّة لو قلنا إن قيام هذه الاحتمالات وتِلكُم البواعثِ في جَمْعِ شعر تَمِيمٍ وأَسَدٍ وقَيْسٍ[2] ـ ممن أجمَعَ الرواة على الاستشهاد بشعرهم صراحًا ـ لم يَجرَّ إلى جمع ديوان قبيلةٍ واحدة منهم في القرون الثلاثة الأولى، بخلاف هذيل!

ولهذا السبب لم يكن إيراد شعر الهذليين في الديوان معتدًّا به في الترتيب التداولي

= ـ ج٢، ص٧٦٣.
ـ ج٢، ص٧٧٧.
ـ ج٣، ص١٠٠٥.
ـ ج٣، ص١٠٥٦.

(١) من سورة الشورى، جزء من آية ٧، وقريب منها في سورة الأنعام من آية ٩٢.

(٢) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الاقتراح في أصول النحو وجدله، تحقيق وشرح: محمود فجال، دار القلم، دمشق ١٩٨٩، ط١، ص٩١.

CamScanner

المنشود، وهذا لا يمنعنا من أن نبادر إلى مَلْمَح عظيم الخطَر، ألا وهو أن السكري افتتح شرحَه للديوان بروايةِ عَيْنِيَّة أبي ذؤيب، ولم يكن ذلك بِدَاعٍ من منهجٍ أَلِفْبَائِيٍّ أو أَبْجَدِيٍّ في الترتيب، ولا هو مُتَّبِعٌ لنظام الخليل في البَدْءِ بالعَيْن؛ لأن القصيدة الثانية في ديوان أبي ذؤيب كان على رويِّ الباء، وجاء بالتاسعة مثلا رائية، فلم يلتزم ترتيب الخليل، ولا هو التزم البَدْءَ بالعينيَّات في سائر ترتيب القصائد داخل الباب؛ فأتى مثلا بعينية أبي صَخْر الخامسة[1]، وهذا كلُّه يدل على أن سببًا ما غيرَ كلِّ هذه الأسباب حَمَلَه على ذلك، ويكاد ينحصر هذا السبب بين اثنين لا ثالثَ وراءَهما:

خارجي: وهو تأثره بشهرة القصيدة وسيرها في الناس.

وداخلي: وهو تذوُّقه لها ووقوعَها من نفسه موقعًا يتقدم كلَّ شعر الديوان.

وعلى الوجهين فإن وَضع القصيدة في موضِعِها هذا ظاهرةٌ تستحق التوقُّف والتأمل، وما عرضنا هنا لذلك إلا لإثبات أثر الشعر في الرواة أنفسهم وما صدر عنهم من ترتيبٍ دالٍّ على ذلك الأثر، وهؤلاء الرواة هم الذين سيتجاوزهم الترتيب التداولي احتياطًا، ولا يَحتاطُ في مثل هذا المقام إلا مالئُ يدِه من عظيمِ تَفَشِّي أشعارِ الهذليين في أَلْسِنَةِ الذَّوَّاقة بطول الأدب العربي وعرضه.

ضَوَابِطُ التَّرتِيبِ التَّدَاوُلِيِّ الْمَنْشُودِ:

وهنا تُطِلُّ مسألةٌ برأسها: أيكون الترتيب التداولي وافيًا بمقصوده لو كان للقصائد؟ أوَلَيست القصيدة الواحدة يقع فيها المرغوبُ فيه والمرغوبُ عنه؟ فلو جرى ذكرُ بعض الأبيات في أحد كتب المختارات الشعرية فإن هذا لا يكون دليلًا على تقديم القصيدة كلها. ولو كان الترتيب بالبيت فهل يُعكِّر عليه أن الاستدعاء يكون في بعض كتب البلاغة والتذوق للصورة دون بيتها؟ حتى لَكَأَنَّ الصورة تصير هُذَلِيَّةً موقوفةً على هُذَيل، فإذا

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩٣٤.

ما استعارها غيرُ هُذَلي ابتسمَ سامعُه ابتسامةً تقول: هذا ما فَاد لك من الإغارة على بني هذيل. وَيْ! كأنَّ تخييلاتهم كانت حِمَاهُم الشعري كما كان لهم حمًى بَرِّيٌّ.

وحاصل ذاك أن الصورة ـ مهما انفردت ـ تستدعي بيتًا فلا وجهَ لإقامة الترتيب التداوُلِيِّ على الصور والتشبيهات، وأن الترتيبَ بالقصيدة خادعٌ في كثير منه؛ فيكون الاحتياط بترتيب الأبيات.

وتتبع سُلطةِ الخطاب الشعري الهذلي بإعادة ترتيب الأبيات تداوليًّا يَستدعِي نوعًا مخصوصًا من المتلقين الذين ذكروا تلك الأبيات واحتَفَوْا بها، وهم مَن يُعْنَوْنَ بالبيت لجمال سَبْكِه، وقوةِ حضوره، ونجاعةِ أثره، ورُقِيِّ بيانه، ويمثِّلُ هؤلاءَ في الاستدعاء التراثي للشعر الهذلي كتبُ المختارات الشعرية وكتب البلاغة والنقد الأدبي، بخلاف كُتُب اللغويين التي يَعنِيها وجود اللفظة في شعر شاعر يستشهد بكلامه، بقطع النظر عن انحطاط مستواه البلاغي أو ارتقائه، ومِثْلُ هؤلاء المفسرون، وهم لا ينظرون إلى الشعر إلا في خدمة القرآن العظيم، وليس هذا من بابَتِنَا البتةَ هنا، وكذلك النحاة؛ لأن استدعاءهم للبيت يقتصر على التفتيش عن الشاهد على صحة استعمالٍ ما من حيث هو استعمال صحيح مستقل، لا من حيث هو استعمال في سِيَاق وسِبَاق ومَقَام وحَال، ومثل هؤلاء أصحاب التراجم، وهم الذين لا يَعمِدون للبيت إلا لخدمة الخبر والحادثة، ولا تعنيهم غالبًا قوَّتُه الفنية وضعفه.

وينفرع على ذلك أن بعضًا من الكتب لا تؤثر في رفع منزلة بيتٍ إذا استدعَتْه، ومن هذه الكتب التي استدعَتْ شعر الهذليين ولن يُعْتَدَّ بذلك في الترتيب التداولي: لسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزَّبِيدِي، ومعجم البُلدان للحَمَوي، وتفسير القرطبي، والاستيعاب لابن عبد البَر، والإصابة لابن حَجَر، وأُسْد الغابة لِعِزِّ الدين بن الأثير، وشرح شواهد المغني للسيوطي، والمقاصد النحوية لبدر الدين العَيْني، وشروح المفصَّل للزمخشري، ومفردات الراغب الأصفهاني، وغيرُ ذلك من الكتب.

CamScanner

بينما يقوم العمل معتمدًا على كتب أخرى تمثل الذوق الأدبي لأصحابها بل لعصرها أجمع في بعض الأحيان، وهو مثل: المفضليات للضَّبِّي، والأصمَعِيات للأصمعي، وحماسة أبي تمام وتعليقات شروحها لا سيما المرزوقي والتِّبريزي، وحماسة البُحتري، والبيان والتبيين للجاحظ، والشعر والشعراء لابن قُتَيبة، وأكثر هؤلاء معاصرون للسُّكَّري، والكاملِ للمُبرِّد، والأغاني للأصفهاني، والعِقد الفريد لابن عبد رَبِّه، وأمالي القالي وما عليه من كتب، والحماسةِ البصرية، وجمهرة أشعار العرب للقُرشي، وجمهرةِ ابن دُرَيْد، وزَهر الآداب للحُصْري، والعمدة لابن رَشِيق، وعيارِ الشعر لابن طَبَاطَبَا العلوي، وتلخيص القزويني وبعض تعليقات الشراح والمحشين لا سيما الدسوقي على شرح السعد وشرح ابن يعقوب المغربي وشرح بهاء الدين السُّبْكي وشرح البابرتي وشرح البرقوقي، وغير ذلك من الكتب.

وبهذا التحديد يمكننا -بقدر المستطاع- استبعاد عمليات استدعاء الشعر الهذلي في التراث العربي التي لم تكن بسبب سُلطة الخطاب الشعري، وإنما لسلطة أخرى هي سُلطة النص لا الخطاب، بوصفه جامعًا لمتن اللغة، مُبَيِّنًا لقواعد النحو والصرف، دالًّا على مواضع البلاد وأيام العرب وعاداتهم وطرائقهم اجتماعيًّا ونفسيًّا؛ لأن هذا الاستدعاء لو رُوعي في الترتيب التداولي لصار ترتيبًا تداوليًّا لكنه غيرُ كاشف بطريق مباشرةٍ عن مواطنِ سُلْطة الخطاب الشعري الهذلي من حيث هو شعري، بل من حيثيات أخرى لا تعني هذا البحث.

ومن خصائص الترتيب التداولي المنشود أنه قائم على الشيوع، وهذا يعني أن طَرَفَهُ الأعلى هو الأشيع، وهو مناط البحث، بخلاف طرفِه الأدنى؛ ولذلك لا نفعَ تداوليًّا من صناعة جدول تامٍّ للترتيب المنشود، وإنما تُجنى ثمرته بالنظر إلى أعلاه.

وقد قام المحقق عبد الستار أحمد فراج بهذا الجهد العجيب في تتبع الأبيات

الهذلية في كتب الأدب واللغة، وإثبات مواضعها قصيدة قصيدة وبيتًا بيتًا[1]، وبالاستقراء التام للتخريج الذي قدمه المحقق[2] يجد الباحث أن الخطاب الرثائي قد استولى على المرتبة الأولى بلا مُنازع، سواء أكان لأبي ذؤيب أو أبي كَبير أو أبي خِراشٍ أو أبي صَخر أو عبد الله بن أبي ثَعلب أو صَخْر الغَيِّ أو غيرِ هؤلاء.

ويرى الباحث أن الديوان قد ضَمَّ في صورته الكُمْلَى قصائدَ جيادًا في غير الرثاء لا تنزل عن عينية أبي ذؤيب الرثائية في شيء وربما عَلَتْهَا، لكن الأوساط الأدبية جاء تأثرها وعنايتها بغير الرثاء الهذلي بعد تأثرها وعنايتها بالرثاء الهذلي.

والحق أن العناية بالرثاء الهذلي لم تكن به كلِّه، بل كانت ببعض ما تفرد منه، وهنا تتصدر المشهدَ عينيةُ أبي ذؤيب في رثاء أبنائه، وقبل الخوض في تحليل علاماتها الْمَفْصِلِيَّة في جماهير المتلقين ينبغي أن نتعرف إلى المرْثِي عند الهذلي.

الرِّثَاءُ فَرْعُ التَّفَجُّعِ وَلَا عَكْسَ:

جاء التفجُّع الهذلي متعددًا في حالاته، فكان منه فقد المحبوبة بِظَعْنِها[3]، أو بصعوبة الوصول إليها على قربها[4]، أو بخيانتها[5]، وكان منه فَقْد أفراد الأسرة، بأنواع

---

(١) ذكر منهجه في ذلك في:
- السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٣٥٣.

(٢) وهو في ١٦٥ صفحة وموضعه:
- السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٣٥٥–١٥٢٠.

(٣) انظر مثلاً: السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص٩٩٩، ١٠١٣، ١٠٢١.

(٤) انظر مثلا: السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٢.

(٥) انظر مثلا: السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢١٩، ومن أعجب العجب أن باحثًا كان يعتقد أن أمَّ عمرو التي أحبها أبو ذؤيب وآخران وخاصَم فيها ابنَ عَمِّه كانت أسطورةً لا واقعًا!! انظر:
- نصرت عبد الرحمن: الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي، دار الفكر، عمان الأردن ١٩٨٥، ط١، ص١٥٦–١٥٧.

منوَّعة من الهلاك موتًا أو قتلًا مفردًا أو جماعيًّا في المعارك أو في الطواعين أو غير ذلك.

فإذا جَاشَ من أجواف الهذليين الألمُ نَفَحَ به شِعرًا؛ لا لأنه يقصد التصرُّف في القول، أو أن يكتب رثاءً عاليًا، بل لأنه فاض بعد امتلاء؛ فحَنَّ ولم يملِك حنينًا، وعنوان ذلك الاستعارة التخييلية التي باح بها مُلَيْحُ بن الحَكَم القِرْدِيُّ الهذلي في قافيَّته الباذِخَة، قائلًا:

وَإِنْ جَاشَ مِـنْ أَجْوَافِهَـا نَفَحَتْ بِهِ مَشَـافِرُ هُـدْلٌ فَـوْقَ هَـامٍ مُنَطَّـقِ[1]

وكذلك متابعته لتخييله هذا في قوله:

فَحَـنَّ، وَلَـمْ يَمْلِـكْ حَنِينًـا، وَهَاجَهُ لِأَوْطَانِـهِ صَـوْبُ السَّـنَا الْمُتَأَلِّقِ[2]

ومن مجموع المآسي التي كان الفقر والجوع جزءًا منها نَبَتَتْ خيالاتُ الهذليين تَصِفُ الدهرَ وحَدَثانَه والمنيةَ ورَيبَها تُعبر عما يَرونَه واقعًا لا ما يُركبونَه خيالًا، وبهذا المفهوم عن الرثاء يَلحق به ما يكون من رِقَّةٍ بالغة على مريض أَشْفَى على الهلاك أو وحيدٍ غائب بين يدي الهلاك؛ لأنه في قوة الرثاء، وهاك قائمة بمراثٍ هذليةٍ اهتزَّ لها عرشُ الأدب العربي، وأكبَّ عليها تمثُّلًا ونَقْلًا موزَّعةً على ألوان المرثِيِّينَ وعلاقاتهم بالشاعر قُرْبًا وبُعدًا:

رِثَاءُ الْأَبِ:

١ـ الْمُتَنَخِّل يرثي أباه عُوَيمرًا[3].

رِثَاءُ الْوَلَدِ:

١ـ أبو ذؤيب يَرثي أبناءَه الخمسة[4].

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٠٠٠.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٠٠٢.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٧٦، وما بعدها.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣، وما بعدها.

CamScanner

٢ـ صَخْرُ الغَيِّ يرثي ابنه تَلِيدًا[١].

٣ـ أبو صخر يرثي ابنَيْه محمدًا وداودَ[٢].

٤ـ ساعدةُ بنُ جُؤَيَّةَ يرثي ابنه أبا سفيان[٣].

٥ـ المتنخِّل يرثي أُثَيْلَةَ ابنه[٤].

رِثَاءُ الْأَخِ:

١ـ صَخْر الغَي يرثي أخاه أبا عُمَرَ وقد نهشَتْه حيَّة[٥].

٢ـ جَنُوبُ أختُ عمرٍو ذِي الكَلْبِ تَرثيه[٦].

٣ـ قَيْسُ ابن العَيْزَارَة ـ وهي أمه ـ يرثي أخاه من أمِّه وأبيه الحارثَ بنَ خُوَيْلد[٧].

٤ـ البُرَيق بن عِياض الخُنَاعي يرثي أخاه[٨].

٥ـ أبو خِراش يرثي أخاه عَمرَو بنَ مُرَّة وسائرَ أخوانِه السبعة من أمه لُبْنَى وأبيه مُرَّةَ الذين ماتوا قبله[٩].

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢٨٧، وما بعدها، وأخرى في: ج١، ص٢٩٣، وما بعدها.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩١٥، وما بعدها.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٦٥، وما بعدها، وأخرى في: ج٣، ص١١٨١، وما بعدها، وأخرى في: ج٣، ص١١٨٤.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٨٠، وما بعدها.

(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١٤٥، وما بعدها.

(٦) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٨٢، وأخرى في: ج٢، ص٥٨٣، وما بعدها. وفي الديوان ذكر رثاء ريطة بنت عاصية لأخيها شَأْنٍ الذي كان عدوًّا لهذيل فقتلته بنو سهم الهذليون، ج٢، ص٨٦٤، وما بعدها.

(٧) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٩٧، وما بعدها.

(٨) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٤١، وما بعدها.

(٩) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٨٩، وما بعدها، وأخرى في: ج٣، ص١١٩٥، وما بعدها.

CamScanner

رِثَاءُ ابْنِ الْعَمِّ أَوْ ابْنِ الْخَالِ:

١ـ أبو العِيَال يَرثي ابنَ عمِّه عبدَ بنَ زُهرةَ، وقد قتلَتْهُ الرُّوم عند القُسْطَنْطِينَة[١].

٢ـ ساعدةُ بنُ جُؤَيَّة يَرثي ابنَ عمِّه جُنْدُبًا، ولَقَبُه عبدُ شَمْسٍ، وقد قتلَتْه قبيلة قَسْر[٢].

رِثَاءُ النَّفْسِ:

١ـ أبو خِراش حين نهشته الأفعى[٣].

٢ـ أبو صخر يرثي نفسه كأنه مات في ذَيْلِ رثائه لولده[٤].

رِثَاءُ الْهَلْكَى مِنْ هُذَيْلٍ:

١ـ أبو ذؤيب يَرثي حَيًّا من هذيل أفْنَتْهم بَنُو سُلَيْمٍ[٥].

٢ـ أبو ذؤيب يرثي بَعْجَةَ ـ وهي قبيلة من هذيل ـ حين غدرت بهم بَهْـزٌ[٦].

٣ـ عبد الله بن أبي ثعلب القِرْدِي يرثي مَن أصيب في الطواعين من هذيل بِمِصْرَ والشَّأم[٧].

٤ـ راثِيَةٌ لِبَني حبيبٍ ترثي مَن قُتل من قومها، وقيل هي لرجل من بني ظَفَر[٨].

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٢٣، وما بعدها.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٥٢، وما بعدها.
(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٤٤، وما بعدها.
(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩٢٣.
(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١١٢، وما بعدها.
(٦) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢٢٥، وما بعدها.
(٧) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٨٥، وما بعدها.
(٨) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٧٣.

CamScanner

رِثَاءٌ لصَّاحِبٍ أَوْ قَرِيبٍ مِنْ هُذَيْلٍ:

١ـ أبو ذؤيب يرثي حبيبًا جَدَّ عبدِ الله بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه(١).

٢ـ أبو ذؤيب يرثي نُشَيْبَة(٢).

٣ـ أبو الْمُثَلَّم يرثي صَخْرَ الغَيِّ، وكان قد حَرَّضَ على قَتْلِه وساجَلَه قبل ذلك شعرًا(٣).

٤ـ المعطَّل يرثي عَمْرَو بنَ خُوَيلدٍ حين قتلَتْه بنو عَضَلِ بنِ الدِّيش، وقِيل بل رثاه مَعقِلُ بن خُوَيلِدٍ أخوه بها(٤).

٥ـ سَرِيع بن عِمران يرثي عمرًا ذَا الكَلْب، وقيل: بل جَنُوبُ أختُه هي التي رَثَتْه بها(٥).

٦ـ ربيعةُ بن الجَحْدر اللِّحْيَاني يَذْكُر أُثيلة بنَ الْمُتَنَخِّل الطَّابِخِي وكان معه حين قُتل؛ ففَرَّ عنه(٦).

٧ـ أبو المورِّق اللِّحْياني يرثي صاحبَه جُنَيدِبًا اللحياني حين غَدَر به رجلان من بني أَشْجَعَ بنِ عامرٍ؛ فقتلاه(٧).

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١٢٠، وما بعدها، وانظر: ج٣، ص١٣٧٥.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١٥٦، وما بعدها، وأخرى في: ج١، ص١٧٤، وما بعدها.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢٨٤، وما بعدها.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٠١، وما بعدها، وكذلك: ج٢، ص٦٢٣، وما بعدها.

(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٧٨، وما بعدها، والباحث يرجح رواية أبي عمرو بن العلاء أنها لسريع لا لجنوب أخت عمرو ذي الكلب؛ لأن البيتين الحادي عشر والثاني عشر لا يُستساغان من فم امرأة.

(٦) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٤١، وما بعدها.

(٧) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٧٨، وأخرى في: ج٢، ص٧٧٩، وما بعدها.

CamScanner

٨ـ أبو خِراش يرثي زُهيرَ بنَ العَجْوةِ أخي بني عمرو بن الحارث[١].

٩ـ أبو خِراش يرثي خالدَ بن زهير[٢].

١٠ـ أبو خِراش يرثي دُبَيَّة، كان سادنا لبعض الأصنام؛ فقتلَه خالد بن الوليد[٣].

رِثاءٌ لِغَيْرِ هُذَلِيٍّ:

١ـ أبو ذؤيب يرثي رسول الله صلى الله عليه وسلم الهاشمي القُرَشِي[٤].

٢ـ أبو صخْرٍ يرثي أبا خالدٍ عبدَ العزيز بنَ عبدِ الله بنِ خالدِ بنِ أَسِيد الأُمَوِيَّ القُرَشِيَّ، وهو حي، وذلك أنْ قال له: ارثني حتى أسمع[٥].

رِقَّةٌ بَالِغَةٌ تُلْحَقُ بِرُوحِ الرِّثَاءِ:

١ـ أبو ذؤيب عاطفًا على ابنِ عمِّه خالدٍ ـ وهو نفسُه ابنُ خالِه ـ حين مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا، وكان أبو ذؤيبٍ قَسَا عليه قبل ذاك[٦].

٢ـ أبو خِراش وقد حَطَمَتْهُ السِّنُّ مَشوقًا لابنِهِ خِراشٍ بعد انقراض أهله، وقد هَاجَرَ خِراشٌ غازيًا وأوغل في أرض العدو في عهد عمرَ بنِ الخطاب[٧].

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٢١، وما بعدها، وأخرى في: ج٣، ص١٢٣٤، وما بعدها.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٢٣، وما بعدها، وأخرى في: ج٣، ص١٢٢٦، وما بعدها.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٢٧، وما بعدها.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٣٠٧، وما بعدها.

(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩٥٠، وما بعدها.

(٦) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢١٧، وما بعدها.

(٧) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٤٢، وما بعدها.

CamScanner

الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا نَمُوذَجًا لِتَتَبُّعِ السَّرَيَانِ التَّدَاوُلِيِّ:

من قَلْبِ الرثاء الهذلي تتوجه عيون المتلقين، وبخاصة مَلَؤُهم - وهم البلاغيون والنقاد - إلى استعارة تخييلية باذِخة، يرصدونها مثالًا على جودة الاستعارة وذُرْوتِها، وتُصِرُّ على التمسُّكِ بها أجيالُ العلماء خَلَفًا عن سَلَفٍ، حتى تكون تِمثالا للحسن المعبود، والجوهر المعدود[1].

اسْتِعَارَةُ أَبِي ذُؤَيْبٍ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ:

ومَزِيَّة الشاهد البلاغي أنه يتسع للقرون الأولى وزيادة؛ فلا يتقيد بتأقيتِ الاحتجاج النحوي، ومن أبرز هؤلاء البلاغيين الذين استدعوا المدوَّنة الشعرية الهذلية الإمامُ أبو يعقوب السَّكَّاكِيُّ، المتوفى ٦٢٦هـ، وقد كان بالإجماع علَامةً في تاريخ البلاغة العربية لا تتجاوز، فما من أحد تأدَّبَ بآداب العرب إلا مر عليه، وهذه المكانة التي مُنِحَهَا السَّكَّاكِيُّ مِن قِبَل الجماعة العلمية والذوق العام في عصره ومِن بعده، هذه المكانة التي له هي عينُها مكانةُ مؤلَّفه الأَسْيَر في الناس، الذي جلب له تلك المنزلة، وهو مِفتاح العلوم.

قال السَّكَّاكِيُّ في أول باب الاستعارة: «... أو كما تقول: إن المنية أنشبت أظفارها، وأنت تريد بالمنية السَّبُع بادعاء السَّبُعِية لها، وإنكار أن تكون شيئًا غيرَ سَبُعٍ؛ فَتُثْبِتُ لها ما يخص المشبه به وهو الأظفار»[2] وهذه هي استعارة أبي ذؤيب في أول قصيدة أوردها السكري له في ديوانه، التي يرثي بها أبناءه الخمسة، ومطلعها:

---

(١) يقول بعض الباحثين في معرِض الكلام على البناء الاستعاري للموت في الشعر الهذلي: «تناول الدارسون هذا البيت؛ فلم يكد كتاب قديم أو حديث يخلو من التعليق عليه» انظر:
- محمد خليل الخلايلة: بنائية اللغة الشعرية عند الهذليين، عالم الكتب الجديد، إربد الأردن ٢٠٠٤، ط١، ص١٥١.

(٢) السكاكي: مفتاح العلوم، ص٣٦٩.

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ   وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[1]

وجاءت في البيت العاشر، وهو:

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا   أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ[2]

وبعد أن يلخص السَّكَّاكِيُّ كلامًا عن سِيبَوَيْهِ والأخفشِ مُسَمِّيًا لهما يقول: «هذا ما أمكن من تلخيص كلام الأصحاب في هذا الفصل، ولو أنهم جعلوا قِسم الاستعارة التبعيَّة من قسم الاستعارة بالكناية ... كما نراهم في قوله وإذا المنية أنشبت أظفارَها يجعلون المنية استعارة بالكناية عن السبع، ويجعلون إثبات الأظفار لها قرينة الاستعارة»[3] وهذا نص خطير يشهد لهذا البيت أنه قد تُدُووِل قديمًا وحديثًا، وصار مَكِينًا دائرًا في شواهد القوم واختياراتهم الذوقية[4].

وكان السَّكَّاكِيُّ أشار إلى هذه الاستعارة من حيث التشبيه فيها فقط في كلامه على التشبيه في أول باب البيان، حين بدأ الكلام على طرفَيْه التشبيه من جهة كونها أو أحدِهما محسوسَيْنِ أو معقولَيْنِ؛ فقال: «وإما أن يكون المشبَّه معقولًا والمشبَّه به محسوسًا ... وكالمنية إذا شُبِّهَتْ بالسبع»[5] ثم قال: «وأما الوهميات المحضة كما إذا قَدَّرْنَا صورة وهميةً محضة مع المنية مثلا، ثم شبهناها بالمِخلب أو بالناب المحقَّقَيْن،

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٨.

(٣) السَّكَّاكِيُّ: مِفْتَاحُ الْعُلُومِ، ص٣٨٤.

(٤) وللوقوف على طريقة السكري في شرح البيت راجع:

- عفاف طريلي: النص الواصف شرح أشعار الهذليين أنموذجا، رسالة ماجستير بقسم الأدب العربي بكلية الآداب واللغات بجامعة الحاج لخضر باتنة، بإشراف: عبد الله العشي، الجزائر ٢٠١١، ص١٤٩-١٥٠.

(٥) السَّكَّاكِيُّ: مِفْتَاحُ الْعُلُومِ، ص٣٣٣.

فقلنا افترَسَتْ المنيةُ فلانًا بشيء هو لها شبيه بالمخلب أو بشيء هو لها شبيه بالناب»[1].

وجاء القزويني، المتوفي ٧٣٩هـ من بعد السَّكَّاكِيِّ مختصِرًا كتابَه، فكانت هذه الاستعارة مما رآه القزويني ضروريًّا في الكتاب لا يُستغنى عنه، مع أنه كان يجتهد في إخراج مختصَرٍ متنٍ دقيقٍ محكمِ العبارة على غرار متون المتأخرين في كل العلوم، وقد أشار كأستاذه في باب اختلاف طرفي التشبيه بين الحس والعقل فقال: «أو مختلفان كالمنية والسَّبُع»[2] ثم جاء في باب الاستعارة بصدر البيت في التلخيص، وأورده بتمامه ونَسَبَه في شرحه على تلخيصه[3]، وفتح بذلك بابًا للشراح والمحشين ليعلقوا عليه، حتى جاء الشيخ الدسوقي متوسعًا في حاشيته على مختصر السعد، فأورد كثيرًا من المعلومات عن حياة الشاعر ومواقفه ووفاته ومناسبة القصيدة، وأورد كذلك أوَّلَ خمسةَ عشرَ بيتًا من القصيدة[4] على غير عادة المحشين في إيراد الشعر أو الاستطرادات غير النحوية والمنطقية والكلامية والفنية.

وكذلك جاء بهاء الدين السُّبْكي، المتوفى ٧٧٣هـ؛ فذكر مناسبة القصيدة، ونَسَبَها إلى قائلها، وذَكَرَ منها تسعة أبيات[5]، والمعلوم أن إيراد الأبيات في الحاشية أقرب منه في شرح، وِفَاقًا لمنهج التحشية الذي يختلف عن منهج الشرح خاصة في الاستطرادات، ولأن الشرح الفني للمسألة البلاغية في منع افتراق التخييلية عن المكنِيَّة أو عدم المنع، هذا الشرح الفني للمثال المذكور لا يحتاج إلى استدعاء كل هذه الأبيات؛ فيدل ذلك على أن ذكر الأبيات من السبكي جاء للترنم والتأثر، والانفعال الذوقي بها جميعًا وعلى رأسها بيت الاستعارة المشار إليه.

---

(١) السَّكَّاكِيُّ: مِفْتَاحُ الْعُلُومِ، ص٣٣٣.

(٢) شروح التلخيص، ج٣، ص٣١١، من تلخيص القزويني نفسه لا الإيضاح.

(٣) شروح التلخيص، ج٤، ص١٥٤، من كلام القزويني في الإيضاح.

(٤) شروح التخليص، ج٤، ص١٥٣، من حاشية الدسوقي.

(٥) شروح التلخيص، ج٤، ص١٥٦-١٥٨، من شرح بهاء الدين السبكي.

CamScanner

كما نجد بعد ذلك عبدَ الرحيم العباسيَّ في شرحه لشواهد التلخيص يتوسع في ذكر أخبار أبي ذؤيب، مما لم ينقُلْهُ السُّكري، ويذكر لأبي ذؤيبٍ أشعارًا أخرى له لم تَرِد في شرح السكري، مما يدل على أنه لم يَطَّلع على شرح السكري، ولم يكن تَعَرُّفُه إلى الشعر والشاعر من جهة ديوانه، ولكن من جهة التناقل الأدبي العام الذي يَرفع ويَخفض ويُذيع ويُخمل، ويبادر ناقلا: «وَقَالَ أَبُو زيد عَمْرو بن شبيَة تقدم أَبُو ذُؤَيْب جَمِيع شعراء هُذَيْل بقصيدته العينية»[1] ويذكر من أوائلها المصنف ثلاثة عشر بيتا بغير رواية السكري أيضًا.

كما يعود بنا لقصة أدبية مُهِمَّة تكشف عن صِيتٌ هذه القصيدة وتلكم الأبيات في العهود الأولى حيث القرن الثاني الهجري، وهو صِيتٌ ليس عند رواة الديوان من علماء البصرة والكوفة بل هو عند خليفة المسلمين أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور العباسي الهاشمي القرشي، حين يموت ابنه جعفرٌ، ويدفنه، ثم يَرُوعُ[2] إلى قصره، ويُقبِل على الربيع قائلا[3]: «يَا ربيع انْظُر من فِي أَهلِي ينشدني: أمنَ الْمنون وَرَيبها تتوجعُ ... حَتَّى أَتَسَلَّى عَن مصيبتي، قَالَ الرّبيع: فَخرجتُ إِلَى بني هَاشم وهم بأجمعهم حُضُور؛ فسألتهم عَنْهَا؛ فَلم يكن فيهم أحدٌ يحفظها؛ فَرَجَعت فَأَخْبَرته؛ فَقَالَ: وَالله لمصيبتي بِأَهْل بَيْتِي أَلَّا يكون فيهم أحد يحفظ هَذِه القصيدة لِقِلَّة رغبتهم فِي الأَدَب أعظم وَأَشد

(١) عَبْدُ الرَّحِيمِ الْعَبَّاسِيُّ: مَعَاهِدُ التَّنْصِيصِ، المجلد الثاني، ص١٦٨.

(٢) راع يروع فهو رائع بمعنى راجع في لغة هذيل، قال أبو ضخر:

وَقَـدْ طَـالَ هَـذَا لَا أَرَاكَ مُنَـوَّلًا وَلَا أَنْـتَ إِنْ رَاعَ الْمُحِبُّونَ رَائِعُ

انظر: السكري: شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٩٣٥، هامش١.

(٣) ومصدر القصة هو أبو الفرج الأصفهاني؛ إذ رواها بسنده قائلا: «أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال: حدثني أحمد بن عمر النحوي قال: حدثني أبي عن الهيثم بن عدي، عن ابن عياش قال: لما مات جعفر بن المنصور الأكبرُ ...» انظر:

- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج٦، ص٢٧٢، وما بعدها.

عَليَّ من مصيبتي بِابْني» وهنا يظهر الأثر ويُسْفِر، وحيث يَرى الخليفة أن عدم حفظ أحد من كل بني هاشم لهذه القصيدة مؤلم له أكثر من تألمه بفقد ابنِه الأكبر الذي مات.

ويرى أيضًا أن عدم حفظ واحد منهم لها دليل على ضعف طلبهم للأدب، ورغبتِهم عنه، مهما كان معهم من شعرٍ غيره، وهذه منزلة ـ ايم الله ـ نادرةٌ لشيء من الشعر في بني قريش، وقريش من أندر قبائل العرب شعرًا وأضعفهم له إتقانا وأقلهم به تعلقًا.

ثم إن هذه الشهادة قد جاءت من غير هذلي، فهي عارية عن مِسحة التعصُّب للعَصَب القَبَلي، كما أنها شهادة عارية من التعصُّب للشعر من جهة شاعرٍ، فإن المنصور لم يُعرَف بين الناس بأنه شاعر، وهذا دليل على سَرَيَان القصيدة في أوصال الأدب العربي، واحتلالها المكان المكين في نفوس جماهير المتلقين، حتى يحرص عليها مثل المنصور الذي شغله السيادة والسياسة، وهو يريد لبَنِيه أن يرثوا مُلكَ آبائهم عنه؛ ولذا يسعى إلى أن يتحلَّوْا بأطراف المهارات والعلوم والفنون، ويرى من ضرورات ذلك روايتَهم لقصيدة أبي ذؤيب تلك.

ولا ننسى أن مشهد العزاء للخليفة في فَقْد ابنِه البِكْر مشهدٌ يَضُمُّ وجوهَ قُرَيْشٍ إن لم يَضُمَّ كلَّ قريش، فهذا خليفة المسلمين، ثم هو منهم، ثم هو واجب العزاء بالمروءة والدين؛ فلا يتخلف عنه رجل من الناس؛ فكيف من قريش؟! وقد كان الدفن في الحجاز حيث أكثر قريش.

وإلى هذا المحل من القصة ظهر أثرُ فعل الكلام بكل وضوح، وظهر في جانب استكمال مطالب السؤدد والسيادة، ثم تنحو القصة مَنْحَاةً داخليةً ذوقيةً أخرى، تكشف عن جانب نفسي أعمق في تمثل القصيدة عند الخليفة، وهذا حين لم يتوقف المنصور عن طلب القصيدة لَمَّا لم يجدْهَا مع قومه من الهاشميين، بل قال للربيع: «انْظُر هَل فِي القُوَّادِ والعَوَامِّ من يَعرفُهَا؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أسمعَهَا من إِنْسَان يُنشدها» فخرج الربيع فأتى بمن ينشدها للخليفة فلما قال المنشد: والدَّهرُ لَيْسَ بمعتب من يجزعُ، قَالَ الخليفة: «صدق

وَاللهِ فَأَنْشِدْنِي هَذَا الْبَيْتَ مِائَةَ مرَّة، لِتُرَدِّدْ هَذَا المصراع عَلَيَّ» يقول الربيع: «فأنشدَه».

وهنا يظهر الجانب الداخلي حيث يسرِّي المفتَتح الساحر الذي صرخ به أبو ذؤيب عن الحزين، فهو بنفسِه وتَرداده وتمثله سَلوى عن المصاب ومُآسَاة في الفِقدان، وهذا سيستدعي منا وقوفًا عنده بعد قليل إن شاء الله تعالى.

ولِنزدادَ معرفة بالأجزاء الأشيع في القصيدة يخبرُنا الربيعُ أن المنشدَ بعدَ تَرداد البيت الأول مائة مرة انطلق في أبيات القصيدة، فَلَمَّا انْتهى إِلَى قَوْله: والدهر لَا يبْقى على حدثانِهِ. قَالَ أبو جعفر: «سلا أَبُو ذُؤَيْب عِنْد هَذَا القَوْل»[1]

وهذا يدل على تحول فني في القصيدة وَجَدَ صَدَاهُ المنصور في نفسه، وهو أن الشَّوْط الأول من القصيدة ـ وهو ما قبل قصة حُمُر الوَحْش ـ قد أفرغ ما في جوف المكلوم من دَمٍ محبوس، وسَهْم مغروس، وصَبْر محروس، حتى ينفجرَ ما انحبس من دَمِه، ويَستخرج ذلك السهمَ من جسده، ويَسمحَ لنفسه أن يجهَر ويجأَرَ بعد صمته وكَمَده، وهنا في نهاية الشَّوْط الأول تهدأ النفس، وتنطلق في رحلة هدفها السُّلوان عن المصاب، والنسيان للحزن، وهذه الرحلة تشبه الرِّحْلة التي اعتاد الهذليون ذكرها في أشعارهم بعد أن ينكسر قلب الشاعر المحب بظعن محبوبته أو صدودها عنه.

بَيْدَ أن الفرق بين الرحلتين، أن الرحلة بعد صَدِّ المحبوبة أو ظَعْنِها تذكر بوصفها رحلةً، فكأنها استعارةٌ من الدرجة الأولى، حين يقول مُلَيْحُ بنُ الحكَمِ القِرْدِي الهذلي:

بَلْ سَوْفَ تُسْلِيكَ عَنْ لَيْلَى وَذِكْرِهَا ... حَـرْفٌ تَغَنَّى بِأَطْرَافِ الشَّبَا أُجُدُ[2]

وقوله بعد ذكر صُرم حبيبته:

فَـمَـا صُرْمُـهَـا إِلَّا كَصُـرْمٍ قَبْلَتُـهُ ... مِـنْ اخْـرَى، وَكُلٌّ لَسْـتُ مِنْـهُ بِآيِلِ

(١) عَبْدُ الرَّحِيمِ الْعَبَّاسِيُّ: مَعَاهِدُ التَّنْصِيصِ، المجلد الثاني، ص١٦٨.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٠١٧، والأُجُدُ: الْمُوَثَّقَةُ الْخَلْقِ.

CamScanner

وَمَا هَمُّهَا إِلَّا كَهَمٍّ جَلَوْتُهُ   بِعَزْمٍ يَنِي مِنْ دُونِهِ كُلُّ عَاذِلِ
وَمُسْتَخْلِسِ الْأَرْطَى مَخُوفٍ بِهِ الرَّدَى   بَعِيدِ الْمَدَى لِلْعِيسِ دَفْنِ الْمَنَاهِلِ
قَطَعْتُ إِذَا مَا اللَّيْلُ أَدْنَى رِوَاقَهُ   بِمُلْتَهِمِ الصَّحْرَاءِ جَوْنِ الْغَيَاطِلِ(١)

أما الرحلة التي ذكرها أبو ذؤيب القِرْدِيُّ في العينية؛ فإنها تُذكِّر بوصفِها تفاصيلَ عن ألوانٍ للموت، كأنها ثلاثُ رِحْلَات تُنْتَظَمُ في رحلة واحدة، رحلةِ الحِمَار الوحشي وأُتُنِه، ورحلة الثَّوْر ورحلة الفارسَين المتقاتلين، وكلُّها شَوْطٌ آخر يَرُدُّ على الشَّوْط الأول للقصيدة؛ فكأنه بهذا استعمل استعارةً مركَّبةً من الدرجة الثانية، فيها تلك المشاهد الثلاثة تمثل تشخُّصاتِ الموت في صور متعددة، وفيها ارتحالٌ بعيدٌ عن موقع الحدث الأصلي، وهو فقد البَنِين، إلى أماكن تلك المشاهد الثلاثة ومَاجَرَيَاتِهَا.

والمفجوع في أبنائه يحتاج أن يشغل بغير فجيعته تلك، ولذلك كان يجهد أبو ذؤيب نفسه في العمل؛ لِيَشغل بالَه عن التفكير في فقده ووجده وعجزه وألمه، ودل على ذلك قول زوجه له:

قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لِجِسْمِكَ شَاحِبًا   مُنْذُ ابْتَذَلْتَ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ(٢)

فكان يمكنه الاستغناءُ عن الأعمال البسيطة باستئجار غيره لها أو شراءِ عبدٍ مثلًا، لكنه آثر ابتذالَ نفسِه فيها؛ حتى ينشغلَ، ويَسْلُو؛ ولأن كثرةَ العمل تهدم الجسد، وتُعِينُه على النوم إذا ما آب إلى الفِراش، لكنه مع ذلك لم يكن يُدْرِك النوم هذا، وقد قَيَّدَتْ عليه زوجُه هذا؛ فقَيَّدَهُ هو على نفسه:

أَمَّا لِجَنْبِكَ لَا يُلَائِمُ مَضْجَعًا   إِلَّا أَقَضَّ عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ(٣)

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٠٢٦،
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٥.
(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٥.

CamScanner

ولذلك ابتكر أبو ذؤيب وسيلةً أخرى للسُّلوان، هي الخطاب الشعري، والمقصود هنا هو الشوط الثاني الذي هو تخييل كلِّيٌّ عالٍ يندرج تحته تخييلاتٌ جزئية تمثيلية مركبة أيضًا، ولعل هذا السبب هو ما جعل المنصور يقول عند أول الشوط الثاني: «سلا أَبُو ذُؤَيْب عِنْد هَذَا القَوْل».

وفي ختام القصة يَقِفُنا الربيعُ على التجلي المالي لهذه القصيدة على راوِيها، حين يقول: «ثمَّ أَمرَ الشَّيْخ بالانصراف؛ فاتَّبَعْتُه: فَقلتُ أَمَرَ لَك أَمِيرُ الْمُؤْمنِينَ بِشَيْء؟ قَالَ: نعم. وَأَرَانِي صُرَّةً فِي يَده فِيهَا مِائَةُ دِرْهَم» وهذا المبلغ من المال يعدل نصف نصاب الزكاة عند المسلمين، وهو مبلغ ضخمٌ وافرٌ ليس بالهين، يَعدِل في ذلك عشرة مثاقيلَ من الذهب العِقْيَان الحرِّ، وأعظِمْ بها من ثروة!

ولو شئنا تتبع البلاغيين العرب إلى طبقة المعاصرين؛ فسنجد على سبيل المثال عبدَ المتعال الصعيديَّ في شرحه على التلخيص يتوسَّع في استدعاء الاستعارة الذُّؤَيبيَّة في غير عِلْم البيان الذي تمكنَتْ منه، إلى أن يضع لها تمرينات في علم المعاني أيضًا[1].

التَّمَثُّلُ بِالْبَيْتِ عِنْدَ الْمَلَإِ فِي الْقَرْنَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ:

وكان هذا البيتُ قبل المنصور في عصرِ بني أُمَيَّةَ مشهورًا معروفًا، حيث تمثَّل به أيضًا الحجَّاجُ بنُ يوسفَ الثَّقَفِيُّ عند تَسَلُّمِه لِكِتَابٍ من أميرِ المؤمنين عبدِ الملك بنِ مرْوَان أغلظَ فيه له القولَ، ورَوَى القصةَ الرسولُ، وهو نباتة مَولًى لأمير المؤمنين، وقال فيها واصفًا الحَجَّاج: «فمَسَح العَرَقَ عن جَبِينِه، ثم قال مُتَمَثِّلًا»[2] وذكر البيت، وهذا

---

(١) عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح في تلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٥، ط١٧، ج١، ص٢٠٧.

(٢) روى القصة بتمامها:

ـ أحمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣، ط١، ج٥، ص٢٨٤.

يَدُلُّ على أن الفتى كان عالِمًا بالبيت أيضًا، وعالِمًا بأن الحَجَّاجَ لم يُنشِئه، ولكنه تمثَّل.

فهذا شأن الحجّاجِ، وشأنُ مَولَى عبدِ الملِك، أما منزلةُ أشعار الهذليين عند الخليفة عبدِ الملك بن مرْوان نفسِه فقد كانت في أعلى عِلِّيِّين، يدل على ذلك ما نَقَله ابنُ عبدِ ربه قائلًا: «وذُكِرَ الشعرُ عند عبدِ الملك بن مرْوَان فقال: إذا أردتم الشعر الجيدَ فعليكم بالزُّرق من بني قَيْس بنِ ثَعْلَبَة ـ وهم رَهْطُ أعْشَى بَكْرٍ ـ وبأصحاب النَّخْل من يَثْرِب ـ يريدُ الأَوْسَ والخَزْرَج ـ وأصحابِ الشَّعَفِ من هُذَيْل. والشَّعَف رؤُوس الجبال»[1]

وقبل الحَجَّاج وعبدِ الملك كان قد تمثَّل بالبيت الذُّؤَيبِيِّ الحسينُ بنُ علي رضي الله عنهما عند الخليفة الأمويِّ الأول معاويةَ بنِ أبي سفيانٍ، حينما دخل عليه، وكان معاويةً مريضًا، فقال معاويةُ متمثلا ببيت أبي ذؤيب:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

فأجابه الحسين متمثلا بقول أبي ذؤيب أيضًا:

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ[2]

وفي رواية أخرى[3] أن الذي دخل على معاوية كان ابنَ عبَّاس رضي الله عن الجميع[4]، وهذا دال على أن كُلاًّ منهما كان على معرفة تامة بالبيت بل القصيدة، معرفةً تمكِّنه من التمثل بها عفوًا بلا تَكلُّف أو اعتمال.

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، ج٦، ص١٢٢-١٢٣.

(٢) ذكر ذلك: أبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد: الفاضل، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٤٢١هـ ط٣، ص٥١.

(٣) عَبْدُ الرَّحِيمِ الْعَبَّاسِيُّ: مَعَاهِدُ التَّنْصِيصِ، المجلد الثاني، ص١٦٤.

(٤) وقد ذكر القصة وناقشها تاريخيًّا:

ـ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد المعروف بابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٩٠، ج٦، ص١٥٥.

وأيضًا كما استدعى المنصورُ هذا البيتَ الفريدَ لأبي ذؤيب، استدعاه مِن بَعدِه الرشيدُ في ضَربِ المثل على نفاذ الأمر بالموت مع أمه في الرضاع أمِّ جعفرٍ حين جاءت تشفع في بعض مَن أخذه(١).

وهذا الخليفة العباسي الرشيدُ كان شديد الوَلَع بأشعار الهذليين، حيث جاء في مجالس ثَعْلَب: «حدثنا أحمدُ بنُ يَحيى النَّحْويُّ المعروفُ بثعلب، ثنا زبير قال: كان الرشيد يَسْتَنْشِد أبي كثيرًا قولَ أبي جُنْدَب الهذَلي:

يَا مِسْـكُ رُدِّي فُـؤَادَ الْهَائِـمِ الْكَمِدِ ... مِـنْ قَبْـلِ أَنْ تُطْلَبِي بِالْعَقْـلِ وَالْقَوَدِ

أَمَّـا الْفُـؤَادُ فَشَـيْءٌ قَـدْ ذَهَبْـتِ بِـهِ ... فَـلَا يَضُـرُّكِ أَلَّا تُحْـرِزِي جَسَـدِي

مَـا زَالَ فِينَـا قَـتِيـلٌ يَسْـتَطِبُّ لَـهُ ... مِـنْ حُـبِّ زَيْنَـبَ قَلْبًـا لَيْلَـةَ الْأَحَدِ

حُـزْتِ الْجَمَـالَ وَنَشْـرًا طَيِّبًـا أَرِجًا ... فَمَـا تُسَـمَّيْنَ إِلَّا مِسْـكَةَ الْبَلَـدِ»(٢)

وإن كانت ذي حالُ هارونَ الرشيدَ المتوفَّى ١٩٣هـ، فأعْجَبُ منها حالُ أخيه الهادي المتوفى ١٧٠هـ، وهو موسى بن محمد المهدي بن المنصور، وكان من أشد

---

(١) نقل الحادثة بتفاصيلَ كثيرةٍ:

- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٥، ص٣٢٢.

(٢) ثعلب: مجالس ثعلب، شرح وتحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ، ومقدمة اللجنة بدار المعارف ممهورة بإمضاء ثلة غير عبد السلام هارون بتاريخ ١٩٨٤، ط٢، القسم الأول، ص١٨٧.

وقال المحقق في الهامش١: لم أجد الأبيات التالية في شعر أبي جندَب من أشعار الهذليين، ولا شعره يشبه شعره.

وقال عنها بعض الباحثين: «ولعلها من شعر عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلي، الشاعر الإسلامي المشهور بالغزل» انظر:

- إسماعيل داود محمد النتشة: أشعار هذيل وأثرها في محيط الأدب العربي، دار البشير، مؤسسة الرسالة، وأصلها رسالة دكتوراه ١٩٧٦، ج٢، ص٢٨٤.

الناس تفاعلًا مع الخطاب الشعري الهذلي، وهنا يَـروِي الأصفهاني بسنده قائلًا: «أخبرني محمد ابن مزيد قال: حدَّثنا حمَّادُ بن إسحاق قال: حدَّثني أبي عن جدِّي قال: دخلت يومًا على موسى الهادي وهو مصطبح، فقال لي: يا إبراهيم غنِّني، فإن أطربتَني فلك حُكمُك، فغنَّيته:

وَإِنِّـي لَتَعْرُونِـي لِذِكْـرَاكِ فَتْـرَةٌ[1] ... كَمَـا انْتَفَـضَ الْعُصْفُورُ بَلَّلَـهُ الْقَطْرُ

فضرب بيده إلى جنب دُرَّاعَتِه؛ فشقَّها؛ حتى انتهى به إلى صدره.

ثمَّ غنَّيتُه:

أَمَـا وَالَّذِي أَبْكَـى وَأَضْحَكَ وَالَّذِي ... أَمَـاتَ وَأَحْيَـا وَالَّـذِي أَمْـرُهُ الْأَمْـرُ

لَقَدْ تَرَكَتْنِي أَحْسُدُ[2] الوَحْشَ أَنْ أَرَى ... أَلِيفَيْـنِ مِنْهَـا لَا يَرُوعُهُمَـا الزَّجْرُ

فشقَّ دُرَّاعَتَه حتى انتهى إلى آخرها.

ثم غنَّيتُه:

فَيَـا حُبَّهَـا زِدْنِـي جَـوًى كُلَّ لَيْلَـةٍ ... وَيَـا سَـلْوَةَ الْأَيَّـامِ مَوْعِدُكِ الْحَشْـرُ

فَشَقَّ جُبَّةً كانت تحت الدُّرَّاعة حتى هَتَكَها.

ثمّ غنَّيتُه:

عَجِبْـتُ لِسَـعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِـي وَبَيْنَهَا ... فَلَمَّـا انْقَضَى مَـا بَيْنَنَا سَـكَنَ الدَّهْرُ

فشقَّ قميصًا كان تحت ثيابه حتى بدَا جسمُه، ثم قال: أحسنتَ واللَّه...»[3]

وهذه هي قصيدة أبي صخر التي مطلعها:

---

(١) في بعض نسخ الأغاني: «نفضة» أما في الديوان فصدر البيت: «إذا ذكرت يرتاح قلبي لذكرها» انظر: السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩٥٧، البيت الثامن.

(٢) في الديوان «أَغْبِطُ».

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ج٢٣، ص٢٨١.

CamScanner

لِلَيْلَى بِـذَاتِ الْبَيْـنِ دَارٌ عَرَفْـتُهَـا ... وَأُخْرَى بِذَاتِ الْجَيْشِ آيَاتُهَا عُفْرُ(١)

وفي مِضمار الخلفاء العباسيين وتفاعلهم مع بيت أبي ذؤيب السائر:

وَإِذَا الْمَنِيَّـةُ أَنْشَـبَتْ أَظْفَارَهَـا ... أَلْفَيْـتَ كُلَّ تَمِيمَـةٍ لَا تَنْفَـعُ(٢)

جاء الخليفة العباسي عبدُ الله بنُ الْمُعْتَز بالله؛ ليكمل التَّسيَار؛ فيُبْدِي إعجابه أيضًا بهذا البيت الفريد في كتابه البَدِيع في البديع(٣).

ومما يُظهر عنايةَ ابنِ المعتز بالخطاب الشعري الهذلي وعنايةَ الناس في تلكم العصور به أنه قد حَكَى لنا قصةَ أبي المنهال عوفِ بنِ محلم الخزاعي بالولاء المتوفى نحو ٢٢٠هـ(٤)، وقد نادم طاهر بن الحسين لا يفارقه ثلاثين سنة، ثم ابنَه عبدَ الله، وكلاهما لا يأذن له بالعودة لوطنه في حَرَّان، فبينا كان عوف وعبد الله في قبة يتسامران إذا بقمري يغرد بأشجى صوت وأرَقِّ نغمة «فالتفت عبد الله إلى عوف فقال: يا أبا ملحم، أما تسمع هذا الصوت؟ ما أرقه وأشجاه! قاتل الله أبا كبيرٍ الهذلي حيث يقول:

أَلَا يَـا حَمَامَ الْأَيْـكِ فَرْخُكَ حَاضِرٌ ... وَغُصْنُـكَ مَيَّـادٌ؛ فَـفِيمَ تَـنُـوحُ؟!

قال عوف: أحسن والله أبو كبير وأجاد أيها الأمير. كان في هذيل أربعون شاعرًا مذكورًا محسِنًا سواء المتوسطين، وكان أبو كبيرٍ من أظهرهم وأقدرهم على القول»(٥).

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ٩٥٦-٩٥٩.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٨.

(٣) أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله العباسي: البديع في البديع، دار الجيل، بيروت ١٩٩٠، ط١، ص٨٨.

(٤) خير الدين بن محمود الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢، ط١٥، ج٥، ص٩٦، وما بعدها، وراجع هناك مراجع الترجمة.

(٥) أبو العباس عبد الله بن محمد بن المعتز العباسي: طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ص١٨٦، وما بعدها.

CamScanner

وذي إشارة بينة إلى حقيقة نقدية ذائعة شائعة في القرون الثلاثة الأولى الهجرية على الأقل، كأنها تمثل معلومًا من النقد والأدب بالضرورة، وهي حقيقة الأربعين شاعرًا هذليًّا الذين كانوا يتربعون في أعلى رُبَى الجودة الشعرية، يؤكد ذلك أن الأصمعي الذي تُوُفي ٢١٦هـ على خلاف يسير في تحديد سنة وفاته، فهو إذن متزامن مع عوف الشاعر، والأصمعي من أَرْوَى العلماء لأشعار هذيل، جاء في كتابه فحولة الشعراء: «حدثنا أبو حاتم قال: حدثنا الأصمعي قال: قيل لحسان: من أشعر الناس؟ قال: أشعرهم رجلا أم قبيلة؟ قيل: بل قبيلة؟ قال: هذيل». ثم جاء بعد ذلك مباشرة: «قال الأصمعي: فيهم أربعون شاعرًا مُفْلِقًا، وكلُّهم يعدُو على رجلِه ليس فيهم فارِس».[1] فهذا يُنقَل بوصفه حقيقةً نقدية معروفة عن الرجلين معًا، ويتابع ابنُ المعتزِّ عوفًا بنقْل القصة في كتابه، وقد توفي ابن المعتز ٢٩٦هـ، أي أنه معاصر للسكري المتوفى ٢٧٥هـ، وكأن هذا كان يجري مَجرى المسلَّم بين المشتغلين بالأدب إلى القرن الثالث الهجري.

ثم يمضي ابنُ المعتز مع قصةِ عوفٍ قائلًا: «قال عبد الله: عزَمْتُ عليك إلا أجَزْتَ هذا البيت. قال عوفٌ: أصلح الله الأمير، شيخٌ مُسِنٌّ وأُحْمَلُ على البديهة، وعلى معارضة مثل أبي كبيرٍ، وهو مَن قد عَلِمْتَ؟ قال عبد الله: عزمتُ عليك، وسألتك بحق طاهر إلا فَعلتَ. فأنشأ يقول:

أَفِي كُلِّ عَامٍ غُرْبَةٌ وَنُزُوحُ   أَمَا لِلنَّوَى مِنْ وَنْيَةٍ فَتُرِيحُ

...

أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكِ فَرْخُكَ حَاضِرٌ   وَغُصْنُكَ مَيَّادٌ؛ فَفِيمَ تَنُوحُ؟!

... فاستعبر عبد الله، وَرَقَّ له لما سمع من تشوُّقِه إلى أهله وبلده، فقال: يا بن محلم ما أحسن ما تلطَّفْتَ لحاجَتِك! واستأذنتَ في الرجوع إلى أهلك وولَدِك! وإني

---

(١) الأصمعي: فحولة الشعراء، ص١٩.

بك لضنين، وبقربك لشحيح، ولكن ـ والله ـ لا جاوزْتَ مكانك هذا حتى ترجع إلى أهلك وولدك. وأمرَ له بثلاثين ألفَ ردهم نفقةً، ورَده إلى موضعه ذلك».

وهنا لا يظهر أثر خطاب أبي كبير فقط في عوف وعبد الله، بل يَظهر أثرُ انعكاسه على عوف، وملاءمته لحاله، حينما ضَمَّن بيتَه في قصيدته وهو يعارضه، بعد أن استكثر على نفسه معارضته إكبارًا له وتقالًّا لنفسه؛ خشية أن تقصر عن معارضته.

وفي العباسيين عناية كبيرة بالخطاب الهذلي؛ لِمَا وجدوه فيه من تعبير عن أنفسهم، بحيث يحضر سجيةً في مجالسهم وأنديتهم؛ فهذا أبو جعفر محمد بن علي كان إذا نظر إلى أخيه زيد تمثل بخمسة أبيات للمتنخل، ثم يقول: «لقد أنجبتْ أمٌّ ولدتْكَ يا زيد، اللَّهم اشدُدْ أزري بزيد»(1) والأبيات من رثائيةٍ للمتنخل الهذلي، هي ستة أبيات يرثي بها أباه، مطلعها:

لَعَمْـرُكَ مَـا إِنْ أَبُـو مَالِـكٍ ... بِوَاهٍ وَلَا بِضَعِيـفٍ قُوَاهْ(2)

حتى إذا جئْنَا إلى العصر الحديث وجدنا استعارة أبي ذؤيب مركوزة في المخيلة الجمعية للجماعة الأدبية؛ فيبني عليها حافظ إبراهيم بكل سهولة قائلا:

يُدَانِي شُخُوصَ الْمَوْتِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... لَـهُ بَيْـنَ أَظْفَـارِ الْمَنِيَّـةِ مَطْلَـبُ(3)

اسْتِعَارَةُ أَبِي ذُؤَيْبٍ عِنْدَ النُّقَّادِ وَأَصْحَابِ الِاخْتِيَارَاتِ الشِّعْرِيَّةِ:

ولمعرفة منزلة هذه الاستعارة الذُّؤَيبِيَّة التي لا تَخْلَقَ على كثرة الرد وبيتها والخطاب الشعري الهذلي بعامة ننتقل من التراث البلاغي إلى التراث النقدي لنرى أصحاب

---

(1) الأصفهاني: الأغاني، ج٢٣، ص٢٦٥.

(2) هنا رواها الأصفهاني بلفظ «بِوَاهٍ» وقبلها رواها «بِوَانٍ» وقد أُثْبِتَتِ الروايتان في: السكري: شرح أشعار الهذليين، ج٣، ١٢٧٦. على أن هذا القسم من الديوان ليس من شرح السكري بالضرورة، راجع كلام المحقق: ج٣، ص١٠٦٥.

(3) حافظ إبراهيم: ديوانه، طبعة دار الكتاب، ج١، ص١٦.

CamScanner

المنتخبات الشعرية والكتب الأدبية كيف اعتنوا باختيارها من بين زهورهم وحدائقهم، وكيف حكموا على أبي ذؤيب في ميدان شاعريته وقومه.

فمن أقدم المجموعات الشعرية التي عبرت عن ذوق القرن الثاني الهجري المفضليات للإمام المفضل بن محمد الضَّبِّي الكوفي المتوفى نحو ١٦٨ هـ، وقد أورد القصيدة كاملة[١]، وإن كانت مختلة بزيادات ليست منها التبست عليه[٢]، مع تغير كبير في ترتيب الأبيات[٣] أفسد كثيرا من قوتها وسلطتها وسطوتها.

وبعموم فإن القرن الثاني الهجري قد شهد احتفاء واحتفالا بشعر بني هذيل لذاته لا لغيره من معاصر المفضل الكوفي وهو الإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى ٢٠٤هـ رضي الله عنه، يقول الشافعي عن نفسه: «ثم إني خرجتُ عن مكة فلزمت هذيلا في البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها وكانت أفصح العرب. قال [أي: الشافعي أيضا]: فبقيت فيهم سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب»[٤].

ولم يكن ذلك من أجل إتقان الفقه أو النبوغ فيه، بخلاف ما يحلو لكثير من الشافعية أو المتشرعين أن يدعوا، كأن شعر بني هذيل كانت سلطته محصورة في فهم الغريب للتمهر بالقرآن والسنة وإتقان علوم الشريعة لا سيما الفقه، كأنه آلة كالنعل تركب لبلوغ غايات أخرى، حاشاه وحاشا الشافعي الإمام أن يكون خطر هذا بباله فضلا عن أن يصنعه.

والحق أن هذا الفهم باطل كل البطلان، فهذا هو الإمام الشافعي رضي الله يتابع

---

(١) المفضل بن محمد الضبي: المفضليات، ص٤١٩-٤٢٩.

(٢) كالبيتين ١٤، ١٥ وقد تنبه المحقق لهذا، وما كان أحق أن يجزم بعدم نسبتهما لأبي ذؤيب، انظر تعليق المحقق عليهما: ص٤٢٢.

(٣) وهذا ظاهر بأدنى مراجعة للقصيدة في شرح السكري والمفضليات، فهي مطمئنة صالحة منسجمة عند الأول مضطربة مختلطة معوجة عند الأخير.

(٤) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٦، ص٢٣٩٥، وما بعدها.

CamScanner

كلامه قائلا: «فمرّ بي رجل من الزبيريين[١] من بني عمي فقال لي: يا أبا عبد الله عزّ عليّ ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه فتكون قد سدت أهل زمانك، فقلت: فمن بقي ممن يقصد؟ فقال لي: مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ، قال: فوقع ذلك في قلبي؛ فعمدت إلى «الموطأ» فاستعرته من رجل بمكة فحفظته في تسع ليال ظاهرا...»[٢] وهذا نص في أن سلطة الخطاب الشعري الهذلي كانت جامحة زاحفة على أهل مكة في القرن الثاني الهجري، يؤمها نابغهم، ويصطلي بها مستقنعهم، وأن هذه السلطة كانت أدبية مهيمنة لا دينية فقهية ولا لغوية معجمية.

وأما بيت أبي ذؤيب بخصوصه:

وَإِذَا الْمَنِيَّـةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَـا ... أَلْفَيْـتَ كُـلَّ تَمِيمَـةٍ لَا تَـنْفَـعُ

فممن ذكره من المعاصرين للسكري المشارقة من أعيان أهل العلم بالشعر في القرن الثالث الهجري المبرِّد المتوفى ٢٨٥هـ في الكامل[٣] والفاضل[٤] كليهما، وثَعْلَب المتوفى ٢٩١هـ في قواعد الشعر[٥].

وفي أوائل هذا القرن عاش محمد بن سلام الجمحي البصري المتوفى ٢٣٢هـ ومات ببغداد، وهو في طبقة شيوخ السكري، وكان قد قال: «وَكَانَ أَبو ذُؤَيْب شَاعِرًا فحلا لَا غميزة فِيهِ وَلَا وَهن».[٦]

---

(١) في بعض النسخ: الزُّهْرِيِّينَ. راجع: ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٦، ص٢٣٩٥، هامش٥.
(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٦، ص٢٣٩٥.
(٣) المبرِّد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٧، ج٢، ص١٢٧.
(٤) المبرد: الفاضل، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٤٢١هـ ط٣، ص٥١.
(٥) أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب: قواعد الشعر، تحقيق: رمضان عبد التواب، الخانجي، القاهرة ١٩٩٥، ط٢، ص٥٥.
(٦) أبو عبد الله محمد بن سَلاَّم الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ج١، ص١٣١.

CamScanner

وقال ابن سلّام أيضًا: «قَالَ أَبُو عَمْرو بن الْعَلَاء: سُئِلَ حسانُ من أشعر النَّاس؟ قَالَ: حَيًّا أَو رجلًا؟ قَالَ: حَيًّا؟ قَالَ: أشعر النَّاس حَيًّا هُذَيْل. وأشعر هُذَيْل غير مدافع أَبُو ذُؤَيْب، قَالَ ابْن سَلام هَذَا لَيْسَ من قَول أَبى عَمْرو، وَنحن نقُوله».[1] وقصد بقوله «هذا» في الجملة السابقة الإشارة لجملة: «وأشعر هُذَيْل غير مدافع أَبُو ذُؤَيْب» لا الإشارة إلى الخبر من أوله، وإلا لما ابتدأه بقوله: «قال أبو عمرو بن العلاء» بل كان يقول: زعموا أو قيل أو أي عبارة تفيد التضعيف.

هذا من حيث النظر في متن المنقول أما من حيث النظر في طرق الوصول فإن الأصمعي الذي هو تلميذ أبي عمرو بن العلاء البصري المتوفى ١٥٤هـ، وقد قرأ عليه أشعار الهذليين بالإضافة إلى جمعه المباشر لها من بوادي هذيل، كان الأصمعي نقل في كتابه فحولة الشعراء خبر حسان بن ثابت هذا من غير الجملة الأخيرة التي جاءت عند ابن سلام التي هي: «وأشعر هُذَيْل غير مدافع أَبُو ذُؤَيْب» وهذا يدل أيضًا أن هذه الجملة وحدها هي المشار إليها بقول ابن سلام «هذا» في قوله: «قَالَ ابْن سَلام هَذَا لَيْسَ من قَول أَبى عَمْرو، وَنحن نقُوله»[2].

ويؤكد هذا الفهم ما نقله ابن رشيق في العمدة، قال: «وسُئِلَ حسانُ بن ثابت رضي الله عنه: من أشعر النَّاس؟ قَالَ: أرجلًا أم حَيًّا؟ قَيل: بل حَيًّا؟ قَالَ: أشعر النَّاس حَيًّا هُذَيْل. قال ابن سلام الجمحي: وأشعر هُذَيْل أَبُو ذُؤَيْب غير مدافع»[3] وهذا اختلاف طفيف في اللفظ لكنه يؤكد المعنى.

وقال ابن رشيق أيضا: «قال الأصمعي: قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح الشعراء

---

(١) أبو عبد الله محمد بن سَلاَّم الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ج١، ص١٣١. ونقله منه: عَبْدُ الرَّحِيم الْعَبَّاسِيُّ: مَعَاهِدُ التَّنْصِيصِ، المجلد الثاني، ص١٦٨.

(٢) ابن سَلاَّم الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ج١، ص١٣١.

(٣) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ١٩٨١، ط٥، ج١، ص٨٨.

CamScanner

لسانا وأعذبهم أهل السروات، وهن ثلاث، وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن، فأولها هذيل وهي تلي السهل من تهامة ...»(١)

وفي القرن الرابع الهجري ذكر بيتَ أبي ذؤيب أيضًا من المشارقة قدامةُ بن جعفر المتوفى ٣٣٧هـ في كتابه نقد الشعر(٢)، وذكره أبو هلال العسكري المتوفى ٣٩٥هـ في كتاب الصناعتين(٣).

وكذلك ذكره الآمدي المتوفي ٣٧٠هـ في موازنته، مع شرح لوجه دقيق في الاستعارة التي فيه؛ حيث قال: «لما كانت المنية ـ إذا نزلت بالإنسان خالطته ـ صح أن يقال: نَشِبَتْ فيه، وصح أن يستعار لها اسم الأظفار؛ لأن النشوب قد يكون بالظُّفُر. وعلى هذا جاءت الاستعارات في كتاب الله تعالى اسمه»(٤).

ومما يؤكد لنا اصطباغ الذوق الأدبي العام في القرنين الثالث والرابع الهجريين بتفضيل الخطاب الشعري الهذلي بعامة، أن تكون هذيل مضرب المثل فيمن يستجاد شعره عند الناس ولو لم يكن المستجيد ناقدا أو أهلا للحكم النقدي أصلا، لكنه يستجيد لأن الشعر هذلي، وهذا ما يظهر مما نقله المرزباني المتوفى ٣٨٤هـ من قول بعضهم لبعض عند الاختلاف على جودة شعرٍ ما: «والله لو كانت لبعض أعراب هذيل لجعلتها أفضل شيء سمعتُه قط»(٥) يريد أن يتهمه بالتعصب دون التذوق، وفي هذا

---

(١) ابن رشيق القيرواني: العمدة، ج١، ص٨٨.

(٢) الأصمعي: فحولة الشعراء، ص١٩.

(٣) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري: كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي ١٣٧١هـ، ص٢٨٤.

(٤) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٤، ط١، ص٢٦٨.

(٥) أبو عبيد الله بن محمد المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد علي البجاوي، نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٥، ص٤٠٨.

CamScanner

أعظم الدلالة على تقدم اسم هذيل في الناس، فلا ينتظر من أي شعر ينسب إليهم إلا أن يكون جيدًا فائقًا بارعًا.

وإن كان أبلغُ وُكد أبي ذؤيب في الغرب أن شارك في فتح إفريقيَّة لكن بيته هذا تابع المسير غربا فاتحا أفئدة المتلقين متمكنا منها حتى استقر في الأندُلس[1]؛ حيث ذكره ابن عبد ربه المتوفى ٣٢٨هـ في عقده الفريد مع باقة مختارة من أبيات القصيدة من الشوط الأول منها[2]، وذكره كذلك أبو علي القالي المتوفى ٣٦٥هـ في أماليه[3]، وأبو عبيد البكري المتوفى ٤٨٧هـ في شرحه على أمالي القالي[4].

وكرر ابن عبد ربه مرات في كتابه ذكر بيت أبي ذؤيب الرابع عشر في القصيدة، وهو:

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

فحينما أورده مع بعض أبيات القصيدة سبقه بتفسير غريب، قال: «وقال في الطفل الذي بقي له»[5] وهذا يدل على أنه يفهم «القليل» أنه طفل بقي لأبي ذؤيب، ولم يرد شيء عن أبي ذؤيب فيما أعلم يدل على ذلك، وأما السكري فشرح البيت شرحا

---

(١) قال ياقوت: «يقال بضم الدال وفتحها، وضم الدال ليس إلا»، وقريب من هذا في تاج العروس، راجع:
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٦٢.
- السيد محمد أبو الفيض الملقب بمرتضى بن محمد الزَّبِيدِي: تاج العروس من جواهر القاموس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٠، ط١، مادة (أ.ن.س) ومادة (د.ل.س).

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣، ط١، ج٣، ص٢١٠.

(٣) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي: الأمالي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٢، ط٢، ج٢، ص٢٥٥.

(٤) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري: سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، تحقيق: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٦، ص٨٨٨.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٣، ص٢١٠.

CamScanner

لم يشر فيه إلى هذا المعنى من قريب أو بعيد، ولو كان أحد أليق به ذكر ذلك لكان السكري، قال السكري شارحا البيت: «يقول: النفس تسمو ورغبتها في كثرة المال، فإذا جَعَلْتَ تُعْطِي النفسَ حاجتَها رَغِبَتْ، وإذا لم تُخَلِّ النفسُ وما تريد، وقيل لها: ليس لك إلا ذا القليلُ، ارتَدَّتْ وَرَضِيَتْ وَقَنِعَتْ، مثل قولهم النَّفْسُ عَرُوفٌ».[1]

والمثال الذي استدعاه السكري هذا قريب من فهم ابن عبد ربه حين جعل البيت في عداد الحكم التي تقال في هذا المقام، قال ابن عبد اربه في موضع آخر: «وفي كتاب للهند: لا ينبغي للملتمس أن يلتمس من العيش إلا الكفاف الذي به يدفع الحاجة عن نفسه، وما سوى ذلك إنما هو زيادة في تعبه وغمه.

ومن هذا قالت الحكماء: أقل الدنيا يكفي وأكثرها لا يكفي! وقال أبو ذؤيب:

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وقال المسيح عليه السَّلام: عجبا منكم! إنكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بلا عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل».[2]

فيظهر من تتبع السياق والسباق أنه يستشهد بما فيه من حكمة أشار إليها السكري بشرحه، مع ملاحظة أن كلام السكري لم ينفِ ما قاله ابن عبد ربه عن الولد الباقي.

وفي مرة أخرى نجد ابن عبد ربه عند ذكر أهجى بيت وأصدق بيت وأبدع بيت يقول: «ويقال: إن أبدع بيت قالته العرب: قول أبي ذؤيب الهذلي:

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ»[3]

وهذا ما أردف به السكري كلامه تماما، حيث قال بعد ما نقلناه من الشرح: «قال

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١١.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٣، ص١٦٠-١٦١.
(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج٦، ص١٢٣.

الأصمعي: هذا أبرع بيت قالته العرب، عجب من العجب جودةً»[1] وهو عين ما نقله ابن قتيبة عند حديثه عن البيت أيضًا في كتابه الشعر والشعراء قال: «حدثني الرياشي عن الأصمعي: هذا أبدع بيت قالته العرب»[2].

ويدل على أن البيت قد راق لابن قتيبة ونزل منه منزلة مكينة في نفسه أنه عد هذا البيت في الضرب الأول، وهو الأرفع الأعلى، حيث قال: «تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب، ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه»[3] ومثل ببيت أبي ذؤيب فيما مثل، ويزيدك يقينا أن البيت كان أثيرا عند ابن قتيبة أنه قال بعد أن استعرض ستة مُثُلٍ فقط: «ومثل هذا في الشعر كثير ليس للإطالة به في هذا الموضع وجه، وسنراه عند ذكرنا أخبار الشعراء»[4] والفائدة هنا من هذا النقل أن ابن قتيبة قد أورد البيت على الرغم من إيثاره للاختصار في هذا الموضع.

هذا وعلى الإجمال فقد ترجم ابن قتيبة في كتابه لأبي ذؤيب وأشمط بشيء من شعره وكذا لعدد من الهذليين.[5]

أما ابن بسامٍ الشَّنْتَرِينيُّ المتوفى ٥٤٢هـ، فقد ذكر من عينية أبي ذؤيب بيتًا وشَرَحَهُ بما يدل على أنه اطلع على القصيدة، وعلى شروح لها، والرجل أندلسي لا

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١١.

(٢) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَرِي: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ج١، ص٦٥. وذكر المحقق في الهامش٧ أن نسختين بهما كلمة «أبدع» بالراء، أي: «أبرع». وبهذا توافق تان النسختان منقول السكري، قال الباحث: وهو أعجب إلي من البراعة امتلاءً وحسنا، لا الإبداع على غير مثال سابق، لكن الشيخ أحمد شاكر ـ للأسف ـ أثبت الدال في المتن مقدما لها، واختارها حين نقل القولة معقبا على البيت في المفضليات، ص٤٢٢، الهامش١٣.

(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج١، ص٦٤.

(٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج١، ص٦٦.

(٥) راجع: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج٢، ص٦٥٣، وما بعدها.

CamScanner

نعرف له رحلة للمشرق؛ مما يؤكد أن أندلس القرن السادس الهجري كانت كذلك تحتفي بالقصيدة بل شروحها أيضا، قال ابن بسام: «وقال أبو ذؤيب:

فَوَرَدْنَ وَالْعَيُّوقُ مَقْعَدَ رَابِئِ الـ ـضُّرَبَاءِ فَوْقَ النَّجْمِ لَا يَتَتَلَّعُ[1]

أراد أنها وردت الماء سَحَرًا، والعيوق من النجم قريب كقرب الرقيب من الضارب بالقداح، ولم يرد أنها وردت سحرا وهما طالعان، كما فسر بعضهم، بل وهما مكبدان، وذلك عند كون الشمس في الأسد، وهو أشد ما يكون من الحر».[2]

ومن هذا التتبع لأثر البيت والقصيدة في المشرق والمغرب يظهر أن الفعل الكلامي المنجز بالبيت في القصيدة تجاوز حدودا عاتية شاهقة متأبية، ووجد لنفسه محلا وتأثيرا في جماهير المعتنين بالأدب العربي بل خاصة أهل التذوق منهم.

ولئن كان سهلًا رصدُ تردد البيت في صدور وأفواه الأكابر من الخلفاء والأمراء وبياض الحضرة؛ فإن هذا لأن الكتب تعنى بأخبارهم أكثر من غيرهم، وإلا لوقفنا على عديد من أخبار التمثل والاستدعاء لهذه القصيدة وهذا البيت في غير هذه الأوساط من السياسية، كطبقات المجتمع الأدنى، بيد أن للتاريخ طريقة تتبع الأعالى سياسيا دون الأسافل في الأعم الأغلب، وما الاستدلال إلا بكتب التاريخ والرواية.

فلا يُقَالَنَّ: إن المذكور كان في الملإ دون العامة، فإن في العامة أكثر مما عند الملإ انفعالا بآلام أبي ذؤيب ودقات قلبه ودفقات دمه واشتدادات أعصابه كبرياءً.

---

(١) هو في الديوان بشرح السكري: ج١، ص١٩.

(٢) أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ بَسَّامٍ الشَّنْتَرِينِيُّ: الذَّخِيرَةُ فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ، تحقيق: إحسان عباس، بدار الثقافة، بيروت ١٤١٧-١٩٩٧، ط١، القسم الثالث، ص٨٢٨.

CamScanner

الْفَصْلُ الرَّابِعُ
نَظَرِيَّةُ الْمُلَاءَمَةِ وَسُلْطَةُ الْخِطَابِ الرِّثَائِيِّ الْهُذَلِيِّ

تقوم فكرة الملاءمة[1] في الخطاب أن يكون المتلفظ به متوافقا مع توقعات المتلقي[2]، تلكم التوقعات المثلى هي التي يخلقها القول نفسه من جهة، ويحدد أبعادها الطموح المعرفي المتنامي لدى المتلقي إلى أقوى ما يمكن الحصول عليه من القائل بصدد الموقف التخاطبي المنتظم للعبارات المقولة، ويعبر رأسا النظرية سبربر وولسن عن ذلك بقولهم: إن نظرية الملائمة ترتكز في فهمها على ركيزتين:

١ـ مبدأ معرفي: يقضي بأن الإدراك البشري للمخاطَب يتشوف إلى أشد ملاءمة للمقولات تطابقا مع الأوعية المعنوية للخطاب.

٢ـ مبدأ تواصلي: يقضي بأن المقولات تخلق توقعاتٍ لدى المخاطَب لملاءمة مثلى مع الأوعية المعنوية للخطاب[3].

---

(١) في إلمامة عربية مختصرة جدا اقرأ: عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص٢٥.

(٢) في عبارة بعض الباحثين عن الملاءمة: «إلزامية التكوين الشكلي في بنيةٍ نصيَّةٍ ما تبعا لنظام من الضغوط السياقية» انظر:

ـ نُعْمَان بُوقُرَّة: المصطلحات الأساسية، ص١٣٨.

(٣) وخروجا من تصرف الترجمة وخديعتها هاكم العبارة الإنجليزية الأصلية:

Relevance Theory is based on a definition of relevance and two principles of relevance:

1- a Cognetion principle (that human cognition is geared to the maximisation of relevance).

= 2- And a Communicative Principle (that utterances create expectations of optimal relevance).

CamScanner

وهذا يعني أن الخطاب الرثائي يستدعي قدرا ما من التوقعات لدى المتلقي، هذا القدر مقسم على قسمين: الأول: ما يدركه من مقتضى الحال قبل أن يسمع المقال، والآخر: ما يجعله المقال مدركا له ومتشوفا إليه، وبألفاظ أخرى: ما يجده السامع من نفسه حين يشرع الراثي في مرثيته من طلب استفراغ الألم واستنقاذه من أعماق النفس حتى لا يتغيب في ثنيات الشعور ثم يعود ليعمل عمل الذكرى بالقوة نفسها التي كانت؛ فالشعر هنا إذن يقبض على هذا الشعور العائم الغائم ويضعه في صياغة ملتهبة محبوكة، تجعل من المتلقي قادرا على التواصل مع مشكلته، مخرجا لها من حيز الفعل وهي في الغيب إلى حيز الفعل وهي في الشهادة، والإدراك هو أولى خطوات التجاوز للحالة الشعورية، كما أن التحكم بأصل الباعث النفسي هو ثاني خطوات ذاك التجاوز.

وأيما شاعرٍ استطاع أن يفعل هذا بقوله في نفسه والناس فقد نجح الانتقال من مربع الشعور إلى مربع الإشعار، والإشعار عند العرب مستلزم لسيلان الدماء، كما في البهائم المهدية للبيت الحرام أي: الشعائر، وكذلك هو هنا مستلزم لسيلان الألم الدفين والضعف المستمكن ليخرج حارقًا من نفس المخاطَب مع كل بيت ومع كل نقلة شعرية من شوط لشوط في قصيدة الرثاء.

والانتقال من الشعور إلى الإشعار هو الفلاح الشعري عينه، الذي يجعل من القصيدة مهربا لكل مفجوع مستراحا لكل جازع منأًى لكل مذبوح عن مَذْبَحه، وبهذا

= See:

Laurence R. Horn and Gregory Ward (2006) The Handbook of Pragmatics, Blackwell, P:607-632.

وقد كتب هذا الفصل تحديدا العالمة البريطانية: ولسن «Deirdre Wilson» والعالم الفرنسي: «Dan Sperber» وهما واضعا النظرية؛ والفصل بعنوان: نظرية الملاءمة «Relevance Theory» ضمن الربع الرابع من الكتاب وهو بعنوان: التداولية والإدراك «Pragmatics and Cognition» ومما يلتفت إليه في هذا الكتاب أن التي قدمت له هي: مِيرَا آرِيل «Mira Ariel» وهي أستاذة في جامعة تل أبيب، واسم هذه المدينة عند العرب تَلُّ الرَّبِيع.

الانتقال يحوز الشعر شعريته، ويتحول المقول في الموقف التخاطبي من كونه مقولا متلفظا به إلى كونه فاعلا مغيرا محدثا مبدِّلًا، وهو النموذج الأمثل الأسمى للخطاب أي خطاب(١).

ومعنى هذا أن كل مقول مظروف في موقف تخاطبي يعمل - اختيارا أو بغير اختيار - في المخاطَبين ومنهم المتكلم نفسه، وهذا العمل يتفاوت تفاوتا واسعا شتيتا، فمنه ما لا يتجاوز أثره إزجاء الوقت، فقوة التلفظ بالقول هنا أدنى من أدنى متطلبات الموقف حتى يتحقق نوعٌ من بقاء أثر التلفظ بالقول بعد انتهائه، وبضد ذلك في الطرف الآخر من قوة التأثر يمكن لقوة التلفظ بالقول أن تهيج كل ساكن أو تسكن كل هائج، وذان معا على التوالي هما مقصودا القصيدة الرثائية، وفي ضوء هذا يظهر كيف ولماذا امتلكت مرثيات الهذليين مؤهلات الانتصار على خصوصية اللفظ لتتجاوزه إلى عمومية المعنى، ومؤهلات اجتذاب كل مخاطَب إليها ليقول بلسان حاله: هذا أنا الذي في القصيدة، مع مؤهلات انتزاعه بعيدا في الشوط الثاني منها ليرى الموت متشخصا من بعيد بعيد، بُعدًا يعدل بعد الرامي عن حُمُر الوحش وثور الوحش، إلا أنه هو أبعدُ.

وبناء على هذا تكون ملاءمة المقول في القصيدة الرثائية الهذلية للموقف التخاطبي الذي هي فيه ملاءمةٌ مثلى، وي كأن الشاعر الهذلي يمسك بقصيدته سهما يريد به قلب المخاطب، فيشده بحكمة حتى يبلغ غرضه، فلا هو يشد وتره أكثر من الطريقة المثلى فيجوز الغرض، ولا هو يشده أقل من الطريقة المثلى فيقصر عنه، وهذا الاتزان هو ملاك النجاح الشعري بوصفه خطابا، حيث لا يقوم فيه أي مقول آخر مقام الشعر في تأدية غرضه ذاك، وهذه جهة أخرى يدرك منها ما سلطة الشعر بوصفه خطابا له برنامج إنجازي تداولي، وفضله على كل مقول آخر غير شعري.

---

(١) ولهذا الغاية التداولية من الخطاب عمد مثلاً (عبد السلام عشير) إلى تسمية كتابه: «حينما نتواصل نغير» ومعلوم أن ذلك على درجات، انظر إن شئتَ كلامه عن: البعد الحجاجي للغة، ص٢٠٦-٢٠٧.

- ثم في المرحلة الثانية من حياة القصيدة، أقصد حياتها مروية على ألسنة الناس لا مقولة في زمن الموقف التخاطبي الذي أحاط الشاعر غداة أنشأها، في هذه المرحلة الثانية تتشكل توقعات المخاطبين من المقدمات السباقية والسياقية التي ينص عليها الراوي، كأن يقوله إنها في رثاء أبيه أو إخوته أو أبنائه ... إلى آخر هذا، واتساع تلكم التوقعات يبلغ أرحب درجاته قبيل تلقي المطلع، وهذه هي أولى العقبات التي تعترض المخاطِب، حيث صار المتلقي متحفزا لدرجة محددة من الحرارة في الأداء فلا يسع المخاطِب أن يخل بالعقد التواصلي بينهما، فإن عجز أو قصر فقد ضيع أغلى فرصة لصيد طريدته، والأكثر أنه لن يفوز بها ما لم يحسن الرمية الأولى.

وههنا تظهر أهمية دراسة النص الشعري بعدسة «نظرية الملاءمة» بوصفها زاوية تداولية تسلط الضوء على حركة القصيدة في سبيل إحداث تغيير واقعي في ضوء توقعات المخاطَب القبلية والمصاحبة لعملية التلفظ بالمقول أي: إنشاد القصيدة، وترصد أثر هذه الزخات الشعرية في مرآة المخاطَب لترسم المنحنى الذي تفاعل به المخاطب مع القصيدة علوا وهبوطا أو هياجا وهمودا في ضوء مقصدية القائل.

دَعْوَى الْغَزَلِيَّةِ الْمَرْثِيَّةِ فِي شِعْرِ الْهُذَلِيِّينَ:

ومن الناحية الأخرى في هذا الدرس - الذي هو بعدسة نظرية الملاءمة - يظهر فضل مخالفة الملاءمة، والنشوز عن المواءمة، بقدر نتوء يسير، أو بقدر عقوق خطير لمقتضى الحال المنتظر في كل بال. أما النتوء اليسير فكتجلد زاد قدره ولم يشفع بإشارة كافية لبعض ما يتوهج من نيران في أعماق الجوف، وذلك في مطلع قصيدة أبي خراش يرثي إخوته:

فَقَـدْتُ بَنِـي لُبْنَـى فَلَمَّـا فَقَدْتُهُـمْ   صَبَرْتُ وَلَمْ أَقْطَعْ عَلَيْهِمْ أَبَاجِلِي[1]

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٩٥.

والمشكل هنا ليس في التجلد ذاته، فهو محمود في هذا المقام، وضريبه قول أبي ذؤيب في العينية:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

بَيْدَ أن المشكل في أن قصيدة أبي خِراش هذه سارت بعد ذلك مسير تعداد مناقب الفقداء، وتوعد الواترين وذمهم، فمالت القصيدة لرصد موقف اجتماعي أكثر منها لموقف نفسي، وإن كان كنى كناية واسعة بعد ذلك بقوله في البيت الخامس:

وَقَدْ أَمِنُونِي وَاطْمَأَنَّتْ نُفُوسُهُمْ ... وَلَمْ يَعْلَمُوا كُلَّ الَّذِي هُوَ دَاخِلِي(١)

فاحتاج الشارح أن يقول: «داخلي: أي ما في جوفي من الوجد والحزن» ولو كان يريد الموقف الاجتماعي وحده لما كان نتوءا ند عن الملاءمة المزعومة، لكنه عاد إلى الموقف النفسي الداخلي مرة أخرى حين شاء أن يقطع القصيدة قائلا:

فَلَهْفِي عَلَى عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ لَهْفَةً ... وَلَهْفِي عَلَى مَيْتٍ بِقُوسَى الْمَعَاقِلِ(٢)

فإن قيل بأن ما أورده أبو ذؤيب في العينية مشابه فلم التفريق بين المتشابهين؟ أجيب بأن أبا ذؤيب قبل بيت التجلد، وهو البيت الثالث عشر، قدم عويلا ونعيبا بأعلى صوت لديه، ولذلك اتزنت عنده كفتا التجلد والتوجع، فهو يعترف في البيت الخامس بدموعة التي لا تتوقف:

أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً لَا تُقْلِعُ(٣)

ثم يستدرك في البيت السادس مباشرة مستعليا على آلامه متماسكا:

وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ الْبُكَاءَ سَفَاهَةٌ ... وَلَسَوْفَ يُولَعُ بِالْبُكَى(٤) مَنْ يُفْجَعُ

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٩٦.

(٢) قُوسَى المعاقل: موضع من بلاد هذيل أو بناحيتهم.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٦.

(٤) هكذا كتبت في الديوان باللينة دون اليابسة.

CamScanner

ثم يعود مباشرة غارقا في قرارة نفسه وغياهب حزنه في أبيات طويلة تستمر حتى يأتي بيت التجلد مرة أخرى، يقول:

سَبَقُوا هَوَيَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ فَتُخُرِّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ
فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ وَإِخَالُ أَنِّي لَاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ

أما مثال العقوق الخطير من المقول إلى المتوقع، فهو بدء المرثية بطيف الخيال الزائر لفتاة جميلة يقضي الشاعر معها الليل داخلا في ثوبها مقبلا فاها واصفا ريقها، وهذا حين يرثي ربيعة بن الجَحْدَر اللحياني أثيلة بن المتنخل الطابخي، وكان معه حين قتل ففر عنه، وكلاهما هذلي لحياني[1]:

أَنَّى تَسَدَّى طَيْفُ أُمِّ مُسَافِعٍ وَقَدْ نَامَ يَا ابْنَ[2] الْقَوْمِ مَنْ هُوَ نَاعِسُ
فَبَاتَتْ هُدُوءَ اللَّيْلِ عِنْدِي قَرِينَتِي كِلَانَا عَلَيْهِ ثَوْبُهَا فَهْوَ لَابِسُ[3]

---

(١) في إيضاح أن طابخة بطن من لحيان، وسائر بطون الهذليين، وما ينفرع منها راجع خريطة مفيدة في:
- عبد الجواد محمد الطيب: لغة هذيل، ص٦، ص١٩.

(٢) هكذا في الديوان، والمشهور الآن حذف ألف «ابن» بعد «يا» والله أعلم.

(٣) والرواية الأخرى لأبي عمر الشيباني الكوفي:

يَبِيتُ هُدُوءَ اللَّيْلِ دُونَ قَرِينَتِي كِلَانَا عَلَيْهِ ثَوْبُهُ فَهْوَ لَابِسُ

وقد انتبه بعض الباحثين لتغير المعنى بين الحقيقة والخيال بين الروايتين، وأقول: وطيف تقبل أن تكون من طاف يطيف على الخيال، أو طاف يطوف على الحقيقة، كتفسير قوله تعالى: «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ» وهو جبريل، وهو حقيقة، سورة القلم آية ١٩، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ وهو خيال، سورة الأعراف الآية ٢٠١، وهو فارق مهم، بيد أنه لا يؤثر في مسير البحث الذي نحن بصدده هنا، راجع:
- أيمن إسماعيل بكر: تعدد الرواية في الشعر الجاهلي ديوان الهذليين نموذجا، كتاب منشور على شبكة الإنترنت، ٢٠٠٤، ص١٨٣، وما بعدها.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٤، ط٢، المجلد الرابع، ج٧، ص٣٥٠.

CamScanner

إِذَا ذُقْتُ فَاهَا قُلْتُ شَوْبَةُ شَائِبٍ … مُعَتَّقَةٌ مِمَّا تَشُوبُ الْجَوَارِسُ

بصوبِ حَبِيٍّ تحت أفنان سدرة … بأبطح تسقيه شعابٌ جوالسُ(1)

بينما يقول في البيت السادس:

فَوَاللهِ لَا أَلْقَى كَيَوْمِ ابْنِ مَالِكٍ … أُثَيْلَةَ حَتَّى يَعْلُوَ الرَّأْسَ رَامِسُ

وهذا العقوق بين المطلع والملاءمة وَلَّد حالةً من العجب والاستغراب حين نحا الشاعر منحاة ذكر حادثة القتل وموقفه منها ثم صفات الفقيد إلى آخر مطالب الرثاء في قصيدة من اثنين وعشرين بيتا.

وهذا العجب والاستغراب له محله من الإعراب؛ وهنا تتجلى فائدة التأمل في علاقة الملاءمة المهدرة، حيث نبه هذا البدء إلى أن الشاعر لن يقدم لنا حالة نفسية متألمة ولا روحا متمزقة كما يكون في المراثي، ولكنه سيقدم لنا وثيقة إعلانية توضح موقفة السياسي العسكري من حادثة القتل، وهذا يظهر في البيتين الثامن والتاسع؛ إذ يقول:

فَلَا ذَنْبَ لِي أَرْمِي قَرِيبًا وَأَدَّعِي … وَلَكِنْ ثَرَانَا الْقَوْمُ والْحَيْنُ حَابِسُ

فَلَوْ رَجُلًا خَادَعْتُهُ لَخَدَعْتُهُ … وَلَكِنَّمَا حُوتًا بِدَحْنَا أُقَامِسُ(2)

فهو إذن يعتذر عما وقع، ويذكر عظم الخطب وصعوبته عليه، ويستمر بذكر قتاله ومراوغاته ومحاولاته؛ فيقول:

أَقُولُ لَهُ كَيْمَا أُخَالِفُ رَوْغَهُ … وَرَاءَكَ مَا الْأَرْوَى شِيَاهٌ كَوَانِسُ(3)

أَذُبُّهُمُ بِالسَّيْفِ ثُمَّ أَبُثُّهَا … عَلَيْهِمْ كَمَا بَثَّ الْجَحِيمَ الْقَوَابِسُ

---

(1) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٤١، وما بعدها.

(2) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٤٣. وثرانا أي: كاثرنا، ودَحْنَا: مكان، وأقامس: أماكسه وأخاصمه.

(3) يقول الشارح: «يقول: أقول له: وراءك الشياه؛ ليرميها؛ فأخدعه، وهو لا ينخدع».

إِذَا قُلْـتُ قَـدْ كَعْكَعْتُهُـمْ يَرِدُونَنِـي ... كَمَـا تَرِدُ الْحَوْضَ النِّهَالُ الْخَوَامِسُ

فَنَهْنَهْـتُ عَنِّي الْقَوْمَ حَتَّـى تَدَارَكُوا ... وَإِنِّي مِـنَ الْعَيْشِ الْحُبَابِ لَيَائِسُ[1]

فمن هذا يتضح أن إعلان ربيعة بن الجحدر لم يكن خالصا لوجه أثيلة، ولا للوقوف على نبيل صفاته التي تكاد تنحصر في البيت الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين فقط، ولكنما جاءت القصيدة تريد شيئا آخر غير البرنامج الإنجازي الرثائي، وكأنه يقول بالمقدمة الغزلية الجنسية التي استفتح بها: يأيها الناس لست راثيا، بل أنا رجل وُضِعْتُ في موضع تُهمة، وهذه براءتي من جريمة التخلي عن صاحبي الهذلي الطابخي أمام بني سعد بن فهم بن عمرو، ولا تظنوني لأني لحياني وهو طابخي أني أسلمته، فهو جليل المقام عظيم الشأن، لست أنكر شيئا من ذلك، ولست بالمتفجع عليه كذلك، ولكن اختلاف البطن الهذلية بيننا لم يحملني على أن أبيع شريف المناقب من حق النخوة وحق الصحبة بِلُعَاعَةٍ من الدنيا، وأنا أعرف أنكم تبادرون إلى التهمة لأنه قتل ونجوتُ، لكن تريثوا، وأعيذكم يا قوم أن تتخذوني ظنينا.

هذا وعَدُّ القصيدة رثائية تحمل الغزل فسادٌ في الذوق وسقوط في الفهم وانطماس في ملكة التدبر، بل هو وقوف عند ظواهر الأمور لا على أنها ظواهر الأمور لكن على أنها بواطنها، وهذا ـ وحق الله ـ جهل مركب، فأي نفس سوية تلك التي تقبل استثارة الحواس الجنسية والرغبات الشهوية من عناق وجماع وتقبيل ومص ريق في معية هيبة التفجع وألم التوجع وحزن الفقد؟!

ولو كانت الحال كذلك، وهي كذلك، فكيف يعلق باحث على هذه الحال قائلا: «والواقع أنه لا عجب في الجمع بين الغزل والرثاء في قصيدة واحدة ... على أن الرثاء

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٤٣-٦٤٤، القوابس: نصال كأنها الجمر، كعكعتهم: رددتهم، والنهال: العطاش، والحُباب: الحبيب.

يشترك مع الغزل في التعبير عن معنى الألم والأسى سواء كان ذلك بكاء على عزيز غال أو حبيب مفقود»[1] والعياذ بالله.

وبهذه الآلية يمكن فك الالتباس الذي يقع في أشعار غير الهذليين الذين يبدو للوهلة الأولى أنهم بدؤوا الرثاء بالغزل كالذي ورد عند محققي لسان العرب بدار المعارف حين قالوا عن قصيدة للمرقش الأكبر رثى بها ابن عمه ثعلبة بن عوف بن مالك: «وهي من نادر الشعر الذي بدئ فيه الرثاء بالغزل»[2] وما قاله ابن رشيق ناقلا عن ابن الكلبي في قصيدة لدريد ابن الصمة ثم جاء بنفي النحاس وجود بيتي الغزل عن القصيدة وهو الصواب[3].

---

(١) إسماعيل النتشة: أشعار هذيل، ج٢، ص٣٠٣، ولو شئنا الاعتذار عنه بما لا يغني عنه شيئا قلنا: إنه يقلد أستاذه عبد السلام أبو النجا سرحان، وهو المشرف على رسالته تلك للدكتوراه، وكان قد اخترع هذا التوفيق المخنث بين الغزل الشبقي الجنسي والرثاء الحزين المصدور، ويرى التلميذ أن الأستاذ قد «وضع الأمور في نصابها الصحيح، وأن الغزل والبكاء كلاهما شجن وبكاء» ويا كثرة ما أحال على كتبه بداع وبغير داع! حتى فرع على ذلك أنها ظاهرة مستشرية في شعر بني هذيل، وتكلف بقدر طاقته ليدخل فيها ما استطاع من القصائد، ثم طفق يستشهد بأثرها في محيط الأدب العربي برثاء بعض العباسيين كأبي نواس وأبي تمام وديك الجن لجواريهم اللائي هن سُرِّيَاتِهِم، وما أبعد ما بين الموقفين! فتلك جارية يستمتع بها جنسيا فهي أهل لهذا الغزل، ومقام الفقد يخفف حدته، بخلاف رثاء رجل لصاحبه، كربيعة لأثيلة لو كان رثاء! ثم كيف يكتب عربي قط هذا التركيب الوصفي: «الغزل الباكي الحزين» وقد يكون الحب كذلك لكن الغزل يكون باكيا حزينا؟! أي فطرة تلك؟! انظر إن شئتَ:

- إسماعيل النتشة: أشعار هذيل، ج١، ص٥، وكذلك: ج٢، ص٣٠٤-٣١٢.
- عبد السلام أبو النجا سرحان: قطوف من ثمار الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار القومية العربية، القاهرة ١٩٧٢، ط٢، ج٢، ص١١١-١١٦.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ج١، ص٨، من مقدمة المحققِين، وهم عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي.

(٣) ابن رشيق القيرواني: العمدة، ج٢، ص١٥١-١٥٢.

CamScanner

وبهذا ظهرت فائدة هذه الزاوية التداولية في النظر إلى القصيدة بوصفها خطابا شعريا يحقق منجزا، بحيث يستكشف الباحث مقصدية القائل مصغيا إلى النص لا ملزِما النصَّ بأن يصنَّف في مُرَبَّعِ المراثي وعلى النص أن يتلون بألوان المراثي عَنوة واعتسافا.

الْمُلَاءَمَةُ مِنَ الْخَارِجِ: الْمُخَالَفَاتُ الظَّرْفِيَّةُ لِلتَّوَقُّعَاتِ الرِّثَائِيَّةِ الْمَعْهُودَةِ:

تعددت العوامل غير اللغوية التي مثلت مشاركة تداولية مؤثرة في توجيه الخطاب الشعري الهذلي في باب الرثاء، فكانت حكايات الرواة للموقف التخطابي المصاحب أو للظرف المشتمل على فعل القول، كانت هذه الحكايات وحدها عاملا مشاركا في مخالفة التوقعات المعهودة في باب الرثاء عند المخاطبين، مما وفر للقصيدة مناخا أنسب وأرضا أخصب لتلقي المقول الشعري وحمله في عملية تأويلية متسقة مع مقصدية القائل متعاطفة قبل بدء المطلع مع انكسارات الشاعر، ومن هذه المخالفات الظرفية للتوقعات الرثائية المعهودة:

أَوَّلًا: هَلَاكُ الْوَلَدِ قَبْلَ الْوَالِدِ:

والعادة في الموت أنه يصيب الأب قبل الابن؛ فيكون مصاب الابن في أبيه أخف من مصاب الأب في ابنه؛ لأن الابن مستقبل للحياة، طالب لخيرها، يرى في نفسه القدرة على الكسب وبناء المجد فيما يبقى من عمره بعد أبيه، بل قد يعينه موت أبيه بميراث يقرب بعيده ويهون شديده، بخلاف الأب الذي إن فقد ابنه فقد كل شيء؛ وذلك لأنه من المحتمل جدا أن يكون قد ضعف وشاخ، فصار اعتماده على ابنه في أمور المعاش أقوى منه على كل أحد غيره، هذا في الحال، وأما في المآل فإن ابنه هذا هو بنيانه الذي اكتمل شابا فتيا قويا، وانهدام البنيان أمام بانيه أصعب عليه من انهدامه نفسه، فما بالك بكونه إنسانا؟!

ويزيد الأمر عُسْرًا على الأب أنه يفقد مستقبله في الخلود في الدنيا؛ لأنه كان يريد

CamScanner

لابنه أن يُمَثّلَ امتداده في الأرض، وهنا يُختص الولد الذكر دون الأنثى لأنه يحمل اسمه، ويمتد به نسبه، ويزيد الأمر قسوة أن يكون الأب قد بلغ من العمر أرذله بحيث لا يمكنه أن يعيد الكرة لينجب آخر يقوم مقام الغابر، وَلَنَزْعُ الْمُلْكِ من العاجز على إعادة تحصيله أَفْحَشُ منه من القادر على إعادة تحصيله، لفقدان الأمل في الأولى دون الأخرى.

ولو تأملنا شعر بني هذيل لرصدنا حالة واحدة في رثاء الأب وهي للمتنخل يرثي أباه عويمرًا بقصيدة في ستة أبيات، مطلعها:

لَعَمْـرُكَ مَـا إِنْ أَبُـو مَالِـكٍ   بِـوَانٍ وَلَا بِضَعِيـفٍ قُـوَاهُ[1]

في قبالة خمس حالات في رثاء الأبناء، وهي: أبو ذؤيب يرثي أبناءه الخمسة، بقصيدته العينية الذائعة في ثلاثة وستين بيتا، ومطلعها:

أَمِـنَ الْمَنُـونِ وَرَيْبِهَـا تَتَـوَجَّـعُ   وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[2]

وصخر الغي يرثي ابنَه تَلِيدًا مرتين، الأولى عدتها ستة وعشرون بيتا، ومطلعها:

أَرِقْـتُ فَبِـتُّ لَـمْ أَذُقِ الْمَنَـامَـا   وَلَيْلِـي لَا أُحِـسُّ لَـهُ انْصِرَامَا[3]

والأخرى مقطعة شعرية عدتها خمسة أبيات، ومطلعها:

وَمَـا إِنْ صَـوْتُ نَائِحَـةٍ بِلَـيْـلٍ   بِسَبْلَلَ لَا تَنَـامُ مَـعَ الْهُجُـودِ[4]

وكذلك أبو صخر يرثي ابنيه محمدا وداود في قصيدة عدتها أربعة وستون بيتا، مطلعها:

تَعَزَّيْـتَ عَـنْ ذِكْـرِ الصِّبَـى وَالْحَبَـائِـبِ   وَأَصْبَحْتَ عِزْهًى لِلصِّبَى كَالْمُجَانِبِ[5]

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٧٦، وما بعدها.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣، وما بعدها.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢٨٧، وما بعدها.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢٩٣، وما بعدها. وسَبْلَلُ: بلد.

(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩١٥، وما بعدها.

CamScanner

وساعدة بن جؤية يرثي ابنه أبا سفيان بقصيدة من خمسة وعشرين بيتا، يذكر فيها الوحش وهلاكه، مطلعها:

أَلَا بَـاتَ مَـنْ حَوْلِـي نِيَامًـا وَرُقَّـدَا ... وَعَاوَدَنِـي حُزْنِـي الَّذِي يَتَجَـدَّدُ(١)

وله أخرى يرثي ابنه بها، فيها اثنا عشر بيتا، مطلعها:

لَـعَمْـرُكَ مَـا إِنْ ذُو ضُهَـاءٍ بِهَيِّـنٍ ... عَلَـيَّ وَمَـا أَعْطَيْتُـهُ سَيْبَ نَائِـلِ(٢)

والمتنخِّل يرثي أُثَيْلَةَ ابنه بقصيدة من عشرين بيتا، مطلعها:

مَا بَـالُ عَيْنِـكَ تَبْكِي دَمْعُهَـا خَضِلٌ ... كَمَا وَهَى سَرِبُ الْأَخْرَاتِ مُنْبَزِلُ(٣)

وهذا يدل على أن التفاعلَ مع غير المألوف أَجْذَبُ وأَكْثَرُ وأَسْيَرُ منه مع المألوف، سواء في شعراء بني هذيل أو فيمن تلقوا عن بني هذيل.

ثَانِيًا: أَكْثَرُ مِنْ فَقِيدٍ قَرِيبٍ لَا فَقِيدٌ قَرِيبٌ وَاحِدٌ:

ومن بين الظروف القاهرة التي أحمت على الخطاب الشعري الهذلي في أتون الحياة، أن الموت طاف بعدد من ذويهم، إما واحدا واحدا كإخوة أبي خراش يرثي أخاه عمرًا وسائر إخوانه السبعة الذين فرطوا أمامه من أبيه مُرَّةَ وأمه لبنى، وقد رثاهم بعدد من القصائد، منها لامية من أربعة وعشرين بيتا، مطلعها:

لَعَمْرِي لَقَدْ رَاعَـتْ أُمَيْمَةَ طَلْعَتِي ... وَإِنَّ ثَـوَائِـي عِنْـدَهَـا لَـقَلِيـلُ(٤)

وهذه القصيدة فيها تشابه كبير مع عينية أبي ذؤيب التي رثي فيها أبناءه الخمسة

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٦٥، وما بعدها.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ: ج٣، ص١١٨١، وما بعدها، وذو ضهاء موضع دفن فيه ابنه، ويقصد: إني لم أعطه عطية من يهب ويُنيلُ.
(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٨٠، وما بعدها.
(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٨٩، وما بعدها.

CamScanner

دُفعة واحدةً أيضا. وفي قصيدة أخرى لأبي خراش قوامها تسعة أبيات يرثي إخوته أيضا، ومطلعها:

فَقَـدْتُ بَنِـي لُبْنَـى فَلَمَّـا فَقَدْتُهُـمْ صَبَرْتُ وَلَمْ أَقْطَعْ عَلَيْهِمْ أَبَاجِلِي(1)

ويقول في أخرى يظهر منها الخوف من الوحدة والحمد على أن بقي ابنه بعد مقتل إخوته لا سيما عروة، وهي قصيدة من ثمانية أبيات مطلعها:

حَمِـدْتُ إِلَـهِـي بَعْـدَ عُـرْوَةَ إِذْ نَجَـا خِرَاشٌ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ(2)

وإنك لتجده يلوح بكثرة المرازئ الذي عرفت طريقها إليه قائلا في مطلع رثائية أخرى قوامها ثلاثة عشر بيتا:

وَلَا وَاللهِ لَا أَنْـسَـى زُهَـيْـرًا وَلَـوْ كَثُـرَ الْمَـرَازِي وَالْفُقُـودُ(3)

وظهرت هذه النبرة في بوحه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين شكا أنه «رجل قد انقرض أهله وقتل إخوته، ولم يبق له ناصر ولا معين غير ابنه خراش»(4) ولا بد أن تعاطف المتلقي مع من هذه حاله يكون أوفى كثيرا منه مع فاقد الواحد.

ثَالِثًا: بَشَاعَةُ طَرِيقَةِ الْمَوْتِ غَيْرِ الْمُعْتَادَةِ:

لَيْسَ الْمَوْتُ سَوَاءً على الباقين بعده!

فإنه ـ لا شك ـ متفاوت فيمن وقع به، ومن حل قريبا من ساحته، فالميت إن مات مطمئنا على أهله مستريحا في بيته أقبل على الموت بوجه غير الذي يقبل به من مات دفاعا عن أهله وقومه يعلم أنه يُصْطَلَمون عن بَكْرَةِ أبيهم في الوقت الذي يلقى هو فيه الموت.

---

(1) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج3، ص1195، وما بعدها.

(2) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج3، ص1230ـ وما بعدها.

(3) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج3، ص1234، وما بعدها.

(4) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج21، ص68.

CamScanner

أما مَنْ حَلَّ الموتُ قريبًا من ساحته فيختلف في تلقيه للخبر ومعاودة الذكرى له ويتفاوت أيضا، فمن يعلم أن ميته مات على فراشه وادعا، تنحصر قوة الموت عنده في ذات الفقد، أما من يعلم أن الميت مات يقاوم مرضا أو مقطعا مزقا بسيف عدو لا يرعى فيه إلا ولا ذمة فهذا يتألم مرارا لحال الموت لا الموت عينه، ثم يتألم للموت عينه، ولذا فالموت يتفاوت من جهات كثيرة دون أخرى ولا شك.

وقد اجتمعت آلام قوة الموت مع الموت نفسه في قصيدة عبد الله بن أبي ثعلب القردي الهذلي حين كان يرثي من أصيب في الطواعين من هذيل بِمِصْرَ والشَّأْم، ويزيد غور الجرح النفسي أن هؤلاء هو أعيان هذيل وأماجدها، وأنهم لقوا حتفهم يقاومون المرض، وهو عدو خفي عن الأعين، نافذ في الباطن، ينهش اللحم وينقض على المرء من حيث يعجِز المرء أن يرده عن نفسه، وواعَجْزَاه!

ولو طلبت لهم صورة لما كانت إلا كرجل غريب عن دياره معصوب العينين مقيد اليدين ينوشه من يقتله قتلا بطيئا؛ فيقطع يده بضربه، ويعبث بجسده وكرامته جميعا بظفره ورمحه، والمسكين لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا حتى يأتي عليه قاتله فيصرعه بلا رحمة ولا استجابة لاستغاثاته أو إصراخ لآهاته، بعد أن كان الفقيد عزيزا كريما مَهيبا معافى في قومه وبلده، قبل أن يتحول الكرامة إلى إهانة والعافية إلى سقم والاستئناس بالأرض والأهل إلى استيحاش، ويزيد الطينَ بِلَّةً إذا كان الكلام عن النساء اللواتي هن موضع التكريم والصيانة والحفظ والرعاية في المقام العلي، مع كونهن موضع الترفيه والدلال، فإذا تبدل كل ذلك فما أقساه من حال يسبق في أذاه أذى الموت، بل إن الموت ليطاق دونه، يقول في ذلك ابن أبي ثعلب في البيتين السابع والثلاثين والثامن والثلاثين:

وَكُـــنَّ نَــوَادِيَ فِــي نَـعْـمَـةٍ ... لَــوَ انَّ نَـعِيمًـا عَلَـيْهِنَّ دَامَـا

فَأَصْبَحْـنَ مِثْـلَ عِتَـاقِ الْهِجَـا ... نِ فَارَقْـنَ بَعْدَ صَحَـاحٍ هُيَامَا[1]

---

(1) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٨٨.

CamScanner

والهيام داء يأخذ الإبل، والكلام عن بنات الموتى وأخواتهم وزوجاتهم، وقد كنَّ في ألطف أحوال الرفاه، فهن نوادي جمع نادية، من الندى الذي هو تمام حياة الوردة ومعيار كمال جمالها ونعومتها، والنعمة بفتح النون التنعم والالتذاذ، ويحرص الشاعر على أن يسلط الفعل الماضي «كن» عليهن حتى يعمق معاني الأسى والحزن، يقول عنه في البيتين الثلاثين والحادي والثلاثين:

وَرَنَّـــةِ نَــوْحٍ عَــلَـى هَـالِـكٍ ... مِـنَ اهْـلِ الْغَـنَـاءِ يُوَافِـي الْحَمَامَـا

بُـنَـيَّـاتُـهُـمْ وَأُخَـيَّـاتُـهُـمْ ... وَأَزْوَاجُهُـمْ لَا يُسِـغْنَ الطَّعَامَـا[1]

وكمثله قول ساعدة بن جؤية الكاهلي الهذلي الجاهلي:

وَحُـرَّةٍ مِـنْ وَرَاءِ الْـكَـوْرِ وَارِكَـةٍ ... فِي مَرْكَبِ الْكَرْهِ أَوْ تَمْشِي عَلَى جَشَمِ

يَذْرِيـنَ دَمْعًا عَلَى الْأَشْفَارِ مُنْحَدِرًا ... يَرْفُلْنَ بَعْدَ ثِيَابِ الْخَالِ فِي الرُّدُمِ[2]

أي: صارت النساء لبؤسهن يتجشمن المشقة كَرْهًا في صورة راكبات وراجلات، كما صرن يبكين بغزارة، ويلبسن بعد ثياب الرفاه والعز ثيابا مُرَدَّمَةً أي: مُرَقَّعَةً.

وقد يكون كل ما سبق صعبا وقد يكون الجوع مع فقد الطعام نكِدًا، بَيْدَ أنَّ أَصْعَبَ منه وأَحَزَّ، وأَسْخَطَ منه وأَهَزَّ، أن يُفقدَ الطعامُ حُكْمًا وهو حاضر عَيْنًا، أن يمنعكَ سُقمُ الجسدِ أن تُسيغ اللقمة في مَرِيئك، وأنت تتمنى أن تأكلها تنظر إليها بين يديك قريبةً كلَّ القُرْب بعيدةً كلَّ البُعْد.

ويتكرر هنا قول الشاعر: «مِنَ اهْلِ الْغَنَاءِ» إذ جاء به في البيت العشرين:

فُـجِعْـنَـا بِـهِـمْ وَبِأَمْـثَـالِـهِـمْ ... مِـنَ اهْـلِ الْغَنَـاءِ فَأَمْسَـوْا رِمَامَـا[3]

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٨٨.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٣٧.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٨٧.

CamScanner

وقول ابن أبي ثعلب عن النساء: «لَوَ انَّ نَعِيمًا عَلَيْهِنَّ دَامَا» وقوله عن رجالهن: «مِنَ اهْلِ الْغَنَاءِ» يجمع بين الجنسين في لفتة صوتية واحدة، هي حذف الهمزة مع نقل حركتها إلى ما قبلها، في هذا المقام النفسي، كأنه برنة نوحه التي تبكي مع بكاء الحَمام لا يحتمل أن يهمز؛ لأن في الهمز قطع شديد للصوت من أعمق مخرج له وأقربه للجوف، وقد امتلأ جوفه ألما ونفسه تقطعا ولم يعد يطيق بعد أن خار عزمه اللغوي الصوتي، وهذان البيتان ينظران إلى قول أبي ذؤيب يرثي أبناءه الخمسة الذين ماتوا في الطاعون أيضًا في مصر غرباء عن وطنهم أيضًا في البيت السادس والثلاثين وهو الأخير في رواية السكري:

وَكِلَاهُمَا قَدْ عَاشَ عِيشَةَ مَاجِدٍ ... وَجَنَى الْعَلَاءَ لَوَ انَّ شَيْئًا يَنْفَعُ[1]

فهو إذن الأسلوب نفسه في معرض التحسر الجاري مجرى الحكمة، والمبكيُّ عليهم عند أبي ذؤيب هم بعض المبكي عليهم عند ابن أبي ثعلب، وهذه الحكمة التي سُن طريقها في هذا المقام تَشِيعُ عند الهذليين في خطابهم الرثائي ذلك.

فيقول سريع بن عمران في رثاء عمرو ذي الكلب الذي مات موتا بشعا أيضا؛ يقول السكري: «قال أبو عبد الله [أي: ابن الأعرابي]: ثم خرج عمرو ذو الكلب غازيا؛ فبينا هو في بعض غاراته نائمٌ، إذ وثب عليه نمران فأكلاه...»[2] ولك أن تتخيل الفزع الذي مني به ذلك النائم، والطريقة التي يمزق بها نمران جائعان في الصحراء جسد رجل حي لم يستعد لنزال ولم يدرك إلا معاناة الفجأة ولا نصير ولا ولي يذب عنه، يقول سريع:

وَكُلُّ حَيٍّ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُمْ ... يَوْمًا طَرِيقُهُمْ فِي الشَّرِّ دُعْبُوبُ[3]

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٠.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٧٨.
(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٧٨.

CamScanner

والطريق الدعبوب هو المسلوك الموطوء، يقال: دعبته الإبل وركبته وطئته.

ويمضي أبو قِلابة الهذلي في تلكم الطريق الدعبوب التي عند سريع وأبي ذؤيب وابن أبي ثعلب، يقول أبو قلابة محذرا:

لَا تَأْمَنَنَّ وَلَوْ أَصْبَحْتَ فِي حَرَمٍ   إِنَّ الْمَنَايَا بِجَنْبَيْ كُلِّ إِنْسَانِ[1]

ويقول ساعدة بن جؤية أيضًا:

وَمَا يُغْنِي امْرَأً وَلَدٌ أَجَمَّتْ   مَنِيَّتُهُ وَلَا مَالٌ أَثِيلُ[2]

أما قصيدة عبد الله بن أبي ثعلب تلك فهي الوحيدة ـ للأسف ـ التي وصلت إلينا من جميع شعره، وشاعر بهذا المستوى لا بد أن له أشعار أخرى كثيرة، لكن جزءا زائدا من حسرتنا على حسرته أنا نفقد شعره كما يفقد هو هلكى بني هذيل، وقد ضم هذا الصوت الناجي من الموت بين جنبيه أربعة وستين بيتا، يقول في مطلعها:

أرقتَ وَمَا لَكَ أَلَّا تَنَامَا   وَبِتَّ تُكَابِدُ لَيْلًا تَمَامَا

تُكَابِدُ لَيْلًا بَعِيدَ الصَّبَا   حِ حَتَّى تَرَى الْفَجْرَ يَجْلُو الظَّلَامَا[3]

وقد بلغ الشاعر مستوى من الرقي النفسي في القصيدة؛ إذ تسامى عن آلامة الشخصية التي ليست شيئا بجوار فجيعته في ذاته القبلية العامة، ولم يقتصر على بني قرد من هذيل الذين هم رهطه، بل عدد الهذليين بأسمائهم نائحا نادبا، يقول في البيت السابع يذكر مُرَّة الهذلي:

بِمُرَّةَ يَا حَسْرَتَا بَعْدَهُ   يُذَكِّرُنِي الْحَادِثُونَ الْقُدَامَا[4]

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧١٣.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٤٥.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٨٥، وما بعدها.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٨٥.

CamScanner

وفي التاسع يذكر مسافعا الهذلي[1]:

وَأَنْتَ مُسَافِعُ كُنْتَ الثِّمَالَ   إِذَا فَقَدَ الْمُمْحِلُونَ الْغَمَامَا[2]

وفي الحادي عشر والثاني عشر يذكر أبا محجن الهذلي وأصحابه:

وَلَسْتُ بِنَاسٍ أَبَا مِحْجَنٍ   وَأَصْحَابَهُ مَا أَبَنْتُ الْكَلَامَا
رَبِيعًا وَصَخْرًا وَلَا جَابِرًا   وَعِصْمَةَ أَمْسَوْا عِظَامًا رِمَامَا[3]

ويصر الشاعر الهذلي أن يذكرنا بتجدد الحزن لا يبلى، في رثى بعد رثى بعد رثى، وتجدد الدمع له والنواح عليه، يقول في البيتين الرابع والثلاثين والخامس والثلاثين يصف وجه النائحة المولولة وفعل البكاء فيه:

وَلَمْ يُبْقِ مِنْهَا رِثَى الْهَالِكِـــــــــ   ـــــــينَ إِلَّا تَجَمُّلَهَا وَالْقَوَامَا
إِذَا نَوْحُ مَيْتٍ قَضَى عَبْرَةً   مِنَ الدَّمْعِ أَعْقَبَ نَوْحًا قِيَامَا[4]

ولم يقتصر الرثاء الجماعي لسيوف القبيلة وحرابها ووجهائها على ابن أبي ثعلب، بل جاء أبو ذؤيب بأخريين في طعم مختلف عن عينيته الشهيرة اختلافا بينا، فالأولى جاءت على بحر المتقارب كقصيدة ابن أبي ثعلب، بيد أنها مقيدة الروي مردفته، مطلعها:

عَرَفْتُ الدِّيَارَ لِأُمِّ الرَّهِـــــــــ   ـــــــينِ بَيْنَ الظُّبَاءِ فَوَادِي عُشَرْ[5]

وقد قص علينا أبو سعيد قصتها؛ فقال: «قال عبد الله بن إبراهيم الجمحي: بَيَّتَ نَاسٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ ناسًا من هذيل؛ فقتلوهم، وكان أبو ماعزٍ أسفلَ من دار القوم التي

(١) في ذكر مسافع الهذلي حيا انظر: السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٩٣.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٨٦.
(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٨٦.
(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨٨٨.
(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١١٢.

CamScanner

أصيبوا فيها؛ فسمع الصوتَ؛ فجاء فيمن معه من أصحابه يُصْرِخُهُم، فَوَجَدُوا الْقَوْمَ قَدْ فَاتُوا، وَأَعْجَزَتْهُمْ سُلَيْمٌ؛ فَلَمْ يُدْرِكْهُمْ»[1]. وكأن القصة تقول بلسان حالها: أنا لا يعبر عني إلا شعرا. ألا ترى السكري في أول تعبير له عن مصاب الهلكى قال: «فَوَجُدُوا الْقَوْمَ قَدْ فَاتُوا» يكاد يلتئم على أقراء وزان: مُفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُنْ، من سالم الهزج أو معصوب الوافر، لولا حركة الثالث في الجزء الأول.

وتظهر بشاعة القتل في عدة جهات:

أولاها: أنه ليلا لا نهارا.

وثانيها: أنه قتل سريع خاطف، لم يدرك نصرتهم فيه أبو ماعز الذي أقبل سامعا هابا للنصرة، فزمان وصوله إلى موضع سمع صراخه كان أطول من زمان الإجهاز عليهم.

وثالثها: أنهم جميعا ماتوا ولم يبق منهم أحد.

ورابعها: أنهم ناس من هذيل، فيحتمل أن فيهم النساء والأطفال، وأَقْبِحْ بذلك من قتل.

وخامسها وهو آخرها: أن كل ذلك كان يكون مؤلما لو وقع بأي قوم، فما بالك لو كانوا ذوي قرابة في هذيل؟!

والقصيدة في سبعة وعشرين بيتا، يمضي فيها أبو ذؤيب متأملا للمشهد من بعض بُعْد، فليس متلاحما بحيث تسمع منه صيحات العينية ولا هو متول عنها، يظهر ذلك الموقع الذي يرقب منه حين يقول:

فَدَعْ عَنْكَ هَذَا وَلَا تَبْتَهِجْ   لِخَيْرٍ وَلَا تَبْتَئِسْ عِنْدَ ضُرْ[2]

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١١٢.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١١٧.

CamScanner

وهذا لا يمنعه من توفية ابن عُجْرة اللحياني الهذلي حقه من ذكر الخلال والمناقب، يقول في البيت الحادي والعشرين:

أَبَعْـدَ ابْـنِ عُجْـرَةَ لَيْـثِ الرِّجَـا ... لِ أَمْسَـى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا نَفَرْ؟![1]

وكذلك لم ينس تحية أبي ماعز الشجاع الناصر وابني قبيس معه في البيتين الخامس والعشرين والسادس والعشرين:

فَلَـوْ نُبِـذُوا بِأَبِـي مَـاعِـزٍ ... نَهِيكِ السِّـلَاحِ حَدِيـدِ البَـصَـرْ

وَبِابْنَـيْ قُـبَيْـسٍ وَلَـمْ يُكْلَـمَـا ... إِلَـى أَنْ يُضِـيءَ عَمُـودُ السَّـحَرْ[2]

أما المقطعة الأخرى لأبي ذؤيب فكانت في رثاء بعجة وهي قبيلة من هذيل حين غدرت بهم بَهْـزٌ[3] وعدتها أربعة أبيات:

مَـا بَـالُ عَيْنِـي لَا تَجِـفُّ دُمُوعُـهَـا ... كَـثِـيرًا تَشَـكِّيهَا قَـلِيـلًا هُجُوعُـهَـا

أُصِيبَـتْ بِقَتْلَـى آلِ عَمْـرٍو وَنَوْفَـلٍ ... وَبَعْجَـةَ؛ فَاخْتَلَّـتْ وَرَاثَ رُجُوعُهَا

إِذَا ذَكَـرَتْ قَتْلَى بِكَوْسَـاءَ أَشْـعَلَتْ ... كَوَاهِيَـةِ الْأَخْـرَابِ رَثَّ صُنُوعُهَـا

وَكَانُوا السَّـنَامَ اجْتُبَّ أَمْسِ فَقَوْمُهُمْ ... كَعَـرَّاءَ بَـعْـدَ النَّـيِّ رَاثَ رَبِيعُـهَـا

وهذه الأبيات لحظة اهتياج للأحزان بعد زمن الفجيعة بقليل؛ إذ قال في الرابع «أمس» أي من قريب، وإن لم يكن اليوم السابق تحديدا، وكان ذكر العين وسيلة لتصوير الحزن، فهي لا تجف دموعها، تشكوا كثيرا ولا تنام إلا قليلا، ولقد أصيبت عينه بمقتل الفقداء، فاهتاجت واضطربت احمرارا وبكاء حتى أبطأ عليها رجوعها لصحتها، من راث يريث ريثا، حتى صارت كأذن قربة رثة مهترئة، ثم يصل في البيت الرابع إلى وصف

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١١٨.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١١٩.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢٢٥، وما بعدها.

قبيلة بعجة الهذلية، بأنها كانت للناس من العلو بمنزلة السنام من الناقة، والناقة أكرم عند العربي وبخاصة الهذلي من الجمل، وهذيل تقدر الإبل تقديرا، ثم جعل إبادتهم كقطع السنام من الناقة فتبقى مهزولة قد غاب عنها بهاؤها[1].

ولم يكن الرثاء مقتصرا على الرجال، بل نقل إلينا الرواة رثاء نسائيا للقبيلة، قال أبو سعيد: «وقالت راثية بني حبيب ترثي من قتل من قومها»[2] تقول:

أَلَا يَا عَيْنُ بَكِّي وَاسْتَجِمِّي ... شُؤُونَ الرَّأْسِ رَجْلَ بَنِي حَبِيبِ

مَطَاعِيمٌ إِذَا قَحَطَتْ جُمَادَى ... وَمَسَّاحُو الْمَغَائِظِ بِالْجُنُوبِ[3]

رَابِعًا: تَغَيُّرُ رُؤْيَةِ الْفَاقِدِ تُجَاهَ الْقَدَرِ بَيْنَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ:

تضاغطت واعتلجت قوتان عارمتان في نفس الشاعر الهذلي الذي أدرك الإسلام وأسلم، القوة الأولى هي جذور معرقة في نفس الإنسان العربي تدعوه لاستبقاء ذكره وصفته واسمه في الدنيا، باحثا عن معنى مجازي للخلود يأوي إليه بعد أن علم أنه لا شك سيخسر معنى الخلود الحقيقي، وهذه القوة تعينه أحيانا على الوقار والرضا بما يقدره الله تعالى، يقول أبو قِلابة الطابخي الهذلي وهو عم المتنخل:

وَلَا تَقُولَنْ لِشَيْءٍ: سَوْفَ أَفْعَلُهُ ... حَتَّى تَبَيَّنَ مَا يَمْنِي لَكَ الْمَانِي[4]

أي حتى تَتَبَيَّنَ ما يقدره لك الله القادر، وأبو قلابة هذا هو عم المتنخل وهو جاهلي، وقد جاء في القرآن ما يؤكد هذا المعنى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن

---

(١) رواية البيت الرابع في اللسان مادة (ع.ر.ر) كما في الديوان، لكنه في مادة (ع.و.ي) رواه: «... وغاب ربيعها».

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٧٣.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٧٣، ومَسَّاحُو الْمَغَائِظِ بِالْجُنُوبِ كناية عن صفة الحلم على غيظ الناس بمسحه أي بإزالته.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧١٣.

CamScanner

يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾[1].

وكانت تلك القوة النفسية الأولى تدفع الشاعر أحيانا إلى إطلاق العنان لغضبه وسخطه وحنقه في رؤيةٍ متحررة عن أي قيد سماوي لفعل القدر، يقول مثلا ربيعة بن الجحدر اللحياني الهذلي:

وَمَـنْ يَلْقَ خَيْـرًا يَحْمَدِ النَّـاسُ أَمْرَهُ   وَمَنْ يَلْقَ شَرًّا يَبْكِ وَالدَّهْرُ زَائِدُهْ[2]

والقوة الثانية هي قيمة الصبر عند المسلم الذي يفوض الله في أمر نفسه، قائلا: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[3] لأنه يوقن أن الله تعالى هو ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾[4] وأنه ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾[5] وأنه ﴿يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[6] وأنه ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[7] وأنه ﴿يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[8] وأنه تعالى ﴿يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾[9] وأن استحضار هذه المعاني يبلغ أعلى درجات الاختبار في حالة الابتلاء بمصيبة الموت ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[10] والمثل الأعلى في ذلك صبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) من سورة الكهف، آية ٢٣، ٢٤.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٤٧.
(٣) سورة غافر، آية ٤٤.
(٤) سورة آل عمران، آية ٢٦.
(٥) سورة الأنبياء، من آية ٢٣.
(٦) سورة الحج، من الآية ١٤، وسورة البقرة، من الآية ٢٥٣.
(٧) سورة الحج، آية ١٨.
(٨) سورة المائدة، آية ١.
(٩) سورة الرعد، من آية ٤١.
(١٠) سورة البقرة، الآيات من ١٥٥-١٥٧.

CamScanner

عند وفاة ابنه إبراهيم؛ حيث قال: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَاللَّهِ إِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»(١).

وهذا الاعتلاج بين القوتين بلغ ذروته في التكافؤ بينهما في مطلع عينية أبي ذؤيب في رثاء أبنائه:

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ(٢)

فقد اعتمد فيها أبو ذؤيب أسلوب الاستفهام، يخاطب نفسه، كأن محذوفا قبل السؤال هو أنه ضبط نفسه متوجعا من فعل الموت به، فقَيَّدَ على نفسه هذه الزلة، في إشارة إلى أنه لا يتوجع كبحا وكظما لا صفاء وخلوا، ثم يكون القول هو عمل العقل يقيد عمل العاطفة، أمن المنون التي تصيب كل أحد ولا مهرب منها تتوجع؟! فلم يقرر حقه في التوجع بل لام نفسه عليه، دالا على أن وجدانه لا يسكن لقيد التسليم تارة وينفر منه تارة، فهو كلما زجر نفسه انزجرت ثم إن تركها يسيرا نشزت، وتبقى الحجة العقلية: والدهر لا يزيل عتب من يجزع بأن يرد له الميت أو يميط عنه الألم، ففيم الجزع الذي لا يغير في الواقع شيئا؟! وهذه الحجة العقلية تجابه بقوله المحبوس في صدره: لكني لا أملك للصبر طاقة، وإني - وحق الله - جازع منكسر الظهر مفطور القلب.

هذا البيت الذي يتوازن بين الجانبين يمثل خُطَّاف الجذب الأول للمتلقي؛ ليقول: نعم أنا هذا المتردد بينهما لا أثبت على أحد الجانبين، فكيف أصنع؟

ولا شك أن إسلام أبي ذؤيب كان من أعظم العوامل أثرا في تكوين هذا الخطاب الشعري الذي يجمع أطرافا عزت على غيره، ويلفتنا إلى هذا نوع لفت أبو العلاء المعري

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، وهو فيه برقم: ١٣٠١٤، والبخاري في صحيحه، وهو فيه برقم: ١٣٠٣، ومسلم في صحيحه، وهو فيه برقم: ٢٣١٥.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤.

المتوفى ٤٤٩هـ في رسالة الغفران حين لقي أبا ذؤيب في الجنة يحلب اللبن ويخلطه بالعسل اعتمادا على كثرة ذكر أبي ذؤيب للخمر والعسل اشْتِيَارًا وشربًا في شعره، مع معلومة أنه أسلم ومات في عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنهم(١). وذلك في مقابل أبي كبير الذي جعله المعري في النار!(٢)

وفي عصر بني أمية يقول أبو صخر الهذلي في مرثيته، كأنه يشرح جانبا من بيت أبي ذؤيب:

فَـلَا نَائِبَـاتُ الدَّهْـرِ يَرْجِعْـنَ هَالِكًا إِلَـى أَهْلِهِ، وَالدَّهْرُ جَـمُّ النَّوَائِبِ(٣)

وكذلك قال حُصَيْبٌ الضَّمْرِيُّ:

يَا لَهْفَ نَفْسِـي، وَلَهْـفٌ غَيْرُ مُجْدِيَةٍ شَـيْئًا، وَمَـا عَـنْ قَضَـاءِ اللهِ مُلْتَحَـدُ

لِمَعْشَـرٍ غَيْـرِ أَنْـكَاسٍ أَضَـرَّ بِهِـمْ رَيْـبُ الْمَنُـونِ وَدَهْـرٍ مَالَـهُ نَفَـدُ(٤)

بل إن أبا ذؤيب نفسه تردد عنده هذا المعنى في افتتاح المراثي، فقال مرة أخرى:

لَـعَمْـرُكَ وَالْمَنَـايَـا غَالِبَـاتٌ لِـكُلِّ بَنِـي أَبٍ مِنْهَـا ذَنُـوبُ(٥)

حتى وصل الوصال بين أبي المورِّق اللحياني الهذلي والمنية أن رخمها في مطلع رثائيته لصاحبه اللحياني الهذلي جُنَيْدِبٍ يوم المغمَّس؛ فقال:

أَلَا يَـا مَنِـيَّ لِـمْ غَـرَرْتِ جُنَيْدِبًا وَأَحْلَلْتِـهِ عَلَـى لَئِيـمٍ مُذَمَّـمِ(٦)

---

(١) أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري: رسالة الغفران، صححها: إبراهيم اليازجي، مطبعة أمين هندية، بالموسكي، القاهرة ١٩٠٧، ط١، ص٢٩-٣٠.

(٢) المعري: رسالة الغفران، ص١٠٠-١٠١.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩١٨.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣٣٨.

(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١٠٤.

(٦) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٧٨.

CamScanner

وهذا «قيس ابن[1] العَيْزَارة[2]، وهي أمه، يرثي أخاه لأبيه وأمه الحارثَ بن خويلد، وأصابه حَبَنٌ بمكة فمات، والحبن إذا استسقى البطن:

يَـا حَـارِ إِنِّـي يَـا ابْـنَ[3] أُمِّ عَمِيـدُ كَمِـدٌ كَأَنِّـي فِي الْفُـؤَادِ لَهِيـدُ»[4]

فيقول قيس بن خويلد في ختامها، وهي ثمانية عشرة بيتا، عن كلبة أو بقرة أن ما أصابها أصابها بإرادة الله تعالى وأن سلامتها ونَفَادَهَا أي: هلاكها بيد الله:

يَوْمًـا أَرَادَ بِهَـا الْمَلِيـكُ نَفَادَهَـا وَنَـفَادَهَـا بَعْـدَ السَّـلَامِ يُرِيـدُ[5]

وقال في قيس في غير هذه القصيدة:

وَقَالُـوا لَـنَـا الْبَـلْـهَـاءُ أَوَّلَ سُـؤْلَةٍ وَأَعْرَاسُـهَا، وَاللهُ عَنِّـي يُدَافِـعُ[6]

ويقول ساعدة بن جؤية الهذلي الجاهلي في رثاء ابنه:

وَلَـوْ سَـامَنِي الْمَانِي مَكَانَ حَيَاتِهِ أَنَاعِيـمَ دَهْـرٍ مِنْ عِبَـادٍ وَجَامِلِ[7]

يقول السكري شارحا: «ولو سامني الماني أي: دهري أراده مني وعرض ذلك علي، والماني القادر، وأراد الدهر ها هنا»[8]

---

(١) كلمة «ابن» هنا في كلام السكري بلا ألف، وكذلك في: ج٢، ص٥٨٨ في كتابة الأستاذ سيد إبراهيم، وص٥٨٩، في الترجمة، والمشهور من القاعدة أنها لو لم تكن بين علمين مذكرين وجبت كتابة الألف، وقد كتبها السكري بالألف في: ج٢، ص٦٠٣، ولعل للمحقق والمراجع وجها غائب عن الباحث، والمحقق يتصرف أحيانا في طرائق الكتابة القديمة فيكتبها على المشهور الآن وينص في الهامش كما في: ج٢، ص٨٩٣، هامش١.

(٢) وأحيانا تجرد عن (أل) فيقول: عيزارة كما في: ج٢، ص٦٠٣، ٦٠٧.

(٣) هكذا في الديوان، والمشهور حذف ألف «ابن» بعد «يا» والله أعلم.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٧٠.

(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٠٠.

(٦) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٩٠.

(٧) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٨١.

(٨) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٨١. والمشهور كتابة ههنا بلا ألف، لكنها هكذا في الديوان.

CamScanner

ويقول معقل بن خويلد الهذلي الجاهلي:

حَمِدْتُ اللهَ أَنْ أَمْسَى رُبَيْعٌ ... بِدَارِ الْهُونِ مَلْحِيًّا مُقَامَا[1]

وفي مطلع قصدية أخي صخر الغي يرثي، وهو جاهلي، يقول:

لَعَمْرُ أَبِي عَمْرٍو لَقَدْ سَاقَهُ الْمَنَا ... إِلَى جَدَثٍ يُوزَى لَهُ بِالْأَهَاضِبِ[2]

و«الْمَنَا» هو القدر، وهذه النصوص تعكس جانبا مع تعاملهم مع القدر وما يحل بساحتهم منه وعلى الأخص فقد الأقربين بالموت.

الْمُلَاءَمَةُ مِنَ الدَّاخِلِ: التَّوَافُقُ وَالتَّخَالُفُ فِي إِنْجَازِ الْغَرَضِ بِالْمَقُولِ:

عمل الشاعر الهذلي بطرائق متباينة على تحقيق أغراضه الخِطابية التي من أجل قدم مشاركته الشعرية الرثائية، فجاءت البنية اللغوية لمشاركته في الخطاب ذات أبعاد دلالية بعضها متوافق مع مقصديته، وبعضها متخالف مع مقصديته، وهو في الحالين سعى لغايته بما تطيقه مهارته الشعرية.

فعند استعمال البنى متوافقة الدلالة مع المقصدية يستعملها قاصدا تقريب الاجتناء على الجاني وتخريط القتاد تسهيلا على الْمُعاني، يستعملها حيث تفيد الدلالة بأصواتها أحيانا بدلا من إفادتها بمعناها الصفري العربي، يستعملها حيث لا يَنْفعُ لفظا مجازُه لم يكن مستقرًّا كالحقيقة من قبل أو أَفَادَ بوضْعِه معنًى، حيث لا مواربة ولا مخاتلة، وهذا سيظهر هنا عند الكلام على عنصرين: الملاءمة الصوتية، وبعض الفخر أو التوعد في الخطاب الرثائي.

وعند استعمال البنى متخالفة الدلالة مع المقصدية يستعملها ناصبا القرينة شادا عرى العلاقة بينها وبين المقصدية بحيث يحقق بها غايتين: الأولى: فهم المقصدية

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣٩٤.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢٤٦، ونسبت لأبي ضخر ولصخر الغي نفسه.

من حيث هي فكرة، ولذا احتاج القرينة والعلاقة، وذهِ أهون الغايتين، والأخرى: إشعار المخَاطَب بقوة فعل التلفظ بالمقول، وذهِ الغاية التي لا تتحقق إلا بهتك المبادئ التعاونية في الخطاب، وعلى رأسها الملاءمة، ليتولد الاستلزام الشعري أو الأدبي، وهو استلزام إحساسي مبدؤه: من مفارقته المقول للمقصود، وشرطه: فهم المخاطب للمسكوت عنه، وماهيته: انفعال نفس المخاطب كارتجاف بدن أو ارتجاج قلب أو قشعريرة جلد أو اطمئنان نفس أو ما أشبه ذلك، وثمرته: حصول انتقال المخاطَب إلى عالم الحلم الذي يريده له المخاطِب، وذا الاستلزام الإحساسي إحدى تجليات سلطة الخطاب الشعري؛ ولذا نعده داخلا في أثر الفعل الكلامي، وهو بخلاف الاستلزام الحواري المتولد من انتهاك المبادئ التعاونية عند التداوليين، ويتجه أن بينهما علاقة العموم والخصوص الوجهي.

أَوَّلًا: الْخِطَابُ الِاسْتِفْزَازِيُّ فِي الْإِيقَادِ الشُّعُورِيِّ:

في الخطاب الشعري الهذلي استعمل الشاعر أداة الاستفزاز، وهي أداة متعددة الأغراض، تؤدي وظيفة الإحراق والإفحام بالإقذاع أحيانا، وهي وظيفة تداولية يقصد بها أَبْعَدُ مدًى يُقْدَر عليه، وتؤدي وظيفة تداولية أخرى هي أقرب مدى من الأولى، يقصد بها إيقاد الأوار دون إهلاك بالحرق، أو إهانة أو حط، وغاية هذه الوظيفة مختلفة عن الأولى، وينبغي الحذر في تحقيقها كالسهم إن تجاوزت قوته ما يناسب غرضه تجاوزه لغيره، فيكون أضر من حيث أراد النفع، وعندما يحقق الشاعر هذه الوظيفة يظهر للناقد الأدبي ولكل متمثل وسامع مقدار مهارته الشعرية وتحكمه التام في زمام الخطاب وأدواته، ومن ثم سلطانه التام في المخاطب شعريًا.

في غير الخطاب الرثائي نجد الوظيفة الأولى في نحو سويد بن عمير الخزاعي الخليع يقول حين انتصر محاربا بني لحيان الهذليين في صف أبي جندَب بن مرة الهذلي:

فَـإِنِّـي غَـيْـرُ هَاجِيكُـمْ وَلَـكِـنْ ... أَقُـولُ عَرَاكُمُ الْحَدَثُ الْأَلِيمُ[1]

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨١١.

وفي شرح السكري للبيت يقول: «يقول: لا أهجوكم، ولكني أحدث بأخباركم السَّيِّئة، أقول: قد نزل بهم كذا، وفعل بهم كذا؛ فهذا شر من الهجاء»[1].

ومن ذلك قول أبي بثينة الصاهلي الهذلي يهجو سَارِيَةَ بنَ زُنَيْمٍ:

فَهَلْ تَـأْوِي إِلَـى الْمَنْجَـاةِ إِنِّـي أَخَافُ عَلَيْـكَ مُعْتَلَجَ السُّيُولِ[2]

والمنجاة ما ارتفع من الأرض، والبيت سؤال استفزازي يقصد به التهكم عليه، حتى يختم القصيدة بقوله:

إِذَا مَسَـحُوا سِبَـالَـهُمُ بِـدُهْـنٍ أَلَهْفَـكَ عَبْـدُ لِلرَّجُـلِ الْقَتِيـلِ[3]

يقول السكري في شرحه: «وإنما يعيرهم بالرجل الذي ذبحوه فأكلوه» وقد روى بسنده هذه القصة بالتفصيل قبل ذلك فقال: «عن الأصمعي وأبي عمر [يقصد الشيباني الكوفي لا المازني البصري][4] عَمَدَتْ بَنُو نُفَاثَةَ بنِ عَدِيِّ بْنِ الدِّيلِ إلى جار لهم في الجاهلية يقال له حُبَيْشُ بْنُ مُخَذَّمٍ، في أزمةٍ أصابت الناس، فشَوَوْهُ ثم تركوه أيامًا حتى إذا قَبَّ أكلوه»[5] وساق بعد ذلك سيلا طاما من الأشعار في تعييرهم بذلك.

وأقسى من هذا النهيُ الاستفزازي الفاحش في قول أبي أراكة الصاهلي الهذلي لأخت تأبط شرا عدوِّ هذيل الأشد، حين أُنكحت طريفة بن أسيد النُّفَاثِيَّ:

فَـلَا تَأْكُلِـي خُصْيَـيْ حُبَيْـشٍ وَأَيْرَهُ هَوَيْتِ، وَلَا مَا يَشْتَوُونَ مِنَ الْجِلْدِ[6]

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٨١٢.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٣١.
(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٣٢.
(٤) هذا إيضاح من الباحث اقتضاه الكلام؛ انظر في ذلك إن شئت: السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١٢، من مقدمة المحقق.
(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٢٩.
(٦) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٧٣٧.

CamScanner

يقول السكري في شرحه: «هَوَيْتِ: سَقَطْتِ ... أبو عبد الله قال: يزعمون أن رجلا نزل على بني شِجْعٍ من كنانةَ؛ فأكلوا خُصْيَيْه».

هذا استعمالهم خارج الرثاء، فكيف به في الرثاء؟

اعتاد الشاعر الهذلي أن يسوق لنا الخطاب الاستفزازي في الرثاء على ألسنة النساء، وكأن هذه أهم وظيفة تقوم بها المرأة في كل أشعار الهذليين قاطبةً، وقد تواطأ على ذلك القوم لا شاعر واحد أو اثنان، وكأنه معتمد شعري راسخ فيهم، يقول عمرو ذو الكلب الكاهلي الهذلي:

أَلَا قَالَتْ غَزِيَّةُ إِذْ رَأَتْنِي ... أَلَمْ تُقْتَلْ بِأَرْضِ بَنِي هِلَالِ[1]

وكأنها تنتظر جوابه: بلى قتلت، وهأنا ذا ميت أكلمك!! ولذلك يتابع قائلا:

أَسَرَّكِ لَوْ قُتِلْتُ بِأَرْضِ فَهْمٍ ... وَهَلْ لَكِ لَوْ قُتِلْتُ غَزِيَّ مَا لِي؟[2]

ورواها الأصمعي: «مالُ» على الإكفاء. وعمرو ذو الكلب هذا لم يكن كارها لغزية ولا أضمر لها سوءا، فهو الذي يقول في مطلع القصيدة:

غَزِيَّةُ آذَنَتْ قَبْلَ الزِّيَالِ ... وَأَمْسَى حَبْلُهَا رَثَّ الْوِصَالِ

وَأَمْسَتْ عَنْكَ نَائِيَةً نَوَاهَا ... بِشُقَّةَ شُنَّأٍ غُرِّ السِّبَالِ[3]

وعلى هذا المنوال يأتي افتتاح قيس ابن العيزارة لقصيدته قائلا:

أَلَا تِلْكَ عِرْسِي لَا تَزَالُ تَلُومُنِي ... وَلَوْ تَرَكَتْنِي قَدْ كَفَتْنِي لَوَائِمِي

تَقُولُ: أَلَا أَعْوَيْتَنَا إِذْ أَسَرْتَنَا ... فَيَا لَكَ مَرْءًا مِالْأُمُورِ الْأَشَائِمِ[4]

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٦٦، وهذا مطلع القصيدة عند الأصمعي دون سائر الرواة.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٦٦.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٦٥. والشُّنَّأُ الأعداء، وهي في الديوان بهمزة فوق الألف لا تحتها.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٠١.

CamScanner

ويدخل بذلك على قضية القصيدة، كأن قولة زوجته هي التي فجرت ذلك باستفزازها له. ومثله يقول الجموح حين عاد من الحرب وما زال معه سهام سود كان قد أقسم أن يرميها فلم يرمها جميعا:

قَالَتْ أُمَامَةُ لَمَّا جِئْتُ آتِيَهَا: هَلَّا رَمَيْتُ بِبَاقِي الْأَسْهُمِ السُّودِ(1)

وهذا كلام مزعج موذ، فماذا يبقى للرجل إذا اجترأت عليه زوجه؟ وأين رجولته إذا رمي بالخور؟ كيف ينظر في عينيها؟ هذا الاستفزاز الفاعل الماضي مضاء السهم في النفس هو الذي حمله على قص القصة بلفظها، ثم التعقيب بأعلى صوته:

لَا دَرَّ دَرُّكِ إِنِّي قَدْ رَمَيْتُهُمُ لَوْلَا حُدِدْتُ وَلَا عُذْرَى لِمَحْدُودِ

يقول السكري في شرحه: «لَا دَرَّ دَرُّكِ: كسبك، يدعو عليها، وقوله: لَوْلَا حُدِدْتُ: أي: لو لم أُحْرَم، ويقال: إنه شجاع وإنه محدود» هذا هو الاتقاد الذي فعله كلام المرأة في نفس الرجل فخرج فيحه شعرا.

وغالبًا ما كان الخطاب النسائي لائما عاذلا في شعر بني هذيل، ويلزم من هذا اللوم استفزاز معتاد، وكأن هذه أبرز سمات لغة المرأة في شعر هذيل، من ذلك قول الأعلم الهذلي:

يُلَطِّمُ وَجْهَ حَنَّتِهِ إِذَا مَا تَقُولُ: تَلَفَّتَنَّ إِلَى الْعِيَالِ(2)

يقول السكري في الشرح: «حَنَّتُه: امرأته. إذا عاتبته وقالت: انظر لعيالك. لطمها... يقول: هو سيء المعاشرة، يضرب وجه امرأته إذا قالت له: انظر لعيالك!» وهذا لومها في الأحياء، أما في الأموات فقولها في شعر أبي خراش الهذلي:

لَعَمْرِي لَقَدْ رَاعَتْ أُمَيْمَةَ طَلْعَتِي وَإِنَّ ثَوَائِي عِنْدَهَا لَقَلِيلُ

---

(1) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج2، ص871.

(2) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج1، ص319.

CamScanner

تَقُـولُ: أَرَاهُ بَعْـدَ عُـرْوَةَ لَاهِيًـا وَذَلِـكَ رُزْءٌ لَـوْ عَلِمْـتِ جَلِيـلُ
وَلَا تَحْسَـبِي أَنِّي تَنَاسَـيْتُ عَهْدَهُ وَلَكِـنَّ صَبْرِي يَا أُمَيْـمُ جَمِيلُ[1]

فهي هنا تستفزه من الأرض تريد أن تخرجه إلى الحرب ليثأر، فتقلبه في الأحزان التي أراد أن يتخفف منها قليلا بملاعبة الصبيان، وهكذا المرأة لا تسمح للرجل بالراحة، ولا بأن يحتال على أحزانه بأن يسكنها ليهدأ ولو قليلا، بل تذكره دؤوبة وتهيجه، وكأنها تشعل الشرارة التي حاول إخمادها مرارا، ويكون ذلك باستفزاز غير مباشر عادة، فلا تشتعل الشرارة فقط، ولكن يهب سِقْطُها نارا محرقة ضارية في جنبات نفسه، ولعل هذا الاستفزاز يكون أحيانا مفيدا له ليبث ما يكتم، وهو الموقف الذي حكاه أبو ذؤيب في عينيته:

قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لِجِسْـمِكَ شَاحِبًا مُنْذُ ابْتَذَلْتَ وَمِثْلُ مَا لِكَ يَنْفَعُ[2]

وهذا الكلام يصدر ممن تعلم بالفاجعة، وتعلم بتكتمه وتجلده وصبره، وتسأله في صورة لائمة عن فعله[3] أنه يرهق نفسه في الأعمال الجسدية اليومية التي كان يمكنه الاستغناء عنها باستئجار غيره أو شراء عبد أو ما شابه، وهي تعلم أنه ما باشر تلك الأعمال بنفسه إلا لأنه يريد أن ينام، وحزنه على أبنائه لا يتيح له هذه الفرصة، فكلما ذهب إلى مضجعه في آخر يومه أرق، وأقض عليه المضجعُ قضيضا، فهو يحاول إرهاق جسده طوال النهار حتى يمكنه أن يظفر ببعض النوم والراحة ليلا[4].

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٨٩.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٥.
(٣) يرى بعض الباحثين في هذا الحوار حوارا مع الآخر في صورة أميمة لا بخصوصية أميمة الأنثى الزوجة، وهو بهذا حوار خارجي يقابل الحوار الداخلي الذي كان في مطلع القصيدة، انظر:
ـ صالح بن أحمد السهيمي: الحوار في شعر الهذليين دراسة وصفية تحليلية، رسالة ماجستير في الأدب بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، بإشراف: عبد الله بن محمد العضيبي، ٢٠٠٩، ص٦٣-٦٤.
(٤) فاد هذا التفسير للبيت وغيره من المعاني للباحث من محاضرة الأستاذ الدكتور: أيمن محمد علي ميدان في كلية دار العلوم، في شرحه لمقرر الشعر في صدر الإسلام للفرقة الثانية عام ٢٠١٦.

CamScanner

هذا الاستفزاز النسائي من أميمة يقع عند الشاعر موقع سؤال أبله ساذج، فكيف تنتظر الجواب، إن جوابه معلوم سلفا، ففيم السؤال إذن؟ يتولد من هذا الاستفزاز انزياح دلالي هو استلزام حواري يحول السؤال إلى طلب منه له بأن يبوح بصرخته، وأن يبث ما في نفسه، وألا يكتم حتى لا يقتله الكمد، ويضنيه الحبس، ويصاحب هذا الاستزام الحواري في الدلالة على المقصدية من حيث هي فكرة، استلزام شعري أدبي في الدلالة على المقصدية من حيث هي إحساس، تقول له نفِّس وأخرج ما فيك من حرارة، واستجابة لهذا الاستفزاز كانت القصيدة، ولذا نجد الشاعر ذكر هذا الاستفزاز في أولها كأنه يحكي قصة البوح.

ولا يكاد الباحث يجد في شعر هذيل ما يشذ عن هذا في حكايتهم للغة المرأة سوى قولِ ساعدة بن جؤية جاعلًا المرأة مُتَحَوِّبَةً أي: متفجعة متوجعة متعاطفة معه، كما قال السكري: «كأنها رأته قد ضَرِعَ وكَلَّ من مرضه؛ فكرهت أن تقول له شيئا؛ فقالت: لِشَانِئِكَ الضَّرَاعَةُ وَالْكُلُولُ»(١) وهو الذي يذكرها بالتجمل بالصبر والاستغناء بالعيش القليل، وذلك في قوله:

أَلَا قَالَـتْ أُمَـامَـةُ إِذْ رَأَتْنِـي ... لِشَـانِـئِكَ الضَّـرَاعَـةُ وَالْكُلُـولُ
تَحَـوَّبُ قَـدْ تَـرَى إِنِّـي لَحِمْـلٌ ... عَلَـى مَـا كَانَ مُرْتَـقَـبٌ ثَـقِيـلُ
جَمَالَـكِ إِنَّمَـا يُجْدِيـكِ عَيْـشٌ ... أُمَيْـمُ وَقَدْ خَلَا عُمْـرِي قَلِيلُ(٢)

ثَانِيًا: التَّخْيِيلُ وَالتَّمْثِيلُ وَتَحْقِيقُ السُّلُوِّ:

وهما من المخالفة الظاهرية التي تخالف فيها البنيةُ اللغويةُ للخطابِ المقصديةَ المستبطنة عند القائل، وهي مخالَفَةٌ تستلزم ضرورةَ الانعتاقَ من المستوى الظاهري

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٤٢.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٤٢، ١١٤٣.

CamScanner

الوضعي في الدلالة المستعملة إلى مستويات أعلى متعددة[1]، هذه المستويات في الظاهر تحتاج قرائنَ وعلاقاتٍ[2]، وفي الباطن تجتاح الاستقرارَ الدلالي الوضعي الساكن في تُرْعَةِ الْحَمْلِ الرَّاكِدَة؛ لِتَهْتِكَ هدوءَه، وتنسِفَ قَرَارَه، وتَفْجُرَ عيونَه، وتموجَ بطبقاته، مائرةً بين حركات الباطن النفسي للإنسان، مخلِّصةً له من آثار الموت فيه، بنوعَيْها: من صراخ حارق ويأس بَيْئَس، فتخلِّصه من آثار الموت التي فيه إلى مشارف الحياة أمامه. وأجَلّ أدوات هذه المخالفة وأقدرها وأنفذها وأَعْمَلُها بلا منازعة ولا مداناةٍ: التخييلُ والتمثيلُ.

والتمثيل يبدأ من كون الصورة المستدعاة مستقرةً محكيةً في الخلفية الإداركية للجمهور، ومن هذا جاء معنى «الْمَثَل» بمورده ومضرِبِه، ولكن هذا التمثيل وَحدَهُ لا يكفي لصناعةِ الأثر المرجو تداوليًّا، على جليل فضله وقوةِ عمله.

والتخييلُ - وهو أرفع شأنًا - يعمِد لاستحداث ما لم يكن مستقرًّا ولا محكيًّا ولا موجودًا وجودًا ذهنيًّا بأيِّ درجةٍ من درجات الثبات في خلفيات الجمهور الإدراكية[3]،

---

(١) هذا التعدد يشابه ما يستعمله المتخصصون إذا استفادوا من علم النفس الإدراكي في علميات علاج بعض أنواع الخوف المرضي بما يسمى الانفصال المزدوج في البرمجة اللغوية العصبية، ومثاله: أن يقال للمريض الذي يهاب أن يتذكر التجربة التي فيها خوفه كالخوف من الأماكن المرتفعة كركوب طائرة وقمة جبل أو الخوف من مكان مظلم كغرفة أو الخوف من التحدث أمام الجمهور حتى الخوف من الموت، يقال للمريض لا تتخيل أنك تعيش التجربة، بل تخيل نفسك تشاهد من يشاهدها كأنه في قاعة سينما، أو ما يسميه النفسانيون العلاج بالخيال الموجه، انظر في مثلا ذلك:
- آرثر بيل: الفوبيا الخوف المرضي من الأشياء والتغلب عليها، ترجمة: عبد الحكم الخزامي، الدار الأكاديمية للعلوم، القاهرة ٢٠١١، ط١، ص٢١٣، ٢٢٨.

(٢) وهو ما قرره متأخرو البلاغيين العرب في بحوثهم للمجاز بكونهم مناطقة أكثر كونهم بلاغيين، انظر في ذلك: شروح التلخيص، ج٤، ص٢٩. وانظر أيضًا من كتابات المعاصرين عن الفهم السياقي التداولي للاستعارة:
- المهدي إبراهيم الغويل: السياق وأثره في المعنى دراسة أسلوبية، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي بليبيا ٢٠١١، ط١، ص٨٥.

(٣) فالإدراك هو محل البحث؛ إذ لا يُعنى البحث التداولي هنا بإجابة سؤال: ماذا يوجد؟ بل: كيف لنا =

CamScanner

ويجتهد في الترفُّع عن كل معلومٍ ذهني أو متصوَّرٍ عقلي أو موجودٍ عِلْمِي؛ ليكون هو المحدِث بذاته لا بغيره، وهو المؤثر بذاته لا بغيره، وهو المنتزِع للحامل من مستواه الوضعي الصِّفريِّ انتزاعًا عنيفًا مخلخلًا مربكًا مجتثًّا لا يملك منه فكاكًا ولا إخلادًا لأرض الحَمْل الوَضْعِيِّ الصِّفري، بل كأنه فريسة في مخلب بازٍ عتيٍّ ترتفع بارتفاعه في سماء الحمل الانزياحي شيئًا فشيئًا مقهورةً لا مختارة.

وسلاح التخييل الذي يمنحه تلك السُّلْطَةَ ـ ومِن ثَمَّ سلطة الخطاب الشعري كلِّه ـ يتلخص في جِدة الإحداث، فهذه الجِدَّة هي التي تبدد رِفْقَ المناسَبَة، وتمحُو هدوءَ الملاءمة، وتنبَجِس منها ضراوةُ الاستلزامِ التخييليِّ لا لطفُه، وشدَّتُه لا ضُعفُه، ونضخُ الشعور المحتبَس لا نضحُه، حتى يُنَفِّسَ عن الثاكل؛ فيغدوَ مَعولًا وليس بعائل.

ولكيلا يُجتزأَ التخييلُ في خيالٍ مُفرَدٍ في المشبَّهِ به أو المستعار منه، الذي هو العالم الأدبيُّ الشعريُّ الذي يحمِلُكَ إليه الشاعرُ ليخرِجَكَ مما أنت فيه من كآبة الفقدان وضيق الخذلان، لكيلا يُجْتَزَأَ هذا التخييل يقارِنُهُ التمثيل، الذي يجعل وجوهَ الشَّبه متعددةً؛ مما يزيد هيمنةَ مخالبِ البازي على فريسته، أي: يزيد سلطة التخييل على الحامِل، وهي وظيفة تداولية تحققها العلاقات البلاغية بين طرفين هما: ما أطلقه، وما أراده، أي بين البنية اللغوية المنصوص عليها والمعنى المستنتَج من مجموع عوامل التوجيه الحملي للخطاب في الموقف.

وحاصل ذلك: أن التخييل الناجح تداوليًّا هو مفارقةٌ لعالَم المخاطَب إلى عالَم لم يَرحَل إليه المخاطَب قبلًا، فهو عالَم بِكْرٌ غير مطروق. وأن التمثيل يُوَسِّع رُقعةَ هذا العالَم من جهةٍ، ويحكم قبضة الشاعر على المتلقي من جهة أخرى؛ حتى يقتدر الشاعر تمامَ القُدرَة على أن ينقُل(1) متلقيه إليه بسلطانه؛ فيتحقق السُّلُوُّ بصفته أثرًا لفعل الكلام.

= إدراك ما لا يوجد؟ لتتعرف إلى محاولات إرساء برامج تحليلية تداولية لخطاب التخييل:

ـ جاك موشلر وآن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، ص٤٧٥، وما بعدها.

(1) الفعل: «ينقل» هنا أليق بالعبارة من «يسوقه» و«يقوده» و«ويطير به» و«يبحر به» إلى غير ذلك من الاستعارات.

مثال التقاء ذاتِ التخييل والتمثيل في الخطاب الرثائي الهذلي ما نجده في رِثَى الشعراء: ساعِدَةَ بنِ جُؤَيَّةَ، وأَبِي خِرَاشٍ، وأَبِي ذُؤَيْبٍ.

أما ساعدةُ بنُ جُؤَيَّةَ فكان جاهليًّا مات قبل الإسلام[1]، ولا دليل على أنه أدركه، وكان أستاذًا لأبي ذُؤَيْبٍ؛ حيث ذكر ابنُ قُتَيْبَةَ أن أبا ذؤيْبٍ كان راويةً له[2]، وهذا خَيْطٌ مهمٌّ من خيوط النسيج الشعريِّ في بني هذيل، وهو النسيج المتماسك المشدود من الجاهلية إلى نهاية عصر بني أمية[3]، ويكاد الباحث الجاد أن يَرُدَّ كثيرًا كثيرًا من أساليب أبي ذؤيْبٍ وصُوَرِه وطرائِقِه في التخييل إلى أصولٍ عند ساعدةَ بنِ جؤيةَ كما سنرى؛ فيُدركَ قدْرَ الْمَزِيَّةِ التي زادها التلميذُ على أستاذِه من غير جَنَفٍ له أو حَيْفٍ عليه[4].

---

(١) هذا الأرجح عند الباحث، أما ابن حجر في الإصابة فقد عده في المخضرمين بيد ألا صحبة له، وتابعه على ذلك البغدادي في خزانة الأدب، بينما نقلت محققة ديوانه منفردا رأي المستشرق يوسف هِلْ أنه شهد الفتح، وأسلم، ولكن روحه التي تتضح في ديوانه تجافي قليلًا أو كثيرًا روح الإسلام بوضوح، ثم قالت بعد ذلك: «إذا أمعنا النظر في الديوان وجدنا أنه لا يوجد بيت واحد يدل على أن ساعدة قد أسلم؛ فشعره يخلو من أي أثر للإسلام، إلا أنني أميل إلى القول بأن ساعدة شاعر مخضرم، أدرك الإسلام، ولم يكن إسلامه قويا ظاهرا، فكان من الطبيعي ألا يظهر أثر الإسلام في شعره» أقول: ويظل الدليل مفقودا على كونه أدرح الفتح أو أسلم، راجع إن شئتَ في ذلك:

- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ ج٣، ص٢٠٢، ٢٠٣.
- عبد القادر بن عمر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٧، ط٤، ج٣، ص٨٦-٨٧.
- ميساء قتلان: شعر ساعدة بن جؤية الهذلي دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير بجامعة دمشق، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، بقسم اللغة العربية، بإشراف: حسين جمعة، دمشق ٢٠٠٣، ص١٩، ٢٢.
- إسماعيل النتشة: أشعار هذيل، ج٢، ص٢٥٩، ورجح جاهليته.

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج٢، ص٦٥٣.

(٣) وهي حدود جمع الجمعة للديوان وروايته، ومن آخرهم أبو صخر الذي أدرك خالد بن عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، ومدحه، انظر: السُّكَّرِيّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩٦٥.

(٤) قالت محققة ديوانه منفردًا: «ويظهر أثر ساعدة جليا في شعر أبي ذؤيب» وصدقت، راجع إن شئت:=

CamScanner

يستعمل ساعدةُ التخييلَ والتمثيلَ في تحقيق أغراضٍ شعرية صعبة المرتقى، فها هو يفصل بين شَوْطَيْنِ في قصيدةٍ عِشقيَّةٍ طويلةٍ، شَوْطُها الأولُ يحكي عن علاقته بحبيبته التي تفنَّنَ في وصف جمالها تفصيلًا؛ مع قدر من الخروج التخييلي قصيرِ الترشيح لوصفِ طعم ظَلمها الذي يُقسِم أنه أحلى من العسل الْمُشتار بَعِيد المنال ممزوجًا بالخمر المصفَّاة[1]، يقول عنه:

فَـكَأَنَّ فَاهَـا حِيـنَ صُفِّـيَ طَعْمُهُ ... وَاللهِ أَوْ أَشْـهَى إِلَـيَّ وَأَطْيَـبُ[2]

وهذه التفاصيل التي يُعنى الشاعرُ بوصفها وتشبيهها والاستعارة لها تَدُلُّ على أنَّ تَحتَ الوصُوف الحسية محبةً باطنيةً عميقةً، «وإنه لمن سُوء الفهم الناتج عن سوء الظن أن يختصر هذا الجهدُ الشعريُّ الهائل في ذلك الكلام عن حسيةِ العرب التي تنعكس في شعرهم»[3] وبعد كلِّ هذه الحياة العامرة تضيع قصةُ الحبِّ ـ رُحماكَ ربي ـ وتصبحُ ماضيًا، ولا تبقى للشاعر حاجةٌ بصاحبته:

فَالْيَـوْمَ إِمَّـا تُمْـسِ فَـاتَ مَزَارُهَـا ... مِنَّـا، وَتُصْبِـحْ لَيْـسَ فِيهَـا مَـأْرَبُ

= ـ ميساء قتلان: شعر ساعدة بن جؤية الهذلي دراسة وتحقيق، ص١٩.

(١) راجع في العناية بالمشتار كلا من:

ـ ميساء قتلان: شعر ساعدة بن جؤية الهذلي دراسة وتحقيق، ص٣٢.

ـ جريدي سليم المنصوري: مشهد النحل في شعر الهذليين، بحث منشور في: مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، القاهرة ٢٠٠٣، ص٨٩٣-٨٩٥.

ـ عالي بن سرحان القرشي: اشتيار العسل عند الشعراء الهذليين قراءة في سياقاته ودلالاته الشعرية، بحث منشور في: مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٨، ع٣٦، ١٤٢٧هـ، ص٣٧٤، وما بعدها.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١١٣، وقوله: «طَعْمُهُ» خبر كَأَنَّ، وفاعل «صُفِّيَ» هو مَمْزُوجُ الْخَمْرِ بالعسل. والمعنى نثرًا: والله إني لأَجِدُ طعمَ فمها عند تقبيلي لها لذيذًا حتى كأنه طعمُ العسل المصفى الممزوجِ بالخَمْرِ، أو هو أشهى إليَّ وأطيب من هذا العسل الممزوج بالخمر.

(٣) محمد أحمد بريري: الأسلوبية والتقاليد الشعرية، ص١١٧.

CamScanner

ولأنه ليس سهلًا أن يتخيل الجمهور - خاصةً من الشباب - قصةً بهذا العُنفُوان استمرَّ غليانها يصَّاعَدُ في ثمانيةٍ وثلاثينَ بيتًا بطولها، ثم تُهدَمُ ببيتٍ واحد، حتى يزولَ هذا العجبُ يَضرِبُ لك الشاعرُ مثالًا آخرَ يستغرق الشَّوْطَ الثاني من القصيدة، لِتَسْلُوَ كما سَلَا، وتدرك أن لكلِّ قصةٍ نهايةً، كأنه الحاكي الحكيم يَرُوضُ قلبَكَ ويُرَبِّي فِطنَتَكَ لدوران الدهر، وتقريرًا لحقيقةِ أنَّ بقاءَ الحال من المحال، ولابتداء هذا التخييل التمثيلي الجديد يختار أداة أسلوبية هُذَلية تكاد تصاحب تخييل التمثيل الذي يقوم بهذا الغرض التداولي دائمًا، وهي في أول الشَّوْطِ الثاني في قوله:

فَالدَّهْـرُ لَا يَبْـقَـى عَلَـى حَدَثَـانِـهِ ... أَنَسٌ لَفِيفٌ ذُو طَوَائِفَ حَوْشَبُ[1]

والأَنَس جماعة كثيرة، والمقصود هنا لجماعة من الناس أقوياء بُذَخَاءُ[2]، لهم بُعْرَانٌ ضِخَامٌ كثيرة، يتحاماهم الناس إذا رَعَوْا مكانًا ما، وإذا أُنذِرُوا بهجوم لم يَهْرُبوا بل تَصَدَّوْا له:

فَـإِذَا تُحُومِـيَ جَانِـبٌ يَـرْعَـوْنَـهُ ... وَإِذَا تَجِـيءُ نَذِيـرَةٌ لَـمْ يَهْرُبُـوا[3]

وتَخرج لهم كتيبةٌ أخرى قويةٌ أيضًا عظيمةٌ:

بَيْنَـا هُـمُ يَوْمًـا كَذَلِـكَ رَاعَهُـمْ ... ضَبْـرٌ لِبَاسُـهُمُ الْحَدِيـدُ مُؤَلَّبُ[4]

حتى تدور المعركة، وتنتهي بهزيمة الأَنَسِ المذكورين أولا، وهروبِهم بما استطاعوا من بُعرانهم، ورحيلهم إلى أرض أخرى أذلاءً، كما يَرحَلُ السحابُ الذي فقد ماءَه، وصار خفيفًا إذا دفعَتْهُ ريحُ الجَنُوب، يقول في آخر أبياتها:

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١١٤.

(٢) أي: عظماء الشأن.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١١٥.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١١٥.

CamScanner

وَاسْـتَدْبَرُوهُمْ يَكْفَئُـونَ عُرُوجَهُمْ مَـوْرَ الْجَهَـامِ إِذَا زَفَتْـهُ الْأَزْيَبُ[(١)]

وعلى هذا المنوال نجدُ التخييل التمثيلي الرابعَ في عينية أبي ذؤيب، يقول في مُفتَتَحِه معتمدًا على الأداة الأسلوبية الهذلية نفسها:

وَالدَّهْـرُ لَا يَبْقَـى عَلَـى حَدَثَانِـهِ مُسْتَشْـعِرٌ حَلَـقَ الْحَدِيـدِ مُقَنَّعُ

حَمِيَـتْ عَلَيْـهِ الدِّرْعُ حَتَّـى وَجْهُهُ مِـنْ حَرِّهَـا يَـوْمَ الْكَرِيهَـةِ أَسْـفَعُ

تَعْـدُو بِـهِ خَوْصَـاءُ يَفْصِـمُ جَرْيُهَا حَلَقَ الرِّحَالَةِ؛ فَهْيَ رِخْوٌ تَمْزَعُ[(٢)]

فكأنه يقول لك الموتُ الذي يمرُّ بنا مثاله كهذا المثال فشاهِدْهُ من بعيدٍ، ولستَ فيه الآن؛ لتدركَ كيف يتقلَّبُ الزمانُ، ويَكِرُّ الحَدثان، وفي هذه المشاهدة ربطٌ بحالك من جهةٍ، وابتعاد عن ألمك من أخرى، فيحصل السُّلُوُّ المرجُوُّ، وهذا مقاتِل يرتدي الدِّرْعَ الحديديةَ على جِلْدِه شِعَارًا له، أي: لا يفصلها عن جسمه شيءٌ، ويَحمَرُّ منها وجهُه حتى يَضرب إلى السواد، وهو يجري بفرسٍ قويةٍ سريعة، في معركةٍ حتى يظهر له صنديدٌ مثلُه على حصانٍ قويٍّ سريعٍ كفَرَسِه:

بَيْنَـا تَـعَانُـقِـهِ الْكُـمَـاةَ وَرَوْغِـهِ يَـوْمًـا أُتِيـحَ لَـهُ جَـرِيءٌ سَـلْفَعُ

يَعْـدُو بِـهِ نَهِـشُ الْمُشَـاشِ كَأَنَّـهُ صَدَعٌ، سَلِيمٌ رَجْعُـهُ، لَا يَظْلَعُ[(٣)]

وهنا هو يستعمل أداةَ أستاذِه أيضًا، أسلوب «بينا ...»[(٤)]، والفارسان كُفّآن في

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٢١، والكفء: القَلْب، والعَرْجُ: الإبل الكثيرة، الجَهَام: السحاب الذي هَرَاق ماءه، وزَفَتْه: استَخَفَّتْه، والأَزْيَبُ: ريح الجنوب.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣٣،

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣٧.

(٤) وقد استعملها ساعدة مرة أخرى في قوله:

فَبَيْنَـا هُـمُ عِنْـدَ الْمَسَـدِّ شَـآهُمُ بِأَيَّـامِ نَـارٍ ضَوْءُهَـا غَيْـرُ غَافِـلِ

السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٨٣.

CamScanner

القوة وعزم القَلْب لطلَب المجدِ والثقةِ ببلاء النفس وغَنَائها، وقد كرر الجَمْع بينهما في وصف واحد مبتدئًا بقولهم و«كلاهما» أو «كلٌّ» حتى وصفِ خيليْهما وسلاحهما، قال أبو ذؤيب:

فَتَنَازَلَا، وَتَوَافَقَتْ خَيْلاهُمَا ... وَكِلَاهُمَا بَطَلُ اللِّقَاءِ مُخَدَّعُ
يَتَنَاهَبَانِ الْمَجْدَ كُلٌّ وَاثِقٌ ... بِبَلَائِهِ وَالْيَوْمُ يَوْمٌ أَشْنَعُ
وَكِلَاهُمَا مُتَوَشِّحٌ ذَا رَوْنَقٍ ... عَضْبًا إِذَا مَسَّ الْكَرِيهَةِ يَقْطَعُ
وَكِلَاهُمَا فِي كَفِّهِ يَزَنِيَّةٌ ... فِيهَا سِنَانٌ كَالْمَنَارَةِ أَصْلَعُ[1]

وهو بهذا يحذُو حَذْوَ أستاذِه في وصف الكتيبتين، حتى تنتهي القصة بأن كلًّا من الفارسين قَتَل الآخر في اللحظة نفسها:

فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا بِنَوَافِذٍ ... كَنَوَافِذِ الْعُبُطِ الَّتِي لَا تُرْقَعُ[2]

وليس هذا هو التخييلَ التمثيليَّ الوحيدَ بل هو الجزء الثالثُ من تخييل تمثيلي كبيرٍ مركبٍ من أجزاءٍ ثلاثة، تُكوِّن معًا جميعًا الشَوْطَ الثاني من القصيدة، وهو الشوط المبدوء في كل جزء منه بالأداة الأسلوبية المختصة بهذا الغرض، كقوله في مُفتتح الجزء التخييلي الأوَّل:

وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ ... جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ[3]

وجَوْنُ السَّرَاة أي: أَسْوَدُ الظهر، وهو حمار الوحش الذي له أربعةُ أُتُن، تُنْعِمُ عليه الحياة بالمرعى والماء، ويمضي الشاعر في وصف رفاهِهِم في أربعة أبيات، ثم يَجِفُّ الماءُ؛ فيداهمه خطرُ الموت:

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣٨.
(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٠.
(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١١.

CamScanner

حَتَّى إِذَا جَـزَرَتْ مِـيَـاهُ رُزُونِـهِ ... وَبِـأَيِّ حِيـنِ مُـلَاوَةٍ تَـتَـقَـطَّـعُ[1]

فيختار كلمة «جَزَرَتْ» لا «قَلَّتْ» أو «نَقَصَتْ» لما توحي به من الذبح والقتل والموت[2]، ويقول عنهم:

فَافْتَـنَّـهُـنَّ مِـنَ السَّـوَاءِ، وَمَـاؤُهُ ... بَـثْـرٌ، وَعَانَـدَهُ طَرِيـقٌ مَهْـيَـعُ[3]

وكأنه يضع بذلك عنوانًا للقصيدة يذكر به أن الجامع الأكبر هو الطريق المعبَّد الذي يعاند السائرين فيه، وهو بهذا ناظر لقول أستاذه ساعدَة:

فَافْتَـنَّـهَـا فِـي فَضَـاءِ الْأَرْضِ يَأْفِرُهَـا ... وَأَصْحَـرَتْ عَنْ قِفَافٍ ذَاتِ مُعْتَصَمِ[4]

ويقول أبو ذؤيب في أخرى عن حِمار الوحش يسوق أَتَانَه أيضًا:

فَافْتَـنَّ بَعْـدَ تَمَـامِ الظِّـمْءِ نَاجِيَـةً ... مِثْـلَ الْهِـرَاوَةِ ثِنْيًا بِكْرُهَـا أَبِدُ[5]

وعودة إلى قصة حمر الوحش في العينية نجد الكُربةَ تنفرجُ بالوصول إلى الماء والشُّربِ منه، ثم يأتي الصياد ليصيب بسهامه الفحلَ وأتانًا من الأربعة؛ لأن «الحيوان

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١٥.

(٢) فاد هذا للباحث من حديث مع أ.د/ عادل سليمان جمال بمنزل إمام العربية الراحل الأستاذ محمود محمد شاكر في ٢٠١٦، حين كان يشرح فكرة نقدية مقتضاها البحث عن الفارق بين ماذا يقول الشاعر وكيف قاله، وضرب المثال بهذه الكلمة، ويمكن أن تقرأ تحليله للقصيدة ولهذه الكلمة تحديدا في:
ـ عادل سليمان جمال: الوحدة العضوية في القصيدة العربية القديمة، بحث منشور في ضمن كتاب: دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين، القاهرة ١٩٨٢، ص٣٣٣. والبحث في: ٣١٣-٣٣٥.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١٦.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٣٠.

(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٩٥، أي: اشتق الحمار بعد تمام الظمء أي: الشرب من الماء، أتانا ناجية أي: سريعة، تشبه العصا في دقة شكلها، وهي ثِنْيٌ أي: وضعت بطنين، وبِكْرُها أي: صغيرها، أبد: توحش معها.

مقتولًا رمزُ الموت الذي لا يقهر»[1] كعادة انتهاء الحياة بعد أن ظنها الإنسان انفرجت وابتسمت.

ويتابع الجزء التخييلي التمثيلي الثاني بقوله أيضًا:

وَالدَّهْـرُ لَا يَبْقَـى عَلَـى حَدَثَانِـهِ   شَـبَبٌ أَفَزَّتْـهُ الْكِلَابُ مُـرَوَّعُ[2]

وهو فاعل الفعل «يبقى» هذه المرة هو الثور الوحشي الذي يواجه كلاب الصيد؛ فينتصر عليها، ثم يطارد فارًّها؛ فيريد صاحبُ الكلاب صَرْفَهُ عنها بسهم هدفُه التخويف؛ فيصيبُه السهم من حيث لم يحتسب هو ولا الصائد؛ فَيَخِرُّ صريعًا.

وأما تكرر استعمال الأداة الأسلوبية عن حدثان الدهر، فأخذ صورًا في الصياغة[3]، فقال في قصيدة أخرى ساعدةُ بنُ جُؤَيَّةَ:

هَـلِ اقْتَنَى حَدَثَـانُ الدَّهْرِ مِـنْ أَنَسٍ   كَانُـوا بِمَعْيَـطَ لَا وَخْـشٍ وَلَا قَـزَمِ

كَـيْـدًا وَجَمْـعًـا بِآنَـاسٍ كَـأَنَّـهُـمُ   أَفْنَادُ كَبْكَبَ ذَاتِ الشَّثِّ وَالْخَزَمِ[4]

أي: لو كان الموت يقتني أحدًا ويُبقي عليه لكان أبقى هؤلاء الوَخْش الأَنْذَال، حتى لو كانت لهم كتائب وجيوش كأنها أفناد جبل لأدركهم الموت، وكأنه يعبر عن قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[5]، وفي البيتين إلماح

(١) فضل بن عمار العماري: شعر هذيل في ضوء نمطية الشعر الجاهلي، بحث منشور في مجلة الفيصل الأدبية، المجلد ٨، العددان ١-٢، ١٤٣٣هـ، ص١١.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢٦.

(٣) أفرد بعض الباحثين لهذه الظاهرة فصلا كاملا في تتبع صور ذكر الهذليين لحدثان الدهر في بحث ماتع، راجع:

- محمد أحمد بريري: الأسلوبية والتقاليد الشعرية دراسة في شعر الهذليين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٥، ط١، ص٣٨-٨٦.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٣١.

(٥) سورة النساء، من الآية ٧٨، وانظر شرح البيتين في الديوان.

إلى أن القَدَر لا يَعني فكرةَ الشرِّ دائمًا[1]؛ فهذا موت يصيب الأراذل.

وكذلك في قصيدة ساعدةَ بنِ جؤيةَ التي كان يرثي بها ابنَه أبا سُفيان التي مطلعها:

أَلَا بَـاتَ مَـنْ حَوْلِـي نِيَامًـا وَرُقَّـدًا وَعَاوَدَنِـي حُزْنِـي الَّذِي يَتَجَـدَّدُ[2]

حينما كان ينتقل أيضًا للشَّوْطِ التخيـيلي التمثيلي منها قال في البيتِ الثامنَ عَشَرَ:

أَرَى الدَّهْـرَ لَا يَبْقَـى عَلَـى حَدَثَانِـهِ أَبُـودٌ بِأَطْـرَافِ الْمَنَاعَـةِ جَلْعَـدُ[3]

أي: لا يَبقى وَحْشٌ غليظٌ على حدوث الدهر، والمناعة: مكانٌ، وهو في أطرافه، وقد وصفه هذا الوعل بالخوف والجبن، وهذا ليس وصفًا عنده ملازمًا للوُعُول؛ فالمعنى إنساني وَرَاءَ وصف الوعل[4]، ولقد وصف وعلا غيره بالقوة والشدة وتحدي الموت[5]، بيد أنه سرعان ما قتل الصائدون هذا الوحش الجلعد في البيت الواحد والعشرين:

وَشَـفَّتْ مَـقَاطِيـعُ الـرُّمَـاةِ فُـؤَادَهُ إِذَا يَسْمَعُ الصَّوْتَ الْمُغَرِّدَ يَصْلِدُ[6]

كما يستعمل هذا الأسلوب لهذا الغرض من التخيـيل التمثيلي أبو خراش في رثاء إخوته الأشقاء بقصيدته التي مطلعها:

---

(١) فَطِنَ إلى هذه اللمحة من غير هذا الشاهد الشعري:
ـ محمد أحمد بريري: الأسلوبية والتقاليد الشعرية، ص٥٩.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٦٥، وما بعدها.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٧٠.

(٤) انظر في البعد الإنساني لوصف الحيوانات لا سيما الوعل الذي في هذه القصيدة:
ـ أحمد عبد الرحمن محمود سويلم: الحيوان في شعر الهذليين دراسة وصفية تحليلية، رسالة ماجستير بجامعة القدس، بإشراف: جمال غيظان، ٢٠١٢، ص١٢٢-١٢٥.

(٥) انظر في ذلك: ميساء قتلان: شعر ساعدة بن جؤية الهذلي دراسة وتحقيق، ص٥١.

(٦) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٧٠، ويصلِدُ: يضرب بيده الصخرة؛ فتسمع لها صوتا.

لَعَمْـرِي لَقَدْ رَاعَـتْ أُمَيْمَـةَ طَلْعَتِي وَإِنَّ ثَـوَائِـي عِنْـدَهَـا لَـقَـلِيـلُ[1]

فيقول في البيت السابع الذي هو أول شوط التخييل التمثيلي حاكيا عن حمار الوحش ضامر البطن الذي معه أتنه:

أَرَى الدَّهْـرَ لَا يَبْـقَـى عَلَـى حَدَثَانِهِ أَقَـبُّ تُـبَـارِيـهِ جَـدَائِـدُ حُـولُ[2]

حتى يقضي عليها أبو خراش في مختتم قصيدته قائلا:

فَأَهْـوَى لَهَا فِـي الْجَوِّ فَاخْتَـلَّ قَلْبَهَا صَيُـودٌ لِحَبَّـاتِ الْقُلُـوبِ قَتُـولُ[3]

وكما ظهر أن ساعدة وأبو خراش يستعملان هذا الأسلوب، فقد ورَّثَهُ ساعدةُ تلميذَه أبا ذؤيب من بعده، الذي يقفو أثره بدقة، حتى حين قال ساعدة بن جؤية في أسلوب قسَمٍ محذوف أداة النفي:

تَـاللهِ يَـبْقَـى عَلَـى الْأَيَّـامِ ذُو حِيَـدٍ أَدْفَى صَلُودٌ مِنَ الْأَوْعَالِ ذُو خَدَمِ[4]

قال أبو ذؤيب في مطلع قصيدة أخرى:

تَـاللهِ يَـبْقَـى عَلَـى الْأَيَّـامِ مُبْـتَـقِـلٌ جَـوْنُ السَّـرَاةِ رَبَـاعٍ سِـنُّهُ غَـرِدُ[5]

فساعدةُ إمام في الشعر من الطبقة العالية سَنَّ الطريق لأبي ذؤيب، كما ظهر في تطور براعة التخييل والتمثيل في شعره، ولا يقال فيه غامض المعاني إلا ممن لا دراية له بفن الشعراء، وفي هذا نجد الآمدي يصف ساعدة بن جُؤَيَّة بقوله: «شاعر محسن

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٨٩.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٩٠.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٩٥.

(٤) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٢٤، وذو حيد: أي حمار وحش ملتو الأقران، أدفى: أحدب، وصلود: أي يضرب برجله الصخرة، فتسمع لها صوتا، وذو خدم: الأعصم.

(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٥٦، المبتقل: حمار يأكل البقل، وجون السراة: أسود الظهر، ورباع: وصف لسنه، وغرد: يصدر صوتا.

جاهلي» لكن ليته كان أمسك عما ذم به شعره حين قال بعدها: «وشعره محشو بالغريب والمعاني الغامضة، وليس فيه من الْمُلَح ما يصلح للمذاكرة»[1] وللأسف ردد ذلك خلفه ابن حجر[2] وعبد القادر البغدادي[3]، وغيرهما[4].

وبعد هذا البيان لقيمة التخييل والتمثيل في الشوط الثاني في تلكم القصائد، ومكانه الركين العمود فيها جميعا هل بقي وجه يحترم لمن يخرج قائلا: «وإن عجبي من متأدبة هذا العصر، يغلون في مدح هذه القصيدة حتى إن بعضهم ليسميها سيمفونية أبي ذؤيب، وربما يسميها بعضهم سوناته أبي ذؤيب إعجابا بها، ولو وقف هذا الإعجاب على قسمها الحزين الباكي الذي في أولها لكان له وجه، ولكنهم يعممون إعجابهم فيشملون به القصيدة كلها»[5] ثم يحط على أبي ذؤيب وهو لا يحسن يفهم ظاهر النص غير الشعري فضلا عن الشعري؛ فلا يدري مَن الذي اعترض عليه أهو السكري أم الأصمعي؟ فينسب كلام هذا لذاك ولا يبالي[6]، ويعترض باعتراضات الأصمعي ولو أكمل القراءة لآخر الصفحة لوجد جواب الاعتراض وتفسير البيت[7]، لكنه الحمق لا

(١) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي: المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، تحقيق: ف. كرنكو، دار الجيل، بيروت ١٩٩١، ط١، ص١٠٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج٣، ص٢٠٣.

(٣) عبد القادر بن عمر البغدادي: خزانة الأدب، ج٣، ص٨٦.

(٤) ولو كان الأول محدثا لا شأن له بالشعر، والثاني نحويا لا يعرف إلا الشواهد، فهذا المعاصر كان ينبغي أن يكون له ولو نوع نظر، لكنه نقل وردد بل أقر وقرر، انظر:
إسماعيل النتشة: أشعار هذيل، ج٢، ص٢٥٩، ٢٦٠.

(٥) الكلام لعبد الله الطيب، نقلا عن: عادل سليمان جمال: الوحدة العضوية في القصيدة العربية القديمة، ص٣٣٥.

(٦) عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار جامعة الخرطوم، الخرطوم ١٩٩٢، ط٢، ج٤، القسم الأول، ص٣٤٦.

(٧) راجع كلا من:
- السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣٤.
=

ترياق له، ويمضي حتى يتفضل على أبي ذؤيب باستجادة أبياته، وهو يوهم قارئه أنه يلتذ به[1]، وهو لم يبلغ منه مراده.

ثَالِثًا: رِثَاءُ الْحَيِّ:

ومن المخالفات التي مصدرها بنية الخطاب نفسها أن كان الشاعر يقصد إلى رثاء الحي بدلا من رثاء الميت، كأنه بذلك ينزل الحي منزلة الميت، أو بالأحرى: ينزل الحياة منزلة الموت، وهو سلوك نفسي يائس يحاول طمس معالم الحياة إذا ما اعتصرته معاني الموت، واليأس إحدى الراحتين، والأخرى الموت، وكأن في اليأس من الموت بعض صفاته وآثاره، ولذلك كان والموتُ متماثلَيْن فيما يحل بالإنسان بهما من راحة.

وهذا الاتجاه إلى الموت ـ ولو في صور الحياة ـ من قتامة الرؤية التي تصاحب لحظة التوجع والجزع، بخلاف الاتجاه إلى الحياة الذي يبدأ مع السلو الذي طريقه التخييل التمثيلي، وفي المرتين فاتجاه البرنامج التداولي للكلام من الذات إلى العالم؛ لأنه اختيار من الشاعر في الإدراك ومن ثم في التعامل مع الخارج، فلو افترضنا وجود ما هو الواقع والأمر نفسه في العالم المخلوق، فإن هذا مهما كان ليس هو اختيار الشاعر، وكأن الاتجاهين المذكورين من تغليب معنى الموت على معنى الحياة في تجليات الواقع صبغةٌ ذاتية ـ إرادية أو غير إرادية ـ من الشاعر، ينجح في تقديمها ثم تصديرها لتحكم الأبعاد الإدراكية للمتلقين بدرجات متفاوتة من النجاح وعلى الباحث التداولي أن يكتشف كيف حصل ذلك؟ وبأي مدى تحقق؟ لا ما الذي حصل؟

= ـ عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج٤، القسم الأول، ص٣٤٥.

(١) عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج٤، القسم الأول، ص٤٨١، وأمثال هؤلاء من صنائع الأعاجم قد غرهم مدح أمثالهم، انظر تقريظ طه حسين في مقدمته لكتاب: عبد الله الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، الكويت ١٩٨٩-١٤٠٩، ط٣، ج١، ص٧-١٠، ورد المؤلف عليه: ص١١-١٢.

وهنا نجد نوعين من رثاء الأحياء أحدهما يمثل الصدق الفني الحقيقي، والآخر يمثل الصدق الفني لا الحقيقي[1]، الأول هو رثاء الشاعر لنفسه، والآخر رثاء لغيره.

أما الأول فمثاله قول أبي ذؤيب في عينيته:

فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ   وَإِخَالُ أَنِّي لَاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ[2]

وكأن اللحوق هنا أطلق وأريد به سرعته لا عينه، كأن يرى الموت غال أبناءه في الطريق إليه، أو أن ذهابهم أبقى له نصبا في العيش، هذا النصب هو الذي يقرب منيته.

أما أبو خراش فآثر أن يختم حياته برثاء نفسه أيضًا حينما لدغته حية؛ فقال وهو يعالج الموت:

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا غَالِبَاتٌ   عَلَى الْإِنْسَانِ تَطْلُعُ كُلَّ نَجْدِ

لَقَدْ أَهْلَكْتِ حَيَّةَ بَطْنِ أَنْفٍ   عَلَى الْأَصْحَابِ سَاقًا ذَاتَ فَقْدِ[3]

أي: يقسم أن المنايا تغلب الأحياء، تطلع إليه ولو كان في محلة مرتفعة، فيا أيتها الحية الذي في هذا المكان الذي هو بطن أنف، قد أهلكتِ وضيعت على الناس ساقًا

---

(1) وإن كانت عادة النقاد جرت بالدفاع عن الأخير دون الأول بإلحاقه بالأول، لكن علينا أن نراعي أنه دفاع محوط بظروف معرفية ثقافية مخصوصة، أهمها الاستهانة بالأدب عن طريق نسبة الكذب إليه، فيكون الجواب من النقاد بل هو صادق فنيا، ولو نحينا هذا الظرف التداولين واقتصرنا على عامل تداولي آخر هو أننا في الحلين نتكلم عن الشعراء فإن دراسة هذا الصدق لا تكون دفاعا أو هجوما بل تكون تبصرا واستكشافا لقدرات الشاعر واستفادة من كيفياته في التشكيل والتمثيل والتخييل.

(2) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٨.

(3) راجع في ذلك كلا من:

ـ السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٤٤، ١٢٤٥.

ـ الأصفهاني: الأغاني، ج٢١، ص٦٩.

CamScanner

أي رجلا له فَقْدٌ بالموت قبل ذلك، أي: فقد لإخوته، وبنو مرة هؤلاء عشرة كلهم دهاة وشعراء، ومنهم أبو خراش.

وعلى منوالهما ينسج أبو صخر إذ يطلب لنفسه الموت في رثائيته لابنه قائلا:

سَـأَلْتُ مَلِيكِـي إِذْ بَلَانِـي بِفَقْـدِهِ ... وَفَـاةً بِأَيْدِي الرُّومِ بَيْـنَ الْمَقَانِبِ[1]

ويأتي رثاء النفس فيها حين ينزل نفسه منزلة الشهيد الذي قتل، وفاضت روحه، متحدثا عما بعد الموت:

فَعُجِّلْـتُ رَيْحَـانَ الْجِنَـانِ وَعُجِّلُوا ... زَمَازِيـمَ فَـوَّارٍ مِـنَ النَّارِ شَـاهِبِ[2]

وكأنه قد صار يتنعم بالجنة وريحانها، وصار الرومان يقلبون في شهيق النار، في تناص مع الآية القرآنية: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾[3].

وأما رثاء الغير من الأحياء فيروي لنا أبو الفرج عن السكري أنه قال: «ونسختُ من كتاب أبي سعيد السّكّريّ، عن محمد بن حبيب، عن ابن الأعرابي وأبي عبيدة قالا: كان أبو صخر الهذليّ منقطعا إلى أبي خالد عبد العزيز بن عبد اللّه بن خالد بن أَسِيد، مدّاحا له، فقال له يوما: ارثني يا أبا صخر، وأنا حيٌّ، حتى أسمع كيف تقول، وأين مراثيك لي بعدي من مديحك إيَّاي في حياتي؟ فقال: أعيذك باللّه أيُّها الأمير من ذلك، بل يبقيك اللّه، ويقدّمني قبلك، فقال: ما من ذلك بدٌّ»[4] فرثاه، «فأضعف له عبد العزيز جائزته، ووصله، وأمر أولاده فرووا القصيدة».

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩٢٣.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩٢٣.

(٣) سورة الملك، الآية ٧.

(٤) الأصفهاني: الأغاني، ج٢١، ص١٤٦، وما بعدها. على الرغم من أن الشرح المطبوع المحقق للسكري ليس فيه هذه الزيادة في متنه؛ مما يفتح بابا للبحث عن نسخ أتم من نسخ ليدن وباريس وبطرسبرج ودار الكتب، راجع: ج١، ص٨-٩ من مقدمة المحقق.

CamScanner

أما الجائزة فعادة معروفة عند القوم، ولكن الأثر الأدبي لفعل الكلام هنا أن الأمير أمر أولاده برواياتها؛ لما فيها من تعلق به، ولما فيها من تكلف الصدق، المنبعث من عدم تكلف صدق المحبة، يقول مطلعها عند السكري:

عَفَا سَـرِفٌ مِنْ جُمْلَ فَالْمُرْتَمَى قَفْرُ ... فَشِـعْبٌ فَأَدْبَـارُ الثَّنِيَّـاتِ فَالْغَمْرُ(١)

وكأنها بُدِئَتْ في مجلس إنشادها الأول بالبيت التاسع عشر، الذي اعتنى الأصفهاني بذكره، ولم يقطع بأنه المطلع، بل قال عبارة واسعة لتحتمل أن الشاعر زاد المطلع بعد ذلك، قال الأصفهاني: «فرثاه بقصيدته التي يقول فيها:

أَبَا خَالِدٍ نَفْسِـي وَقَتْ نَفْسَكَ الرَّدَى ... وَكَانَ بِهَا مِـنْ قَبْلِ عَثْرَتِكَ الْعَثْرُ»(٢)

ويدل على رجحان هذا الاحتمال أن الشاعر في نهاية مقدمته الغزلية تخلص منها لغرضه بطريقة شديدة الاتساع أبعد ما تكون عن الحبك والسبك والتماسك الذي اعتاده إذا ما خرجت الشعر منه مخرجا واحدا؛ وذلك إذ قال في البيت الثامن عشر:

وَكُنْـتُ إِذَا مَا الطَّيْرُ جَاءَتْ مُشِـيحَةً ... أَقُولُ وَقَدْ جَاءَتْ بِمَا زَجَرَتْ وَحْرُ(٣)

كأننا نقف أمام تمهيدٍ لخرجة موشح قيل في القرن السابع الهجري مثلا.

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩٥٠، وما بعدها.

(٢) وهو في الديوان أيضا: ج٢، ص٩٥٢.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٩٥٢.

CamScanner

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

الْمُلَاءَمَةُ الصَّوْتِيَّةُ فِي الْخِطَابِ الْهُذَلِيِّ

كان الخليل بن أحمد المتوفى ١٧٠ هـ وسيبويه المتوفى ١٨٠ هـ وابن جني المتوفى ٣٩٢هـ قد تكلموا جميعًا عن (باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني) وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته[١]، وهو كلام في الوضع الشخصي لكثير من الكلمات مثل: «نَضَخَ» و«نَضَحَ»- كما هو أيضًا كلامٌ في الوضع النوعي لكثير من القواعد كالصيغة الصرفية في (الغَلَيَان والقَفَزَان والغَثَيَان) ودلالتها[٢]، كأنها مقابَلَة بتوالى حركات الصيغة الصرفية لتوالي حركات الأفعال. وهذا من شأن ما يسمى علمَ الوضع، وهذا الوضع هو: تعيين اللفظ للدلالة على معنى بنفسه[٣]، ولأن الوضع قبل المتكلم والسامع[٤] فإننا بحاجة إلى بحث عن تلك البنى اللفظية الموضوعة حين تستعمل في الخطاب، ولأن الشعر في اللغة العربية تحديدًا كان فاعلًا في بناء الأوضاع الشخصية والنوعية فيها لا محضَ مستعمِل لما استعمُل أيْ: بانٍ عليه، فإن البحث المرُومَ يحتاج فصلًا دقيقًا لما قيل في الوضع عمًّا قيل في الاستعمال.

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٧١هـ ١٩٥٢م، ج٢، ص١٥٩، وما بعدها.

(٢) انظر: سيبويه: الكتاب، ج٢، ص٢١٨.

(٣) شروح التلخيص، ج٤، ص٨، ٩، من كلام القزويني، وراجع شروح القوم عليه وحاشية الدسوقي بالأخص.

(٤) إذ القاعدة: الاستعمال من صفة المتكلم، والحمل من صفة السامع، والوضع قبلهما.

CamScanner

ومن حالات الاستعمال التي شغلت قدْرًا كبيرًا من الشعر الهذلي قولُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ رِبْعٍ الْجُرَبِيِّ الهذلي يصف معركة:

سَدُّوا عَلَى الْقَوْمِ فَاعْتَطُّوا أَوَائِلَهُمْ ... جَيْشَ الْحِمَارِ وَلَاقَوْا عَارِضًا بَرِدَا

فَالطَّعْنُ شَغْشَغَةٌ وَالضَّرْبُ هَيْقَعَةٌ ... ضَرْبَ الْمُعَوِّلِ تَحْتَ الدِّيمَةِ الْعَضَدَا(١)

وَلِلْقِسِيِّ أَزَامِيلٌ وَغَمْغَمَةٌ ... حِسَّ الْجَنُوبِ تَسُوقُ الْمَاءَ وَالْبَرَدَا

كَأَنَّهُمْ تَحْتَ صَيْفِيٍّ لَهُ نَحَمٌ ... مُصَرِّحٌ طَحَرَتْ أَسْنَاؤُهُ الْقَرَدَا(٢)

فإن صوت الطعن بالرمح حال نفاذه في جسد المطعون يشبه صوت القائل: شَغْ شَغْ، بهذا التتابع الذي ينتقل فيه المخرج الصوتي من شَجْرية الشين إلى حلقية الغين، كأنه يساوي في هذا دخول الرمح في الجسد بالدخول من جزء خارجي في أداة النطق إلى جزء داخلي فيها، وهو دخول مكرَّرٌ؛ ليَظْهَر المقصودُ به، كما ينتقل أيضًا فيها من همس الشين إلى جهر الغين، ومن فتحة قصيرة إلى سكون مرتين، إلى غير ذلك من التقابلات.

والحق أن التكلفَ كثيرٌ في تفسير الباحثين لأمثال هذه المواضع وبخاصة في تفسير القوافي وتناسبها مع أجواء القصائد، ولكن هذه الظاهرة الاستعمالية في بعض جوانبها تكون واضحة كقول عبد مناف هنا، وأحيانًا تختفي لتكون الدلالة بإحالة اللفظ على معنى وضعيٍّ مستدْعًى في سياق لا بنفسها، ولذا لا يتسع التحليل لأكثر من التذوق المتأني ثم ينكتم البيان في صدر الباحث، وهذا لا يعني عدمَ وجودِه(٣).

---

(١) هذا البيت والذي يليه نسبا إلى أبي كبير الهذلي أيضا، انظر: ج٣، ص١٧٤٣-١٧٤٤.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٧٤-٦٧٥.

(٣) تحدث في هذه المسألة عدد من الباحثين وحاولوا استكناهها على عزتها، ولا يراهم الباحث خروجوا بشيء، راجع إن شئتَ:

ـ جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدم لها: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة ٢٠٠٣، ج٢، ص٧٠٨-٧٣٤.

وفي باب الطِّعان وصفتِها بهذه الطريقة أيضًا يقول سَرِيعُ بن عِمْران الصاهلي الهذلي يعدد مناقبَ عمرًا ذا الكَلْب حين رثاه:

الطَّاعِـنُ الطَّعْنَـةَ النَّجْـلَاءَ يَتْبَعُهَـا مُثْعَنْجِرٌ مِنْ دِمَاءِ الْجَوْفِ أُثْعُوبُ[1]

فهو هنا ملتفت إلى زيادة عما نص عليه عبد مناف؛ إذ هو يرى أثر الطعنة بانبجاس الدم وانصبابِه خروجًا من جسد المطعون، وكلما كان هذا الانصباب شديدًا كثيرًا دَلَّ على أن الطعنة كانت نافذة قوية، وهو ما يُثبِتُ قوةَ طاعنها، وهو المراد، فكأنه إثبات للصفة بلازم اللازم، وهو أسلوب بديع لا شك ناجحٌ في تحقيق غايته.

وفي ذكر المعركة والحرب جانبٌ آخر، وهو إحسان البلاء بالفرِّ لا بالكرِّ وحده، فالرجل الكَيِّسُ المحنَّكُ هو من يعرف متى يُحجم كما يعرف متى يُقدم، وهنا نجد شاعرًا هذليًّا آخر يتناول هذا الجانب، حين يحاول ربيعةُ بن الجحدر اللحياني تبرئةً لساحته من شَيْنِ خِذلانِه لصاحبه عن طريق ذكر جهوده الفاشلة في إشغال الأعداء ومداراتهم في القتال، ليُثبِتَ أن الموقف كان أكبرَ منه، وأن أعداءَه كانوا أصعبَ قتالًا، يقول:

أَذُبُّـهُـمُ بِالسَّـيْـفِ ثُـمَّ أَبُـثُّـهَـا عَلَيْهِمْ كَمَا بَثَّ الْجَحِيمَ الْقَوَابِسُ

إِذَا قُلْـتُ قَـدْ كَعْكَعْتُهُـمْ يَرِدُونَنِـي كَمَـا تَرِدُ الْحَوْضَ النِّهَالُ الْخَوَامِسُ

فَنَهْنَهْـتُ عَنِّي الْقَوْمَ حَتَّـى تَدَارَكُوا وَإِنِّي مِـنَ الْعَيْشِ الْحُبَابِ لَيَائِسُ[2]

فحركة السيف هنا ليست للضرب والهيقعة، ولا يُلمَح فيه البرقُ ولا يُسمع منه الصليلُ، ولكنه ينوش به، ويحركه في الهواء متحايلًا على الموقف، طالبًا النجاةَ منه بالكعكعة، حتى استطاع أن يُنَهْنِهَ القوم عن نفسه.

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٨٠، والنجلاء: الواسعة، والمثعنجر: سائل ينصب، والأثعوب: سائل يتبع بعضه بعضا.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٤٤، القوابس: نصال كأنها الجمر، كعكعتهم: رددتهم، والنهال: العطاش، والحُباب: الحبيب.

CamScanner

وفي قَصْدِ معنى الترديد بدلالة البنية الصوتية مباشرةً لا بدلالة إحالة الأصوات على معان بربط معجمي مخصوص نجد أبا ذؤيب يصف الريحَ وفعلها في السحاب:

تُـكَـرْكِـرُهُ نَـجْـدِيَّـةٌ وَتَـمُـدُّهُ ... مُسَفْسِفَةٌ فَوْقَ التُّرَابِ مَعُوجُ(١)

وهذه الكركرة التي تحرك بها الريحُ السحابَ تعتمدُ على تَـكرارٍ في الراء كما تعتمد على تكرارِ الرَّاء، ويقوي هذا الفهمَ قولُه: تمدُّه، وكذا في فعل الكَنْس للصحراء الذي تقوم به الريحُ، الذي جعله أبو ذؤيب سَفْسَفَةً.

يستعمل أبو ذؤيب التكرار الصوتي كثيرًا، إما في داخل الكلمة وإما في الكلمات المختلفة، كما صنع في معرِض الخوف، قال:

فَشَـرِبْنَ ثُـمَّ سَـمِعْنَ حِسًّـا دُونَـهُ ... شَـرَفُ الْحِجَابِ وَقَرْعَ رَيْـبٍ يُقْرَعُ

وَنَمِيمَـةً مِـنْ قَـانِصٍ مُـتَـلَـبِّـبٍ ... فِـي كَفِّـهِ جَـشْءٌ أَجَـشُّ وَأَقْطَعُ(٢)

وهو سياق الخوف والخطر والرُّعب الذي وصف به حُمُرَ الوحْشِ، قبل أن يدركها الصائد، ويستعمل شكلًا نحويًّا مقلوبًا من المفعول المطلق، هذا الشكل هو عكسه في الصورة ومثله في فائدة التأكيد، كما يؤكد ذلك استعماله بالهمزات الثلاثة في وصف السهم، فهو جَشْءٌ أَجَشُّ أَقْطَعُ، وكذلك في معرِض الخوف يقول المتنخل:

غَـدَوْتُ إِلَـى زَيَازِيَـةٍ وَخَـوْفٍ ... وَأَخْشَـى أَنْ أُلَاقِيَ ذَا سِلَاطِ(٣)

وذو السِّلاط هو السيف المشحوذ المسنون الجاهز للقتل، وهو أداة تقذف الخوف في النفس، ولهذا ناسبه أن يصف المكان الذي غدا إليه بِزَيَازِيَةٍ، والزَّيَازِي:

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص١٣١، تكركره: تردده، مسفسفة: قريبة من الأرض تكنس وجهها، معوج: سهلة الْمَرِّ.

(٢) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٢٠-٢١.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١٢٧٤.

CamScanner

«وَاحِدَتُهُنَّ زِيزَاءَةٌ، وَهِيَ الأَرْضُ الغَلِيظَةُ»(1) فكان الغِلَظُ ماديًا ومعنويًا بصفير تلك الزاء المتكررة.

وقريب من الخوف يأتي معنى الانقباض الذي في قول الْمُعَطَّلِ الهذلي في مفتتح قصيدة له:

أَلَا أَصْبَحَتْ ظَمْيَاءُ قَدْ نَزَحَتْ لَهَا نَوًى خَيْتَعُورٌ طَرْحُهَا وَشَتَاتُهَا(2)

وقال السكري في شرح البيت: «خَيْتَعُورٌ: غَدَّارَةٌ رَوَّاغَةٌ، لَا تَثْبُتُ عَلَى وَجْهٍ، يُقَالُ: دَاهِيَةٌ خَيْتَعُورٌ، إِذَا كَانَتْ شَدِيدَةً فَجُوعًا» والوزن الصرفي وحده «فَيْتَعُول» وزن يفي بعض الوفاء بهذا الانقباض والرهبة في مصاحبة الضيق والحزن على فوات قرب المحبوبة ظمياء.

وفي رثاء أبي العيال لابن عمه عبدِ بنِ زُهْرَةَ الهذلي نجده ينزِّهُهُ عن سلسلة من الصفات كلها تَدُلُّ من ثلاث جهات، جهة بنفس الصوت، وجهة بوزن الكلمة الصرفي، وجهة بإحالته على معنى معجمي، يقول:

فَتًى مَا، غَادَرَ الْأَقْوَام، لَا نِكِسٌ، وَلَا جَنِبُ

وَلَا زُمَّيْلَةٌ رِعْدِيدَةٌ رَعِشٌ إِذَا رَكِبُوا

وَلَا كَهْكَاهَةٌ بَرَمٌ إِذَا مَا اشْتَدَّتِ الْحِقَبُ(3)

وهنا جعل أبو العيال «جَأْنَبَ» «جَنِبًا» وهو القصير، والقصد في نَفْيِ القِصَر الجسمي نَفْيُ التقصير في البلاء الذي يكون بالقِصَر الجسمي، وهذا الانتقال من «فَأْعَل»

---

(1) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٠١.

(2) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٣٤.

(3) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٤٢٣-٤٢٤، والنكس: المقلوب وهو تشبيه بالسهم، والجنب: القصير، الزميلة: الضعيف، والرعديدة: الجبان، والرعش: المضطرب من الجبن.

CamScanner

إلى «فَعَل» انتقال تطَلَّبَهُ الوزن والقافية لا بمعنى أن الضرورة حكمت أبا العيال الهذلي - معاذ الله - لكن بمعنى أن الشاعر مقتدِرٌ متصرِّفٌ[1]؛ لأنه هو الشاعر، ونطقه هو العربية، وهذه هي الحرية المهيمِنة التي تحرَّك بها الشاعر الهذلي بل العربي في تكوين الدلالة وتشكيلها، من غير تشغيبات الأصمعي الجاهلة التي حشا بها روايته للديوان[2].

وقال أبو سعيد في شرح البيت الثالث: «كَهْكَاهَةٌ: الَّذِي يَهَابُ كُلَّ شَيْءٍ، يُكَهْكِهُ إِذَا رَأَى الْحَرْبَ يَقُولُ: كَهْ كَهْ كَأَنَّهُ يَنْفُخُ ... أَبُو عَبْدِ اللهِ: كَهْكَاهَةٌ: هَيُوبٌ ... وَحَكَى أَبُو نَصْرٍ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ: كَهْكَاهَةٌ: يَفْتَحُ فَاهُ مِنَ الْجُبْنِ».

وفي مقام آخر قال الأعلم بن مرة الطابخي الهذلي هاجيًا مُتَوَعِّدَه:

فَشَايِعْ وَسْطَ ذَوْدِكَ مُسْتَقِنًّا لِتُحْسَبَ سَيِّدًا ضَبُعًا تَنُولُ

عَشَنْزَرَةٌ جَوَاعِرُهَا ثَمَانٍ فُوَيْقَ زِمَاعِهَا خَدَمٌ حُجُولُ[3]

وكلمة «عَشَنْزَرَة» وفي رواية أخرى: «عَشَنْبَرَة» وهي أيضًا الغليظة، وكأن الغِلَظ المقصود من اللفظة بهذا الاستعمال قد أثر في السامع فور سماعه ولو لم يَدْرِ ما معنى

---

(١) ومثل ذلك كثيرة منها: الرد في الجر على المجاور ولا أقول الجر بالمجاورة معاذ الله، كما في: ج١، ص٤٠٨. واستغرب السكري شيئا من إعراب الشعر في مثله لو صحت نسبة العبارة للسكري في: ج٣، ص١١٢٩. وكعجل ألف الوصل همزة قطع في: ج٢، ص٥٠٩. وإسكان ياء الضمير «فهي» في درج الكلام بلا وقف في: ج٢، ص٨٩٣، بل يصل إلى حذف ياء الذي بكل سلاسة في: ج٢، ص٦٥١. وكل ذلك لم يورده المحقق في فهارسه اللغوية في: ج٣، ص١٦٩٠-١٦٩٢.

(٢) وبالاستقراء فإن جميع المواضع التي اعترض فيها الأصمعي على الهذليين - وأخص أبا ذؤيب - فإن الإصمعي كان مخطئا كل الخطإ، وقد رد عليه السكري بإيراد رأي مَن قَدَّم تفسيرًا للبيت على الوجه الصحيح مثلا في: ج١، ٣٣-٣٤، وصُنْع المحقق بكل أَدَبٍ مثل ما صنعه السكري في: ج١، ص٨٨، الهامش١.

(٣) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج١، ص٣٢٢، يقول له: ابق وسط إبلك تدعوها مقيما فيها لكي تحسب عند القوم سيدا، يا ضَبُعًا تحرِّكُ رأسها وهي غليظة مُسِنَّة متخرقة، على قوائمها خطوط.

CamScanner

الكلمة، لا أن الهذليين كانوا يشحنون كلامهم بالغريب، وكذلك في وصف الضَّبُع قال ساعِدَةُ بن جُؤَيَّة الهذلي:

تَبِيتُ اللَّيْلَ لَا يَخْفَى عَلَيْهَا ... حِمَارٌ حَيْثُ جُرَّ وَلَا قَتِيلُ

كَمَشْيِ الْأَقْبَلِ السَّارِي، عَلَيْهَا ... عِفَاءٌ كَالْعَبَاءَةِ عَفْشَلِيلُ[1]

وهو يقول عنها هنا: تمشي كمشي الرجل الأَقْبَل أي الذي في عَيْنَيْه قَبَلٌ، وهو شيء يشبه الْحَوَل، وهو يمشي ليلا؛ وهذا الوصف كناية عن صفة، هي شدة تلفتها في أثناء مشيها، ويعني أيضًا أنها بهذا لا يخفى عليها شيء من كثرة التلفت في كل الاتجاهات، وبعد هذا الوصف للمشي جاء وصف شكلها الظاهري بوصف وَبَرِهَا كالعباءة عليها، والعَفْشَلِيل الجافي الغليظ، وجاء في بعض نسخ الديوان «عَنْشَلِيل»[2].

---

(١) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٣، ص١١٤٧.

(٢) ذكر الزَّبِيدِي في التاج في مادة (ع.ف.ش.ل) أن في بعض نسخ الديوان عنشليل بالنون، ولم يرد ذلك في شرح السكري ولا في غيره فيما أعلم، وهذا قد يخفف من مشكلة إيجاد وزنها الصرفي؛ لأن النون من حروف الزيادة بخلاف الفاء.

الْـخَـاتِـمَـةُ

كان تحليل الخطاب الشعري الهذلي تداوليًّا ممارسة ممكنة على الرغم من أن تصميم المنهج لم يكن يعنى بالخطاب الأدبي ابتداء، وفي هذا تطوير للتجريد العام للتفكير التداولي المعاصر، كما هو إضافة للموروث البلاغي والأصولي العربيين في بُعد خطير من أبعاد المعنى لم يكن يحتل فيه مكانًا مستقلا.

كما ظهرت أفكار جديدة من تلاقي الجهاز المفهومي التداولي ـ بعيدًا عن أخلاط المترجمين ـ مع البنية النظرية البلاغية المنطقية العربية، حين أمكن التفريق على سبيل المثال بين الأفعال الكلامية الظاهرة والمضمرة في الخطاب الشعري الهذلي.

كما ظهرت فائدة توسيع مفهوم الاستلزام غير الحواري لمفهوم الاستلزام الاحتباكي، وسائر أنواع الانزياحات السيميائية المتولدة من الإلحاد عن المبادئ التعاونية الافتراضية، كما كان للمعلومات الوافرة عن الحياة الهذلية وحياة المتأثرين بالخطاب الهذلي فائدة جليلة في إضاءة جوانب الحالة الشعرية عند المنشد والمتمثل والمتلقي.

وقد أمكن إرجاع جانب من جوانب سلطة النص الرثائي تحديدًا إلى قدرة فذة على (التخييل مع التمثيل) تحقق مقصدية مخصوصة، شرطها الشعر، في ضوء فعل كلامي نافذ لحجاب الزمان ومُتعالٍ على فروق الاختلاف، جامع للذوق الجمعي العربي للنقاد والشعراء بل عامة الشعب المكون للأمة العربية الإسلامية.

CamScanner

الْمَصَادِرُ وَالْمَرَاجِعُ

١ـ القرآن الكريم.

الْمَصْدَرُ الرَّئِيسُ

٢ـ شرح أشعار الهذليين، أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ومراجعة: محمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة ١٩٦٥، ط١.

الْمَصَادِرُ الْعَرَبِيَّةُ

٣ـ الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن سيد الدين علي الآمدي، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت.

٤ـ أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٢-١٩٢٣.

٥ـ أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بلا تاريخ والمقدمة ممهورة بعام ١٩٩١.

٦ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، شيخ الإسلام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، دار الفكر، دمشق، بدون تاريخ.

٧ـ الأشباه والنظائر في النحو، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: أحمد مختار الشريف، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٧.

٨ـ الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.

CamScanner

٩- **إصلاح المنطق**، أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن السِّكِّيت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٩، ط٤.
١٠- **الأغاني**، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٥٢، ط٢.
١١- **الاقتراح في أصول النحو وجدله**، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق وشرح: محمود فجال، دار القلم، دمشق ١٩٨٩، ط١.
١٢- **الأمالي**، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٢، ط٢.
١٣- **أمالي ابن الحاجب**، أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب، تحقيق: فخر صالح سليمان، دار عمار، الأردن، دار الجيل، بيروت ١٩٨٩.
١٤- **إيضاح المبهم من معاني السلم في المنطق**، أحمد الدمنهوري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٨٤،
١٥- **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الرياض١٩٩٧، ط١.
١٦- **البديع في البديع**، أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله العباسي، دار الجيل، بيروت ١٩٩٠، ط١.
١٧- **تاج العروس من جواهر القاموس**، السيد محمد أبو الفيض الملقب بمرتضى بن محمد الزَّبِيدِي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٠، ط١.
١٨- **تلخيص المفتاح مع بعض من شروحه وحواشيه**، الخطيب جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، دار إحياء الكتب العربية، عيسى مصطفى الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ.
١٩- **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٤، ط٢.
٢٠- **حاشية أبي النجا على شرح خالد الأزهري على متن الآجرومية**، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٤٣هـ.

٢١ـ حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، حسن بن محمد العطار، دار الكتب العلمية.
٢٢ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٧، ط٤.
٢٣ـ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٧١هـ، ١٩٥٢م.
٢٤ـ الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية مع بعض من شروحها وحواشيها، نجم الدين أبو الحسن علي بن عمر القزويني وغيره، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٠٥، ط١.
٢٥ـ دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، بلا تاريخ والمقدمة ممهورة بعام ١٩٨٤.
٢٦ـ ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة،
٢٧ـ ديوان النابغة الذبيان بتمامه صنعةُ ابن السِّكِّيت، تحقيق: شكري فيصل، دار الفكر، بلا تاريخ ولا وطن، والمقدمة ممهور بإمضاء: دمشق.
٢٨ـ الذَّخِيرَةُ فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ، أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ بَسَّامٍ الشَّنْتَرِينِيُّ، تحقيق: إحسان عباس، بدار الثقافة، بيروت ١٤١٧-١٩٩٧، ط١.
٢٩ـ سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٦.
٣٠ـ شرح ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بابن عقيل، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة ٢٠٠٥.
٣١ـ شرح التلخيص، أكمل الدين محمد بن محمد البَابَرْتي، تحقيق: محمد مصطفى رمضان صوفيه، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس بليبيا ١٩٨٣، ط١.
٣٢ـ شرح جمع الجوامع للتاج السبكي بحاشية البَنَّاني، شمس الدين محمد بن أحمد الْمَحَلِّيُّ، دار الفكر، القاهرة، بلا تاريخ نشر.

CamScanner

٣٣ـ شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الإستراباذي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ومعه غيره، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

٣٤ـ شرح الكوكب المنير، المسمى بمختصر التحرير أو المختبر المبتكر شرح المختصر في أصول الفقه، تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد الفُتوحي المعروف بابن النجار، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العُبَيْكان، الرياض ٢٠٠٩.

٣٥ـ شرح المفصل للزمخشري، يعيش بن علي بن يعيش، تقديم: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠١، ط١.

٣٦ـ الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَرِي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة.

٣٧ـ الصاحبي، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت ١٩٦٣.

٣٨ـ صحيح البخاري، المسمى: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة المطبعة السلفية، وقد تعاون عليها: محب الدين الخطيب، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وقصي محب الدين الخطيب، القاهرة ١٤٠٠هـ.

٣٩ـ صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، نشره: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٩١، ط١.

٤٠ـ طبقات الشعراء، أبو العباس عبد الله بن محمد بن المعتز العباسي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ط٣.

٤١ـ طبقات فحول الشعراء، أبو عبد الله محمد بن سَلّام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

٤٢ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي العلوي، مطبعة المقتطف، القاهرة ١٩١٤.

٤٣ـ **العقد الفريد**، أحمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣، ط١.

٤٤ـ **العققة والبررة**، أبو عبيدة معمر بن المثنى، منشور ضمن: نوادر المخطوطات، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت ١٩٩١، ط١.

٤٥ـ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ١٩٨١، ط٥.

٤٦ـ **الفاضل**، أبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٤٢١هـ ط٣.

٤٧ـ **فحولة الشعراء**، أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق المستشرق: ش.توري، تقديم: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨٠، ط١.

٤٨ـ **قواعد الشعر**، أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، تحقيق: رمضان عبد التواب، الخانجي، القاهرة ١٩٩٥، ط٢.

٤٩ـ **الكامل في التاريخ**، أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧، ط١.

٥٠ـ **الكامل في اللغة والأدب**، أبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٧.

٥١ـ **كتاب الصناعتين**، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي ١٣٧١هـ.

٥٢ـ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، أبو القاسم محمود جار الله بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧هـ، ط٣.

٥٣ـ **لسان العرب**، محمد بن منظور الأنصاري، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١، ط١.

٥٤ـ **المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم**، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، تحقيق: ف. كرنكو، دار الجيل، بيروت ١٩٩١، ط١.

٥٥ـ **المتواري على تراجم أبواب البخاري**، ناصر الدين أحمد بن محمد السَّكَنْدَرِي المعروف بابن المنيِّر، تحقيق: صلاح الدين مقبول أحمد، مكتبة المعلا، الكويت.

CamScanner

٥٦ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح نصر الله الملقب بضياء الدين بن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانه، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، بلا تاريخ نشر.
٥٧ـ مجالس ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، شرح وتحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ، ومقدمة اللجنة بدار المعارف ممهورة بإمضاء ثلة غير عبد السلام هارون، بتاريخ ١٩٨٤، ط٢.
٥٨ـ مختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، المعروف باسم مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه مع بعض شروحه وحواشيه، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٧٣.
٥٩ـ المدخل إلى السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت.
٦٠ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت ٢٠٠١.
٦١ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن أحمد العباسي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٦٧هـ-١٩٤٧م.
٦٢ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٣.
٦٣ـ معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، أبو عبد الله ياقوت شهاب الدين الرومي الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣، ط١.
٦٤ـ معجم البُلدان، أَبُو عَبْدِ اللهِ شِهَابُ الدِّينِ يَاقُوتُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْحَمَوِيُّ، دار صادر، بيروت ١٣٩٧-١٩٧٧.
٦٥ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق ١٩٨٥، ط٦.
٦٦ـ مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكي، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، تصحيح:

محمد كامل بن محمد الأسيوطي الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.

٦٧- **المفضليات**، المفضل بن محمد بن يعلي الضبي الكوفي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون وأحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م، ط٦.

٦٨- **مقدمة ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد بن خَلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر، القاهرة ٢٠١٤، ط٧.

٦٩- **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، أبو حامد محمد الغزالي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة القرآن، القاهرة، بلا تاريخ نشر، والمقدمة ممضاة بتاريخ ١٩٨٤، ورقم الإيداع يدل على عام ١٩٨٥.

٧٠- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، ومراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢، ط١.

٧١- **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٤، ط١.

٧٢- **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، أبو عبيد الله بن محمد المرزباني، تحقيق: محمد علي البجاوي، نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٥.

٧٣- **نهاية السُّول في شرح منهاج الوصول**، جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي، بحاشية سلم الوصول للشيخ محمد بخيت المطيعي، عالم الكتب.

٧٤- **هَدْيُ السَّاري مقدمة فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أبو الفضل أحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، وأشرف على طبعه: قصي محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، بلا تاريخ نشر.

٧٥- **همع الهوامع**، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، القاهرة، بدون تاريخ.

٧٦- **وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ وَأَنْبَاءُ أَبْنَاءُ الزَّمَانِ**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد المعروف بابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٩٠.

CamScanner

المراجع العربية

٧٧- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٢.

٧٨- أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر، الخانجي، القاهرة ١٣٨٥.

٧٩- الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، علي عزت، شركة أبو الهول، القاهرة ١٩٩٦، ط١.

٨٠ - أثر السياسة في اللغة - العربية نموذجًا، مقبل بن علي الدعدي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت ٢٠١٦، ط١.

٨١- الاحتباك في القرآن الكريم رؤية بلاغية، أحمد فتحي رمضان وعدنان عبد السلام أسعد، بحث منشور في: مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد٤، العدد٢، ص٤٥-٤٦،

٨٢- أدبية النص، صلاح رزق، محاولة لتأسيس منهج نقدي عربي، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٩، ط١.

٨٣ - الاستلزام الحواري في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، العياشي أدراوي، دار الأمان بالرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة ٢٠١١، ط١.

٨٤ - الاستلزامات الحوارية للأساليب الخبرية في رواية الدراويش يعودون إلى المنفى لإبراهيم الدرغوثي، عبد الرحمن تبرماسين، دلال وشن، بحث منشور على الإنترنت: www.alsdaqa.com.

٨٥ - الأسلوبية والتقاليد الشعرية في شعر الهذليين، محمد أحمد بريري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٥، ط١.

٨٦- الأسلوبية والتقاليد الشعرية دراسة في شعر الهذليين، محمد أحمد بريري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٥، ط١.

٨٧- اشتيار العسل عند الشعراء الهذليين قراءة في سياقاته ودلالاته الشعرية، عالي بن سرحان

CamScanner

القرشي، بحث منشور في: مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٨، ع٣٦، ١٤٢٧هـ.
٨٨ـ أشعار هذيل وأثرها في محيط الأدب العربي، إسماعيل داود محمد النتشة، دار البشير، مؤسسة الرسالة، وأصلها رسالة دكتوراه ١٩٧٦.
٨٩ـ الأعلام، خير الدين بن محمود الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢.
٩٠ـ البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسكاكي، أم الخير سلفاوي، رسالة ماجستير بقسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب واللغات، بجامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر ٢٠٠٩.
٩١ـ بغية الإيضاح في تلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٩، ط١٠.
٩٢ـ بنائية اللغة الشعرية عند الهذليين، محمد خليل الخلايلة، عالم الكتب الجديد، إربد الأردن ٢٠٠٤، ط١.
٩٣ـ بين تداولية الأفعال الكلامية والحجاج مقاربة مفاهيمية، حمدي منصور، بحث في مخبر اللسانيات واللغة العربية، بجامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر، العدد١، ديسمبر ٢٠١٣.
٩٤ـ تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث، نَجِيب مُحَمَّد الْبَهْبِيتِي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠م، ط١.
٩٥ـ تجديد علم المنطق في شرح الْخَبِيصِي على التهذيب، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة ١٩٦٩.
٩٦ـ التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق، دار التنوير، القاهرة ١٩٩٣، ط١.
٩٧ـ التداولية، جورج يول، ترجمة: قُصَي مهدي العَتَّابي، الدار العربية للعوم ناشرون، دار الأمان، بيروت، والرباط ٢٠١٠، ط١.
٩٨ـ التداولية الأدبية دراسة نقدية، أحمد عدنان حمدي، بحث منشور في مجلة: التداولية في البحث اللغوي والنقدي.

CamScanner

٩٩- التداولية امتداد شرعي للسيميائية، سحالية عبد الحكيم، بحث منشور في: الملتقى الدولي الخامس السيمياء والنص الأدبي.
١٠٠- تداولية الحدث الكلامي شعر أبي نواس أنموذجًا، حسين عمران محمد، بحث مستل من أطروحة دكتوراه، مجلة ديالي، العدد٦٧، ٢٠١٥.
١٠١- تداولية الخطاب الشعري- ديوان أبي فراس الحمداني أنموذجا، عمار لعويجي، رسالة ماجستير بقسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر ٢٠١٢.
١٠٢- التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٥، ط١.
١٠٣- التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية ١٩٩٧، ط١.
١٠٤- التداولية وصلتها باللسانيات البنيوية والسيميائية، سامي شهاب أحمد، بحث منشور في مجلة: التداولية في البحث اللغوي والنقدي، مؤسسة السياب، لندن ٢٠١٢، ط١.
١٠٥- التداولية والبلاغة العربية، باديس لهويمل، بحث بمجلة مخبر اللسانيات واللغة العربية، بجامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر ٢٠١١، العدد٧.
١٠٦- التداولية اليوم علم جديد في التواصل، جاك موشلار وآن ريبول، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ومراجعة: لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٣، ط١.
١٠٧- تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب نموذجًا، رحيمة شيتر، رسالة دكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر ٢٠٠٩.
١٠٨- التداوليات وتحليل الخطاب، جميل حمداوي، شبكة الألوكة، على الإنترنت، وقد نشر في مواقع عديدة بعنوان: المقاربة التداولية في الأدب والنقد، ٢٠١٢.
١٠٩- تعدد الرواية في الشعر الجاهلي ديوان الهذليين نموذجا، أيمن إسماعيل بكر، كتاب منشور على شبكة الإنترنت، ٢٠٠٤.

١١٠ـ جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ـ العصر الأموي، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، بلا تاريخ نشر، لكن المقدمة ممهورة بإمضاء عام ١٩٣٧.
١١١ـ جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدم لها: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة ٢٠٠٣.
١١٢ـ الحوار في شعر الهذليين دراسة وصفية تحليلية، صالح بن أحمد السهيمي، رسالة ماجستير في الأدب بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، بإشراف: عبد الله بن محمد العضيبي، ٢٠٠٩.
١١٣ـ الحيوان في شعر الهذليين دراسة وصفية تحليلية، أحمد عبد الرحمن محمود سويلم، رسالة ماجستير بجامعة القدس، بإشراف: جمال غيظان، ٢٠١٢.
١١٤ـ دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٠، ط٢.
١١٥ـ ديوان حافظ إبراهيم، طبعة دار الكتاب.
١١٦ـ رسالتان في نشأة اللغة والمجاز، رضا زيدان، عالم الأدب، القاهرة ٢٠١٦.
١١٧ـ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ـ المتنبي، محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة ١٩٨٧-١٤٠٧.
١١٨ـ السياق وأثره في المعنى دراسة أسلوبية، المهدي إبراهيم الغويل، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي بليبيا ٢٠١١، ط١.
١١٩ـ السيمياء والتأويل، روبرت شولز، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت ١٩٩٤، ط١.
١٢٠ـ السيميائيات أو نظرية العلامات، جِيرَارْ دُولُودَالْ وجُووِيلْ رِيطُورِي، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار، اللاذقية بسورية ٢٠٠٤، ط١.
١٢١ـ السيميائية أصولها وقواعدها، ميشال آريفيه وجان كلود جيرو ولوي بانييه وجوزيف كورتيس، ترجمة: رشيد بن مالك، مراجعة وتقديم: عز الدين المناصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٢، ط١.
١٢٢ـ الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ج١.

١٢٣ـ شعر ساعدة بن جؤية الهذلي دراسة وتحقيق، ميساء قتلان، رسالة ماجستير بجامعة دمشق، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، بقسم اللغة العربية، بإشراف: حسين جمعة، دمشق ٢٠٠٣.

١٢٤ـ شعر هذيل في ضوء نمطية الشعر الجاهلي، فضل بن عمار العماري، بحث منشور في مجلة: الفيصل الأدبية، المجلد ٨، العددان ١-٢.

١٢٥ـ شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، أحمد كمال زكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، صادر عن: المكتبة العربية التي تصدرها وزارة الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة من المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ١٩٦٩.

١٢٦ـ الصورة البيانية في شعر الهذليين دراسة وتحليل ومقارنة، محمد الحسن علي الأمين، رسالة دكتوراه في البلاغة في كلية اللغة العربية، بجامعة أم القرى، بإشراف: عبد الفتاح لاشين، ١٤١٠هـ.

١٢٧ـ عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، عبد الحق بلعابد، تقديم: سعيد يقطين، الدار العربية للعلوم ناشرون، ببيروت ٢٠٠٨، ومنشورات الاختلاف، بالجزائر العاصمة، ط١.

١٢٨ـ عتبات النص الأدبي (بحث نظري) مجلة علامات، حميد لحمداني، ج٤٦، م١٢، شوال ١٤٢٣هـ ديسمبر ٢٠٠٢م.

١٢٩ـ العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة التأسيس والتجديد، بغورة الزاوي، بمحث بمجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت مارس ٢٠٠٧، العدد ٣، المجلد ٣٥.

١٣٠ـ علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، بيروت ٢٠٠٦.

١٣١ـ علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد ١٩٨٥، ط٣.

١٣٢ـ عن جدوى دراسة الشعر بالوقوف على إجراءات التداولية، عمر بالخير، مداخلة بملتقى

CamScanner

علم النص-تداولية الخطاب الشعري، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ٢٥/ ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٨.

١٣٣- عندما نتواصل نغير، عبد السلام عشير، مقاربة تداولية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٦، ط١.

١٣٤- فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين، جمال حمود، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر العاصمة، بلا تاريخ، ط١.

١٣٥- الفعل الكلامي معنًى للجملة - حول الصيغة الأساسية البراجماتية للغة الطبيعية، بِيتْ لُوِيسْ مُولَرْ، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ٢٠١٤، ط١.

١٣٦- في البراجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي، علي محمود حِجِّي الصَّرَّاف، مكتبة الآداب، القاهرة ١٤٣١-٢٠١٠، ط١.

١٣٧- في سيمياء الشعر القديم، محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٩٨٩، ط١.

١٣٨- القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلر وآن ريبول، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف: عز الدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس ٢٠١٠، ط١.

١٣٩- قطوف من ثمار الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام، عبد السلام أبو النجا سرحان، دار القومية العربية، القاهرة ١٩٧٢، ط٢.

١٤٠- اللغة المقدسة وقدسية اللغة، علي جمعة محمد، مقالة بصحيفة الأهرام، نشرت بتاريخ ١١/ ٩/ ٢٠٠٤، السنة ١٢٧، العدد ٤٣٠١٣.

١٤١- لغة هذيل، عبد الجواد محمد الطيب، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة بكلية الآداب بقسم اللغة العربية، بإشراف: خليل يحيى نامي، بلا تاريخ.

١٤٢- اللغة والفعل الكلامي والاتصال - مواقف خاصة بالنظرية اللغوية في القرن العشرين، زِيبِيله كِرِيمَرْ، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ٢٠١١، ط١.

١٤٣- مبادئ في علم الأدلة، رولان بارت، تعريب محمد البكري، دار الحوار، اللاذقية بسورية ١٩٨٧، ط٢.

١٤٤ـ محاضرات في السيميولوجيا، محمد السرغيني، دار الثقافة، الدرا البيضاء ١٩٨٧، ط١.
١٤٥ـ مدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلالي دلاش، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر ١٩٩٢، ط١.
١٤٦ـ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، دار جامعة الخرطوم، الخرطوم ١٩٩٢، ط٢.
١٤٧ـ مشهد النحل في شعر الهذليين، جريدي سليم المنصوري، بحث منشور في: مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، القاهرة ٢٠٠٣.
١٤٨ـ المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة ٢٠٠٨، ط١.
١٤٩ـ المصطلح الأصولي ومشكلة المفاهيم، علي جمعة محمد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ١٩٩٦.
١٥٠ـ المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، نُعْمَان بُوقُرَّة، عالم الكتب الحديث، وجدارا للكتاب العالمي، عَمَّان، الأردن ٢٠٠٩، ط١.
١٥١ـ المقاربة التداولية المصطلح والمنهج، هاجر مدقن، بحث بالملتقى الدولي الأول في المصطلح النقدي، بجامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر ٢٠٠٩.
١٥٢ـ المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينيكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط ١٩٨٦.
١٥٣ـ منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية العربية مقاربة تداولية، معاذ بن سليمان الدخيل، نادي القصيم الأدبي، دار محمد علي للنشر، دار التنوير، بيروت والقاهرة ٢٠١٤، ط١.
١٥٤ـ النزعة القصصية في شعر الهذليين، أسماء عبد المطلوب نوري السيد، رسالة ماجستير في قسم الأدب بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، بإشراف: حبيب حنش الزهراني، ١٤٢٤هـ.
١٥٥ـ النص الواصف شرح أشعار الهذليين أنموذجا، عفاف طريلي، رسالة ماجستير بقسم الأدب العربي بكلية الآداب واللغات بجامعة الحاج لخضر باتنة، بإشراف: عبد الله العشي، الجزائر ٢٠١١.

CamScanner

١٥٦ـ النص والسياق ـ استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قينيني، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ٢٠٠٠، ط١.

١٥٧ـ نظرية أفعال الكلام العامة ـ كيف ننجز الأشياء بالكلام، أوستن، ترجمة: عبد القادر قينيني، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ١٩٩١.

١٥٨ـ النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، محمد طروس، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٥، ط١.

١٥٩ـ الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي، نصرت عبد الرحمن، دار الفكر، عما الأردن ١٩٨٥، ط١.

١٦٠ـ الوحدة العضوية في القصيدة العربية القديمة، عادل سليمان جمال، بحث منشور في ضمن كتاب: دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين، القاهرة ١٩٨٢.

١٦١ـ الوظائف التداولية في اللغة العربية، أحمد المتوكل، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، المغرب ١٩٨٥، ط١.

الْمَرَاجِعُ الْأَجْنَبِيَّةُ

162- George Yule (1996) Pragmatics, Oxford University Press.

163- J. L. Austen (1962) How to do things with words, Oxford University Press.

164- Laurence R. Horn and Gregory Ward (2006) The Handbook of Pragmatics, Blackwell.

165- Paul Grice (1991) Studies in the Ways of Words, Harvard University Press.

166- Stephen C. Levinson (1983) Pragmatics.

CamScanner

مُلَخَّصُ الدِّرَاسَةِ

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله؛ أما بعد، فهذه رسالة بعنوان: سلطة الخطاب الشعري الهذلي - دراسة تداولية..

أما كونها دراسةً في السلطة فِلأَنَّ كاتبها رجلٌ يعيش في القرن الخامسَ عشرَ الهجريِّ، وهو قرنٌ من أَحْفَلِ القرون بالسُّلطة، وأحفَزِها للكلام على أنواع السلطة، وأَثَرِ السلطة، وجميع ما صَاقَبَها، ولا بُدَّ أن ينعكس هذا على قراءة الباحث في تراث أجداده وآبائه، ومن هنا جاءت العنايةُ بسلطة الخطاب؛ لأنه تأثير أعمقُ بالعقل والروح في العقل والروح، فهو قَهْرٌ يَرْضَى به المقهور، ويحرِصُ عليه، ويبقى بعد زوال القاهر، بخلاف قهر الأبدان والرقاب.

وإن كان الكلام يدور بين الشعر والنثر، فالشعر أعملُ الصنفين وأنفذهما لغَرَضِه وأضربهما في جوانب الروح، فإذا كانت الحضارة العربية الإسلامية قامت على الشعر؛ لأنه لا يقارن كثرةً ما ورد إلينا من شعر القرون الأولى بما ورد إلينا من نثرها، وهذا يدل على قوة أثره وبقائه على وجه الزمان عصورًا بعد رحيل قائليه.

فإذا استقر الاختيار على الشعر، عمودِ العربية الأسمق، فأيُّ شعر أعظم أثرا في سائر الشعر سوى شعرِ السادة الجاهليين؟! وما بقي على مَهْيَعِه اللاحبِ في صدر الإسلام؟! فهو كأصل الشجرة الطيبة التي فروعها في سماء الأدب العربي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ثم جاء السؤال لماذا بنو هذيل؟ والجواب بأنه وإن تولَّى كِبَرَ الشعر كمًّا وكيفًا عددٌ من قبائل الجاهلية كتميم وقيس وهذيل، فإن هذيلًا هي الوحيدة التي بلغ سلطان

شعرها مبلغًا جعل علماء العربية يجمعون ديوانها جمعًا مبكرًا يتنافس فيه أَمَاثِلُ الْجَمَعَةِ من البصرة والكوفة، حتى استوى إليه أبو سعيد السكري فشرحه في العصر الذي كتب فيه أحمدُ مسندَه والبخاريُّ صحيحَه، في القرن الثالث الهجري، وهذا ما لم يحصل مع أيٍّ من القبائل سوى هذيل، وكل ديوان قبيلة أخرى الآن فهو تلفيق متأخر لا جمع قديمٌ.

ولله دَرُّ مُلَيْحِ بن الْحَكَمِ القِرْدِيِّ الهذلي إذ يقول:

غَـدَوْنَ وَأَعْقَـابُ الظَّـلَامِ يَشُـلُّهُ   صَبَاحٌ كَنَسْـجِ الْحَائِـكِ الْمُتَفَتِّقِ

وقد جاءت الرسالة في مقدمة وتمهيد وباب نظري وآخر تطبيقي وخاتمة.

أما النظري ففي التداولية؛ فلماذا التداولية؟

إن دراسة الأثر الذي يتركه الكلام يحتاج منهجًا وآليات بحث تعتني بشيئين: الأول: ما هو لغوي داخل في بنية الكلام، والآخر ما هو من الأوعية المعنوية الظارفة التي تُطِيفُ بالكلام وتشكل معه المعنى؛ فلا يصير المعنى المستنتَج أسيرًا لدلالة التركيب فقط، بل يصير التركيب مجردَ مشارك فيه بجوار مشاركة الزمان والمكان والخلفيات الاجتماعية والنفسية والجغرافية والتاريخية والسياسية وغير هذا، والتداولية تقدم لنا هذه الخدمة.

تقدم لنا هذه الخدمة بوصفها بنتًا بارةً بأمها السيمياء، لا مستقلة عنها إلا بقدر استقلال الجزئي عن الكلي الأعلى منه، فهي إذن علم لا محض مذهب أدبي ولا منهج علمي.

والباب الأول يناقش طروح المترجمين لتعريف التداولية، ثم يؤول إلى حِضن العلم النظري الأَعْرَق عند العرب، علمِ النحو، ليعرِّفها بأنها:

دِرَاسَةٌ لِأَثَرِ الْمَفْعُولِ الْمُطْلَقِ فِي الْمَفْعُولِ بِهِ مِنْ خِلَالِ قِيَاسِ مَدَى نَجَاحِ الْفَاعِلِ فِي تَوْظِيفِ الْمَفْعُولِ فِيهِ وَالْمَفْعُولِ مَعَهُ لِيُحَقِّقَ الْمَفْعُولَ مِنْ أَجْلِهِ.

ويتناول الباب موجات البحث التداولي عند العجم من لودفيغ فتجنشتيان وجون لانجشو أوستن، وما وضعه خطأ جون روجرز سيرل، وما تألق به بول جرايس من برنامج تحليلي بارع، ثم ما راكمته البريطانية ولسن مع الفرنسي سبربر، رحلة في الرصد والقياس للمنجز العلمي، والتساؤل عن مدى الجدوى.

وختم الباب بفصل مستقل للكلام عن جدوى دراسة الأدب ببرنامج تحليلي تداولي.

أما الباب الثاني فالدراسة التطبيقية:

وقد جاءت في خمسة فصول، أولها عن التوظيف القانوني للخطاب الشعري في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكيف كان أوساط الناس في هذيل من لهازِمِها إذا دَعَوُا الشعر لَبَّاهم، وكيف كان الشعر عندهم أقضى للغرض الاتصالي القانوني من غيره، كما تناول الفصلُ تراجمَ السكري ليكشف عن ذوق السكري في تراجمه.

فَكُنْ لِي ظَهِيرًا وَلَا أُظْلَمَنْ ... فَلَيْسَ وَرَاءَكَ لِي مَذْهَبُ

نَفَانِي، وَكُنْتُ ابْنَهُ حِقْبَةً ... إِلَيْهِ أَؤُولُ إِذَا أُنْسَبُ

والفصل الثاني عن رسالة أبي العيال الهذلي يستغيث فيها بأمير المؤمنين معاوية رضي الله عنهما، ويعنى بتعدد الأغراض التداولية للخطاب، بين ما هو وظيفي، وما هو أدبي؛ فالنصر معنًى قبل أن يكون جيشًا، ولا يكون الإنسان إنسانًا بالكلام والمتاع والأشياء وإنما بمعانيها، خلافا لما آل إليه الناس الآن، رحماك ربي.

وَتَجَرَّدَتْ حَرْبٌ يَكُونُ حِلَابُهَا ... عَلَقًا وَيَمْرِيهَا الْغَوِيُّ الْمُبْطِلُ

أما الفصل الثالث فيعيد ترتيب الديوان على قاعدة البيت الأشيع في كتب الأدب وألسنة العرب، لنصل إلى نص شعري تداوله: ابن عباس والحسين بن علي ومعاوية بن أبي

سفيان والحجاج بن يوسف وعبد الملك بن مروان وأبو جعفر المنصور وهارون الرشيد وابن المعتز. هذا عند الملإ من القوم، أما عند أصحاب النقد فكأن كتابا في أول خمسة قرون لم يخل منه في المشرق أو الأندلس، ثم عند السكاكي والقزويني وشراح التلخيص والمحشين عليه، وقد قام الباحث بتتبع هذا وما تجمع عليه ككرة الثلج شيئا فشيئا.

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

أما الفصل الرابع فجاء عن نظرية الملاءمة والخطاب الرثائي الهذلي، وتركز في مناقشة فكرة التخييل والتمثيل، مبديًا أسباب ازورار الباحث عن وصف الاستعارة التخييلية بالكنائية، وفاقًا لأثر هذا التخييل والتمثيل في المتلقي بين أبي ذؤيب وأستاذه ساعدة بن جؤية وأبي خراش والمتنخل وابن أبي ثعلب وأبي صخر وغيرهم.

في رثائيات أبي خراش لإخوته، ومنها:

فَقَدْتُ بَنِي لُبْنَى فَلَمَّا فَقَدْتُهُمْ ... صَبَرْتُ وَلَمْ أَقْطَعْ عَلَيْهِمْ أَبَاجِلِي

وفي **الفصل الخامس** جاء الكلام على كيف يتحقق الغرض بالصوت من حيث هو لا بإحالته على معنى وضعي بإزائه.

كما في قول عَبْدِ مَنَافِ بْنِ رِبْعٍ الْجُرَبِيِّ:

سَدُّوا عَلَى الْقَوْمِ فَاعْتَطُّوا أَوَائِلَهُمْ ... جَيْشَ الْحِمَارِ[1] وَلَاقَوْا عَارِضًا بَرِدًا[2]

فَالطَّعْنُ شَغْشَغَةٌ وَالضَّرْبُ هَيْقَعَةٌ ... ضَرْبَ الْمُعَوِّلِ تَحْتَ الدِّيمَةِ الْعَضَدَا[3]

وَلِلْقِسِيِّ أَزَامِيلٌ وَغَمْغَمَةٌ ... حِسَّ الْجَنُوبِ تَسُوقُ الْمَاءَ وَالْبَرَدَا

(١) كان في الجيش حمارا جاؤوا عليه.

(٢) لاقوا جيشا كالعارض البرد.

(٣) هذا البيت والذي يليه نسبا إلى أبي كبيرالهذلي أيضا، انظر: ج٣، ص١٧٤٣-١٧٤٤. والمعنى ضرب الذي يبني ما يستظل به من الشجر فيقطع بضرب شديد ذلك الشجر ليستعمل فيه البناء.

كَأَنَّهُمْ تَحْتَ صَيْفِيٍّ[1] لَهُ نَحَمٌ[2] مُصَرَّحٌ طَحَرَتْ[3] أَسْنَاؤُهُ[4] الْقَرَدَا[5]

وما قاله سَرِيعُ بن عِمْران الصاهلي الهذلي يعدد مناقبَ عمرًا ذا الكَلْب حين رثاه:

الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ يَتْبَعُهَا مُثْعَنْجِرٌ مِنْ دِمَاءِ الْجَوْفِ أُثْعُوبُ[6]

وفي النهاية كانت الخاتمة لنتائج البحث.

---

(١) الصيفي السحاب.

(٢) صوت مثل نحيم الدابة.

(٣) طحرت: دفعت. القرد: نوع من السحاب الصغير.

(٤) جمع سنا أي ضوء، والمقصود بالبيت كأنهم تحت مطر من سحاب مع صوت رعد كالنحم وضوء بروق.

(٥) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٦٧٤-٦٧٥.

(٦) السُّكَّرِيُّ: شَرْحُ أَشْعَارِ الْهُذَلِيِّينَ، ج٢، ص٥٨٠، والنجلاء: الواسعة، والمثعنجر: سائل ينصب، والأثعوب: سائل يتبع بعضه بعضا.

الْفِهْرِسُ

الْمَوْضُوعُ	الصَّفْحَةُ
شُكْرٌ	٥
الْمُقَدِّمَةُ	٧
التَّمْهِيدُ	١٣
الْبَابُ الْأَوَّلُ: الدِّرَاسَةُ النَّظَرِيَّةُ	٢٧
الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: نَشْأَةُ التَّدَاوُلِيَّةِ	٢٩
الْفَصْلُ الثَّانِي: تَعْرِيفُ التَّدَاوُلِيَّةِ	٣٥
الْفَصْلُ الثَّالِثُ: التَّدَاوُلِيَّةُ الْعَامَّةُ وَالتَّدَاوُلِيَّةُ اللُّغَوِيَّةُ	٤٦
الْفَصْلُ الرَّابِعُ: التَّدَاوُلِيَّةُ مَذْهَبٌ أَمْ مَنْهَجٌ أَمْ عِلْمٌ؟	٤٩
الْفَصْلُ الْخَامِسُ: نَظَرِيَّةُ أَفْعَالِ الْكَلَامِ	٥٦
الْفَصْلُ السَّادِسُ: نَظَرِيَّةُ الِاسْتِلْزَامِ الْحِوَارِيِّ	٧٥
الْفَصْلُ السَّابِعُ: التَّدَاوُلِيَّةُ وَأَدَبِيَّةُ الْخِطَابِ	٨٥
الْبَابُ الثَّانِي: الدِّرَاسَةُ التَّطْبِيقِيَّةُ	٩٩
الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: التَّوْظِيفُ الْقَانُونِيُّ لِلْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ	١٠١
الْفَصْلُ الثَّانِي: الْخِطَابُ الشِّعْرِيُّ رِسَالَةُ اسْتِغَاثَةٍ	١٢٨
الْفَصْلُ الثَّالِثُ: التَّرْتِيبُ التَّدَاوُلِيُّ لِشِعْرِ الْهُذَلِيِّينَ	١٦١
الْفَصْلُ الرَّابِعُ: نَظَرِيَّةُ الْمُلَاءَمَةِ وَسُلْطَةُ الْخِطَابِ الرِّثَائِيِّ الْهُذَلِيِّ	١٩٤
الْفَصْلُ الْخَامِسُ: الْمُلَاءَمَةُ الصَّوْتِيَّةُ فِي الْخِطَابِ الْهُذَلِيِّ	٢٤٢

CamScanner

الْمَوْضُوعُ | الصَّفْحَةُ
الْخَاتِـمَةُ ٢٤٩
الْمَصَادِرُ وَالْمَرَاجِعُ ٢٥١
الْمُلَخَّصُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ٢٦٧
الْفِهْرِسُ ٢٧٣
الْمُلَخَّصُ بِاللُّغَةِ الْإِنجِلِيزِيَّةِ ٢٧٥

CamScanner

Abstract

This dissertation offers a fresh pragmatic insight into the influential poetic discourse of Banu Hudhayl, employing an intricate set of analytical tools to explore the way of words in ancient Arabic verse. It begins by unfolding the wider scope of pragmatic functions to test their use in examining ancient Arabic poetic discourse. Then, it investigates the enormous public power the Hudhayli poetry held at the time, over the elite and the ordinary alike, applying pragmatic-discourse analysis tools to probe into Arabic rhetoric, as well as the Hudhayli methods of poetic presentation and persuasive techniques. The study concludes by addressing the question of how such ancient discourse withstood the test .of time, preserving its influence and appeal to modern taste

Ain Shams University

Faculty of Arts

Arabic Language Department

The PhD research:

Exploring the Power of Hudhali Poetic Discourse: A Pragmatic Study

Researcher:

Hatem Aws Mohammad Elsanosy Alansary

Supervisors:

Prof: Mostafa Abd alshafy Al-Shora

Dr: Salwa Mohammad Sleem Alawa

CamScanner